فنّ الأدب
(الجزء الثاني)

عنوان الكتاب : فنّ الأدب (الجزء الثاني)

اسم المؤلف: توفيق الحكيم

تقديم : مالك صقور

اختيار : رضوان قضماني

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/96/ أيار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

توفيق الحكيم

فنّ الأدب

(الجزء الثاني)

تقديم: مالك صقور

اختيار : رضوان قضماني

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (96)

الأدب ومصير العالم

مالك صقور

".. إن منظر الإنسان في هذا القرن ليدعو إلى العجب!

فالصورة الحقيقية له هي صورة مخلوق:

له ذكاء العالِم، وضمير القرصان، وغريزة الحيوان!.."

هذا ما كتبه توفيق الحكيم، منذ عام 1952.

ويا للأسف، ما زال منظر الإنسان هو، هو، كما وصفه توفيق الحكيم، بعد كل هذي السنين. لا بل قد صار أسوأ بكثير.

حقاً، أثبت العلماء من الذكاء والموهبة والعبقرية، ما لم يتصوره عقل، ولا خيال. فالعلم هو الذي دفع هذا التطور الخارق في كل التقانات، والتكنولوجيا، وثورة المعلوماتية، كما يشهدها عالم اليوم.

لكـن في الوقـت نفسـه، انتصـر القرصـان بشـكل الامبريالية المتوحش. كما انفلتت غريزة الحيوان من عقالها، وقد فاقت حدود العقل والخيال، أكثر من العلم. فإن ما يجري في ليبيا، والعراق، واليمن، وخاصة في سورية. أثبتت وتثبت، برهنت، وتبرهن، على غريزة هذا "الإنسان" ــ الحيوان، بأفعاله الإرهابية، التي وصمت القرن الحادي والعشرين بالعار والشنار.

إن المتتبع لبرامج (عالم الحيوان) وهي كثيرة، يدرك، أن الوحوش الكاسرة، لا تفعل ما تفعله الوحوش "البشرية" من بطش، وقتل، وذبح، وحرق، وتمثيل بالجثث، وأكل القلوب، ومضغ الأكباد، والمتاجرة بالأعضاء البشرية، إلى آخر المشهد التراجيدي اليومي.

نعم، كان مصيباً توفيق الحكيم حين قال: إن إنسان القرن العشرين: له **ذكاء العالم. وضمير القرصان، وغريزة الحيوان**، وهو أصدر حكمه في منتصف القرن العشرين. فكيف لو رأى، ما نراه اليوم. ماذا يمكن أن يقول أكثر من ذلك؟

كان الحكيم، حين كتب، مصيباً، وكان واقعياً حين وصف، وكم كان أمله كبيراً، في إتمام مهمة الأدب، ورسالة الأدباء العظمى، وهي السير بالعالم إلى التقدم، والتطور، والسعادة، وأن يعلّم الأدب "الإنسان" ويسير به إلى الكمال.

ولو نظرنا اليوم، بسرعة، إلى تاريخ الآداب، التي سعت إلى ترسيخ قيم الحب، والخير، والجمال، عبر تاريخ الآداب العالمية، لحكم قارئ اليوم من خلال مجريات الأحداث، أن كل ذلك، ذهب مع الريح.

فكل مجلدات الآداب، الآداب بأنواعها، لا تساوي رصاصة طائشة، ولا تصويب قناص، ولا عبوة ناسفة تطلق عشوائياً على أناس آمنين!!

عندما كتب توفيق الحكيم "الأدب ومصير العالم" في منتصف القرن الماضي، بعد الحرب العالمية الثانية، كانت أميركا "صاحبة الديمقراطية، وأم العقل الحر، وتمثال الحرية"، قد جرّبت القنبلة الذرية في اليابان، وكانت مأساة مدينتي "هيروشيما" و"ناغازاكي".

يقـول توفيـق الحكـيم: "**إن أزمـة الإنسـانية ـ الآن وفي كل زمـان ـ هـي أنهـا تتقـدم في وسـائل قـدرتها، أسـرع ممـا تتقدم في وسائل حكمتها!!**".

وهكذا، تطورت وسـائل الإنسـان الأول، **من المخالب، إلى أسلحة حجرية، ثم إلى حديدية، سيف، وخنجر، ثم إلى مدفع، وبندقية، وأخيراً إلى قنبلة ذرية!!**

***

يشـبه توفيـق الحكـيم الحيـاة: بـالنهر، بـالنهر الـذي لا يُعـرف مـن أيـن ينبـع، ولا يُعـرف أيـن يصـب. وهـو، إذ يشـبّه الحياة بالنهر، لا يأتي تشبيهه مـن فـراغ، بـل أتـى بعـد تجربـة حياتيـة كـبيرة، فيقـول: إنـه عـاش أحـداث حـربين عـالميتين، وعـاش في مصـر، وعـاش في أوروبـا، إبـان أزمـتين وثـورتين، وجرّب الحياة بكل واقعها، بحلوها ومرّها، طيبهـا وخبثهـا، عمـل بالقضـاء، وخـدم في الأريـاف، كمـا خـدم في المدينـة، عـرف الحـاكمين، وعـرف المحكـومين، اطلـع علـى خبايـا المجتمـع، وسـبر خفايـا الصـدور، وعـن كثـب، عـرف حيـاة الـذين يعيشـون في الأكـواخ، وفي القصـور.. ذاق مـرارة

الإخفاق، ومشقة الكفاح من أجل العيش، كما عاش لحظات فرح نشوة الكتابة، عرف القضايا السياسية، والاجتماعية، بكلمة: عرف المجتمع، قمته وقاعه.

وبعد هذا كله، شبّه الحياة، بالنهر:

هذا النهر؛ الذي يرغب بعضهم أن يبقى قريباً من ضفته، وبعضهم يرغب بالسباحة قريباً من شطه. وبعضهم يحب أن يسبح في عمقه ويغوص فيه. وبعضهم الآخر، يحاول البحث عن النبع، متقصياً المجرى من أوله إلى آخره. عارضاً بذلك تجارب الشباب، عبر رحلتهم القصيرة أو الطويلة في هذه الحياة، ويرى، أن آثار الأقدمين الخالدة، من كتب ومعارف، وفنون، هي كالزوارق، أو المراكب، وفي النهاية، هي كالسفن التي يمتطيها الإنسان لاستكشاف الينابيع ومجرى الحياة الكبرى...

***

وأعود إلى وصف توفيق الحكيم لإنسان القرن العشرين، الذي يدعو إلى الدهشة والعجب!! وصورته الحقيقية التي وصفها كالتالي:

له ذكاء العالِم، وضمير القرصان، وغريزة الحيوان!!

وهـذا الإنسـان، الـذي مُـنح (الكيـان الآدمـي) بخـيره وشـره. هـل بوسـعه أن يقتـل "الـوحش" الـذي بقـي فينـا؟! علـى الرغم، من العبقرية، والطموح، والـذكاء، ويتسـاءل وكلـه أمل، أن "نقيم في نفوسنا الخيّرة، سداً يقف في وجه الطغيان الذي يجمح بنا إلى الهلاك!".

ويتساءل الحكيم، ما وسيلتنا اليوم إلى بناء هذا السد؟

ومن الذي يتولى إقامته وتشييده؟

أهم رجال السياسة؟

أم رجال الفكر؟

أم رجال الدين؟

يجيـب توفيـق الحكـيم حـالاً: "لـيس رجـال السياسـة بالطبع!" فمن وجهة نظره، أنهم، أي رجال السياسة، مهما كانت نياتهم صافية ومخلصة... فهم، عاجزون عن التحرر مـن مطـامع دولهـم، لـذلك، في رأيـه، هـم متهمـون، وهـم المخفقون.

وفي رأيه أيضاً: "أما رجال الدين فخير من يضطلع بهذه المهمة ـ لكنهم لا يستطيعون فعل ذلك، لأن القيود المفروضة عليهم تمنعهم من الخوض في كل ميدان!..

ولهذا، يبقى رجال الفكر: لهم من سعة الأفق، وسمو النزعة الإنسانية، ومن التجرد عن الهوى، ومن الحرية في العمل، ما يمكنهم من أداء هذا الواجب العظيم".. ويعود فيسأل:

"فما الذي يقعدهم؟!..

يضرب الحكيم مثالاً: "لقد قام منذ أعوام قليلة نحو خمسمئة من رجال الفكر والأدب وعلى رأسهم: "أندريه جيْد" و"فرانسوا مورياك" طالبوا هيئة الأمم المتحدة، العمل على إلغاء الحروب، باعتبارها وسيلة من وسائل حل المشكلات الدولية!"...

يقول: "هذا عمل طيب، ونصيحة قيمة من رجال الفكر والأدب، ولكن مع الأسف! من الذي سيصغي إليها؟... ومن الذي سيستجيب؟!

***

إنـي أكـره، أن أكـرّر القـول: إن التـاريخ يعيـد نفسـه، وأضيف يكرر نفسـه، بصـور أبشـع، وأفعـال شـنيعة، وبـأداء الأمـم المتحـدة بكـل وقاحـة وقـبح، وهـي الأمـر: بارتكـاب الجرائم بحق الشعوب الآمنـة المستضعفة، والفـرق: إن رجـال الفكـر، أيـام زمـان، طـالبوا بإيقـاف الحـروب، والمجـازر.. واليوم يتفرج العالم، وكأن شيئاً لم يكن!!!

قـال توفيـق الحكـيم، في منتصـف القـرن الماضـي: إن إطلاق الصيحات والاحتجاجات، من رجال الفكـر، مـا عـاد يجـدي.. ولم يبـق للإنسـانية مـن طريقـة سـوى، إيفـاد رجـال الفكر أنفسهم، بـدلاً مـن رجال السياسـة، إلى حيث يبتـون في مصير العالم كله".

بعد ذلك، يسأل الحكيم:

ولكن من الذي سيوفدهم بهذه الصفة؟

وهنا تكمن المسألة.

***

يعترف توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ إن ما يطالب به ما هـو إلا حلـم، ولا يمكـن أن يتحقـق في مسـتقبل قريـب، ويكتفـي بأضعف الإيمـان، قـائلاً: حسب رجـال الفكـر أن يؤدوا واجبهم.

في أيامنـا هـذه، فقـدنا أضعف الإيمـان، حـين نـرى أن حكومـات ((العـالم الحـر)) تتكالب علـى سـورية، وتشـعل ليبيـا، وتحـرّض حكـام آل سـعود لتـدمير الـيمن. ولتحويـل الحروب ـ عربيـة/عربيـة. بـدلاً مـن توجيه البوصلة والبندقيـة إلى العـدو الصـهيوني. وهنـا، تكمـن المأسـاة. وهنـا تكتمـل التراجيديا.

ولكـن سـيبقى الأمـل والحلـم، برسـالة الأدب والفـن، رسالة الأدباء العظمى: قتل الوحش فينا، وتخليص العالم مـن الإرهـاب، والسير بالإنسان إلى الكمـال. كمـا يأمـل توفيـق الحكيم، ويحلم كل أدباء الأرض. ونحن في اتحاد الكتاب العرب، وهيئـة تحرير مجلة "الموقف الأدبي" إذ نقدم كتـاب "فـن الأدب" ـ لتوفيـق الحكـيم، نأمـل أن يجـد القـارئ فيـه الجواب عن أسـئلة كـثيرة، حـول الأدب والفـن، والحضـارة،

والعلـم والـدين، والمسـرح، والصـحافة والسـينما والإذاعـة، ومشكلات الأدب، وأجياله والتزاماته. وفي الوقت نفسه، أن يـثير أسـئلة أخـرى معاصـرة، وحـواراً ومناقشـة، لتكتمـل الفائدة.

وإلى اللقاء مع كتاب جيب جديد

الباب السابع

الأدب والمســـــــرح

المســرح هــو أقصــر طــرق الأدب للوصــول إلى الجمهور، ولكنه أكثر الطـرق امتلاء بـالعوائق والصخور...

فن المسرحية

للمسرحية عندي اعتبار خاص؛ ذلك لأن الحوار ـ بما فيه من إيجاز وتركيز ـ هو القالب الأدنى القريب إلى سليقتي المحبة للنظام؛ فالفن عندي نظام، والنظام عندي هو الاقتصاد، أي البيان بلا زيادة ولا نقصان!... ربما كانت هذه الطبيعة عندي ميراثاً قديماً، من أثر رواسب شخصيتنا العتيقة؛ فالعرب كانوا يرون البلاغة في الإيجاز، ومصر القديمة كانت ترى البراعة الفنية في البناء والتركيز: فالهياكل الكبرى آية من آيات التصميم الهندسي الدقيق، والتماثيل العظيمة آية من آيات التفكير المركز ببساطة في الحجر المجرد!... من كل ذلك عنيت دائماً بقراءة أعلام الأدب المسرحي، لا قراءة متعة ولذة واستطلاع فقط، بل قراءة درس وتأمل وفحص؛ فكنت أقضي الساعات أمامَ

نص من النصوص، أقلب فيه منقباً عن أسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه، مستخلصاً ـ بنفسي ولنفسي ـ ملاحظاتي في طرائق التأليف المسرحي؛ ــ ذلك الفن العسير، الذي أحببته أيضاً لأنه عسير؛ فما أزهد في شيء ـ زهدي في الفن السهل، الذي لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس!... وما أبجل شيئاً ـ تبجيلي للفن الذي يصمد؛ كالصخرة في طريق الفنان، فما يزال به يعالجه: بالصبر الطويل، والكد المضني؛ ـ حتى يفجر منه الماء السلسبيل!...

ذلك رأيي في المسرحية التي هي ــ فيما أعتقد ــ كالقصيدة الشعرية، نوع من الأدب صعب دقيق؛ لأن المعترض له يجد نفسه أمام طائفة من القيود، قيود صارمة، بل عوائق قاسية، تجعل نصيبه من حرية العمل قليلاً؛ فهو ليس حراً في اختيار الموضوع، ليس حراً في طريقة المعالجة، ليس حراً في الحيز الذي يصب فيه فنه، ولا في الوقت الذي يعرض فيه عمله!... أما الموضوع، فليس كل موضوع يصلح للتأليف المسرحي؛ كما أنه ليس كل موضوع يصلح للنظم الشعري!... فكما أن هنالك موضوعات، لا تستطيع أجنحة الشعر حملها، من دون أن يبدو عليها التكلف، والتثاقل،

والترنح ـ تحت وقر طبيعتها الأرضية؛ فمثلاً: ليس للشعر أن يتكلم في أسعار القطن، أو أن يبحث في غطاء العملة ــ كما يسهل على النثر أن يفعل؛ ـ كذلك التأليف المسرحي، لا يمكن أن يعالج موضوعاً، يتعذر إظهاره على مسرح محدود، بواسطة ممثلين من الآدميين؛ فمثلاً ليس للمسرحية أن تعالج موضوعاً وصفياً، تلعب فيه الجمادات والنباتات، والعجماوات ــ دوراً أهم من دور الإنسان؛ فهذا مما يسهل على القصة المروية الوصفية أن تقوم به، ومما يتعذر على القصة التمثيلية أن تظهره لا بد ــ إذن في المسرحية ــ من اختيار الموضوع الممكن إبرازه على المسرح الآدمي!...

على أن الصعوبة الكبرى ليست هنا، إنما هي في العثور الموفق على الموضوع الجيد؛ فقد يتوفر للمؤلف المسرحي كل عناصر النجاح من موهبة، ومقدرة، وحسن استعداد، وسعة حيلة؛ ــ ولا يسقطه غير الموضوع الرديء، على حين أن الموضوع الجيد، قد يرتفع بمواهبه إلى المستوى الذي يخرج أحياناً الأثر الخالد؛ لذلك اعتبر بعض النقاد أن التوفيق إلى الموضوع الجيد، هو ـ للشاعر والمؤلف المسرحي ـ اكتساب لنصف الموقعة!... في حين أن كل موضوع، تمكن

القصصي الراوية. من حوادثه، وجمع تفاصيله ـ يستطيع أن ينجح خير النجاح بمجرد وصفه وحكايته، دون اعتماد إلا على جودة نثره، وصدق تعبيره، وبراعة سرده!...

فالموضوع الجيد في المسرحية ضرورة من ضروراتها؛ شأنه في ذلك شأن النغم الجيد في القطعة السمفونية!... ففي الموسيقى، تعتبر النغمة الجيدة، هي تلك التي تحمل في جوفها توليدات عدة لألحان موفقة، فما يكاد يعثر عليها الموسيقي، حتى يجدها كالحبلى بالتخريجات، التي يستطيع أن يملأ بها حركة سفمونية بأكملها، في حين أن النغمة الرديئة تولد صماء جوفاء، عاقراً عقيماً، يحاول الموسيقي عبثاً أن يستخلص منها شيئاً... كذلك الموضوع المسرحي الجيد، هو ذلك الموضوع الغني، الذي ما يكاد يلمسه المؤلف حتى يفيض بين يديه بالمواقف المتجددة، والأفكار الطريفة، والشخصيات المتنوعة؛ حتى ليحس معه أنه ينمو بالمعالجة، ويكبر ويزدهر؛ الشجرة المباركة، التي تتهيأ للإثمار الكثير!... في حين أن الموضوع الرديء، ما يكاد يفتح بابه حتى يغلق، وإذا حاول المؤلف إرغامه، وحمله على ما لا يستطيع بطبعه، ظهر العنت فيه والتصنع

والافتعال؛ كالقصيدة الشعرية، التي تنظم في موضوع رديء سواء بسواء، فإن القوافي تبدو فيها متكلفة؛ كأنها منحوتة من صخر، والمعاني مكررة جوفاء؛ كالطبل!...

فإذا اختار المؤلف المسرحي موضوعه الصالح؛ فإن قيداً آخر سرعان ما يظهر له، ذلك هو القيد المفروض على حرية المعالجة. فهو لا يستطيع أن يعالج موضوعه بالحرية التي يعالج بها القصاص العادي قصته المرسلة... فليس له أن يجري حوادثه في مختلف القوالب التي تتيحها القصة المرسلة لمؤلفها، مثل قالب الاعترافات أو المذكرات أو اليوميات أو الرحلات أو الرسائل، أو قالب الرواية على لسان صديق أو شاهد عيان، أو قالب الحكاية تسرد كما يريد المؤلف أن يسردها... لا... لا شيء من هذا يباح لمؤلف المسرحية إنه مقيد بطريقة واحدة وقالب واحد لا يتغير ولا ينبغي أن يتغير... فهو في هذا أيضاً شبيه بزميله الشاعر في إنشاء القصيدة، والتزامه فيها بالوزن والقافية... فهو لا يمكن أن يخرج عن قالبه التمثيلي الذي يقضي بأن تجري الحوادث دائماً من أفواه أشخاص يتحاورون، وإذا تحاوروا فلا ينبغي أن يظهر المؤلف بينهم أو يتدخل فيما يقولون ليصف ما غمض من

أحـوالهم وتصـرفاتهم، في حـين أن هـذا كلـه ممكـن مبـاح للقصصي الراوية الذي لا حرج عنده، كلمـا غمض موقف، مـن أن يتـدخل بنفسـه واصـفاً محلـلاً مفسـراً مـا يجـري في رؤوس أشخاصـه مـن أفكـار، ومـا يحـدث في نفوسـهم مـن انفعـالات!... هنـا، المؤلـف المسـرحي مغلـول اليـدين، مطلـوب منـه أن يخلـق أشخاصـاً، دون أن تقـع عليهم قطعـة مـن مـداد قلمــه، تفضــح وجــوده، أو تكشــف أن خلــف مخلوقاتــه مؤلفـاً!... حـديثهم ـ وحـده فيمـا بيـنهم ـ هـو الـذي يجـب أن يخلقهم!... وهذا الحديث ـ بألوانـه المختلفـة ـ هـو الـذي يميـز طباع كل منهم عن الآخر!...

لهـذا يـتعين ــ علـى المؤلـف المسـرحي ــ أن يـتخير مـن الأشخاص من تعقدت حياتهم إلى الحدّ الذي يستطيعون معـه أن تكـون قلـوبهم موضـعاً لانفعـالات مختلفـة، ونفوسـهم مظهــرة لطبــائع متباينــة، وعقــولهم قــادرة علــى التعــبير والإفصـاح!... ولقـد كـان مؤلفـو المسـرح في القـديم يـتخيرون أشخاصهم من بين الملوك والأمـراء وعليـة القـوم، يـوم كـانت الثقافة وما يتبعها ـ مـن تعقـد الحيـاة، والمشـاعر، والفكـر ـ محصـورة فـيهم، فلمـا انتشـر التعلـيم والتثقيـف في العصـور

الحديثة، وشمل أهل الطبقات المتوسطة في الحضر، وتعقدت ـ تبعاً لذلك ـ وتنوعت حياتهم وعواطفهم وعقولهم؛ اتجه المؤلف المسرحي إلى هذه الطبقة الوسطى، ينتقي من بينها أشخاصه، وهو لهذا السبب قلما يترك الحضر، ويتجه إلى الريف؛ فإن عدد المسرحيات، التي اتخذت من الريف موضوعاً، ضئيل جداً في تاريخ الآداب المسرحية قديمها وحديثها!... وهذا راجع، بالضرورة، إلى أن أهل الريف؛ بحياتهم الراتبة الهادئة، التي تجري على نمط واحد، وبخلقهم الساذج البسيط ـ قلما يمنحون كاتب المسرحية ما يحتاج إليه من الحوادث التي تكشف عن حقائق الطباع وغرائب الأخلاق، وما يلزمه من مدارك، تحسن الإفصاح والتعبير عن خفايا النفوس ـ فضلاً عن عنصر الطبيعة في الريف، وصلته، بالناس، وحاجته إلى شاعر يتغنى بجماله، أو ناثر يصف ألوان؛ ـ أكثر مما يحتاج إلى المسرحي الذي لا يبني عمله إلا على ألوان النفوس، والطبائع، والأخلاق، والمدارك!...

فإذا تم لمؤلف المسرحية اختيار الموضوع، وتم له حذق طريقة المعالجة؛ ـ فإن صعوبة أخيرة تنهض له: وهي أن حرية

التنقل بحوادثه وأشخاصه ممنوعة عليه، فليس له أن ينطلق بقلمه يهيم في كل واد كالقصصي الراوية!... يجلس أشخاصه في بيت، ثم ينقلهم بعد صفحة إلى قمة جبل، أو جوف طائرة، أو ظهر سفينة!... إن المسرحي مقيد بمناظر قليلة، يجب أن تجري في إطارها المغلق القصة التي يعرضها كلّها!... هذا الحيز الضيق، لا بد من أن تتحرك فيه أعظم المآسي البشرية والمهازل الإنسانية، وأن تحدث من الأثر في النفوس ما تحدثه ــ أو ربما أكثر مما تحدثه ــ الرواية المروية، التي يتحرك أبطالها في كل صفحة أو سطر بين مشارق الأرض ومغاربها!... ولقد جاءت السينما أخيراً، فأغرت الناس بهذه القدرة على عرض رواية، يتحرك أشخاصها في السماء والأرض والبحر، بسرعة تفوق سرعة الخيال، وتظهر المناظر الطبيعية على أجمل ما تكون، بألوانها الأصلية، وتتفنن في تصوير الظواهر والكوارث؛ كالعواصف، والأمطار، والزلازل، والبراكين، وصدام القاطرات، واحتراق الطائرات ــ على أدق ما تكون من الحقيقة والواقع، مما كاد يؤثر في حياة المسرح والمسرحية، بل مما أدى إلى أن يتأثر بذلك بعض رجال المسرح، فأخذوا

ينشئون المسارح الدائرة أو الصاعدة الهابطة بالآلات الكهربائية، التي تمكنهم من تمثيل مسرحية في أكبر عدد من المناظر... ولكن هذا التأثر الطارئ لم يلبث أن ولّى، وثبت للمسرح والمسرحية ما لهما من تقاليد عريقة، وآمن الجميع بأن المسرح فن له صفته الخاصة، وله طبيعته المختلفة عن طبيعة السينما، وأنه ليس له أن يخرج عن صفته وطبيعته ليقلد ويتأثر؛ فإن مجد المسرح هو في حيزه الضيق، ومناظره المحدودة، وإن عظمة المسرحية هي في القوة الخفية السحرية، التي ترغم النظارة على أن ينفَذوا إلى أعمق الأسرار البشرية، ويحيطوا بأسمى المعاني وأجمل المشاعر، ويستمتعوا بأبهج الطرائف، وأظرف المباهج، من خلال كلمات تُلقى ـ لا أكثر ولا أقل ـ من دون معين: من حركة خارجية سريعة تعلق النفس، أو ظهير من صور متتابعة متغيرة تخطف البصر؛ ـ هذا التقيد بالحيز الضيق في المكان، يكمله غل آخر هو التقيد بالحيز المحدود في الزمان!... فليس للمؤلف المسرحي أن يكتب ـ ويكتب كما شاء له هواه ـ مثلما يستطيع القصصي الرواية، ذلك الحر الطليق الذي يملأ الصفحات كما يريد وعلى قارئه أن يتبعه!... لا،

إن المؤلف المسرحي مقيد بوقت مشاهده وهو له التابع، فهو مطالب بأن يكتب مسرحيته، في حدود الزمن المصطلح عليه في دور التمثيل، فكل ما يقع في المسرحية من أحداث، يجب أن يجري خلال عدد معين بالذات من الصفحات، يستغرق في التمثيل قدراً معيناً بالذات مع الوقت....

شأن مؤلف المسرحية هنا شأن الموسيقي أيضاً؛ فهو مقيد ـ هو الآخر ـ بوقت السامع، لا يستطيع أن يمضي في لحنه ـ مأخوذاً بالتحمس، أو الوحي ـ فيطيل في تأليفه إلى الحد الذي يجاوز مجلس السماع المصطلح عليه في دور الموسيقى؛ فالوحي عند الموسيقى ومؤلف المسرحية، يجب أن ينظر في الساعة من حين إلى حين؛ ليعرف الحدود التي يتحتم عندها أن يقف!...

تلك هي المعوقات والالتزامات، التي تفرض على كاتب المسرحية، قبل أن يحمل القلم ليبدأ في العمل!... أغلال أربعة توضع في يديه وقدميه؛ لتحول بينه وبين الانطلاق؛ ليصول ويجول بقلمه حراً؛ كما يباح للآخرين من أهل التأليف!...

الحوار

إذا ذكرت المسرحية ذكرت معها كلمة الحوار.... ذلك أن الحوار هو أداة المسرحية... فهو الذي يعرض الحوادث، ويخلق الأشخاص، ويقيم المسرحية من مبدئها إلى ختامها!... والحوار في أغلب ظني كالشعر، ملكة تولد أكثر مما هو شيء يكتسب، وإن كان طول الممارسة والمرانة، له بالطبع أثر كبير في الوصول به إلى الجودة والإتقان!...

والرأي في أن الحوار ملكة، راجع إلى صفته الضرورية له، وهي: التركيز والإيجاز، والإشارة التي تفصح عن الطبائع، واللمحة التي توضح المواقف!...

هذه الصفة لا تناسب كل الناس، ولا تلاصق كل الأدباء؛ فمنهم من خُلِقَ للإفاضة والتحليل والإسهاب، فإذا

طلبت إليه أن يوجز أحسّ الضيق، وشعر كأنك قد حبسته أو حبست قلمه الفياض، وكتمت بيانه المسترسل، وحلت بينه وبين سليقته الميالة إلى العرض والسرد!...

على عكس ذلك الأديب المسرحي، فهو يضيق بالإفاضة، والوصف، والاسترسال، ويحب إصابة الهدف بكلمة، أو رسم الشخصية في إجابة، أو الإحاطة بالمعنى في عبارة؛ - كذلك الشاعر له تلك الطبيعة التي يستطيع بها أن يضيء الكون بشطر بيت، ولو أعطيته الصفحات؛ لينثر فيها هذا المعنى الذي وضعه في ذلك الشطر؛ - لتعثر أسلوبه، وضعف نثره، وشحب معناه، وبدا عليه العِيّ، وغلبت عليه الركاكة!...

الحوار إذن كالشعر: استعداد طبيعي، يميل إليه أولئك الذين يميلون إلى الاقتضاب، ذلك أن ألد أعداء الحوار الإطالة والحشو، فهو هنا أيضاً كالشعر لا مكان فيه للكلمة الزائدة والمعنى المكررة؛ لأن كلّ كلمةٍ تُلقى لها حيز مرقوم، ووقت معلوم!... هذه الصلة بين الشعر والمسرحية ليست مما يقال على سبيل التشبيه، وإنما هي صلة حقيقية، نبتت في الآداب القديمة؛ فقد كان كتّاب

المسـرحية ـ﴿ عهـد الإغريـق شـعراء، وظـل الأمـر كـذلك إلى العصـور الحديثـة، ولا تـزال بعـض الآداب الأوربيـة تسـمّي المؤلف المسرحي "شاعراً"، حتى إن كان ـ﴿ كـل مسـرحياته "ناثراً!...

والحوار باعتباره أداة المسرحية تقع عليـه أعبـاء كثيرة، بـل عليـه وحـده تقـع كـل الأعبـاء!... فمنـه نعـرف قصـة المسـرحية، ومـا انطـوت عليـه مـن حـوادث ومواقـف، وهـو لا يقصها علينا حكاية وقعت ـ﴿ الماضي، ولكنـه يقيمهـا أمـام أعيننـا ـ﴿ الحاضـر حيـة نابضـة تتحـرك!... فـالحوار هـو الحاضر، هو مـا يحـدث ـ﴿ اللحظـة الـتي نحـن فيهـا، حاضـر أبـدي، لا يمكـن أن يكـون ماضـياً أبـداً!... اقـرأ مسـرحية لـ"سوفوكليس"، أو "شكسبير"، أو "موليير" ـ اليـوم وغـداً ـ كما قرأها قبلك بأجيال وقرون أناس كثيرون، فإن الحـوار يبرز أشخاصها ماثلين، حاضرين، يتكلمـون، ويتحركـون؛ ـ ـ﴿ حاضر دائم!...

فمهمة الحوار إذن، ليست أن يروى ما حدث لأشخاص، ولكن مهمته أن يجعلهم يعيشون حوادثهم، أمامنـا مباشـرة، دون وسيط أو ترجمـان، فـإذا قـام الحـوار بهـذه المهمـة، فـإن

واجبه لم ينته بعد؛ فنحن لا يكفينا منه في المسرحية أن يكشف لنا عن حوادث ومواقف، بل عليه ـ فوق ذلك ـ أن يلون لنا هذه الحوادث، وهذه المواقف، باللون الموافق لنوع المسرحية؛ فإن كانت مأساة تخيَّر من الألفاظ ما يثير في نفوسنا الرهبة، والجزع والجلال والخشوع، وإن كانت ملهاة انتقى من العبارات ما يشيع في قلوبنا روح الفكاهة، والمرح، والسخرية، والعبرة!... فالحوار في يد المؤلف المسرحي؛ كالريشة في يد المصور، وهي المنوط بها الرسم، والتلوين، والتكوين، وكل ما يوضع على اللوحة من فن!...

ولا تقف مهمة الحوار عند رسم الحوادث، وتلوين المواقف؛ بل هو الذي يعول عليه أيضاً في تكوين الشخصيات، فلا بد لنا من أن نعرف طريقة طبائع الأشخاص، ودخائل نفوسهم، فهو الذي يجب أن يظهرنا على ما ظهر منهم وما خفي، ما يفعلون أمامنا، وما ينوون أن يفعلوا، ما يقولون لغيرهم من الأشخاص، وما يضمرون لهم في أعماق النفوس!...

فإذا قام بهذا كله كان عليه واجب آخر، هو خلق جو المسرحية!... وهو عمل دقيق، لا يبوح لنا الحوار بسره، وليس

هو بالعمل المنظور، ولكنه من عجائب الحوار أحياناً؛ فهذا الجو الشعري السحري، الذي ينبعث من مسرحية "العاصفة" لـ"شكسبير"، ما سره؟... وكيف استطاع الحوار أن يباعد بينه، وبين جو آخر، لقصة أخرى، للمؤلف نفسه هي "عطيل"؟... ثم هذا الجو المخيم على مسرحية "دون جوان" لموليير، ما أبعده عن جو مسرحية "الطبيب رغم أنفه"؟!... وهذا الجو المسيطر على "فاوست" لجوته، ما أبعده عن الجو المحيط بمسرحيته "إيجمونت"؟!... فالحوار هو الحوار، والمؤلف هو المؤلف، ولكن الحوار ينسج لكل مسرحية الجو الذي يلائمها!...

العجيب في الحوار ليس أنه يؤدي الأغراض المختلفة بمفرده، بل العجيب أنه يؤديها كلها في الوقت عينه، فقد يرسل العبارة من عباراته إرسالاً على لسان شخص من أشخاص المسرحية، فإذا هذه العبارة محملة بمختلف المهام؛ ففيها إخبار بحادثه، بحادثة وفيها تكوين لشخصية، وفيها خلق لجو، وفيها تلوين لروح مظلم، أو مفرح... مثلها كمثل العبارة الموسيقية، التي تنطلق محملة بالنغم، الذي يروي، ويلوّن، ويكوّن، ويثير، كل هذا في لحظة؛ وكشأن البيت

في القصيدة الشعرية، ينطلق حاملاً إلى النفس عذوبة ووزناً، وفكراً ومعنى، وصوراً، كل هذا في آن!...

هذا الكلام منصب على الحوار بوجه عام، باعتباره أداة المسرحية ولكن هذا الحوار - لو نظرنا إليه بوجه خاص وهو في أيدي أقطابه - لوجدنا في أساليب ممارسته من العجائب ما يحتاج إلى كلام طويل، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الملاحظات العابرة: من ذلك ما قد يراه المتأمل في أسلوب الحوار، عند "شكسبير" في بعض مآسيه، وفي أسلوب الحوار، عند "موليير" في بعض ملاهيه: إن المتأمل في حوار "هاملت"؛ مثلاً، أو حوار "مكبث"، يلاحظ أن طريقة الحديث فيهما - بين الأشخاص - لا تجري على منطق الحديث الواقعي - بين الناس - في الحياة!... إنما هو حوار يجري على منطق الشعر؛ فهو لا يتسلسل بنظامه الطبيعي في الحياة الواقعية، ولكنه يتسلسل بنظامه الطبيعي في حياة المعاني النفسية؛ فهو يقفز قفزات، ويعبر فجوات، ويستعين بالكلمات المضيئة، والحكم البليغة، والصور اللامعة؛ ليصل في صفحات قليلة إلى أغوار النفوس الإنسانية، وأسرار الطبائع البشرية!... "شكسبير" مؤلف

واقعي الهدف، شاعري الأسلوب!... لقد احتفظ بطبيعة الشاعر، وطريقته في معالجته لأدق شؤون الحياة والبشر، وشعره وإن كان مرسلاً أي أقرب ما يكون إلى النثر، فإن روحه لم تزل أرفع ما يكون الشعر، في حين أن "موليير" كتب بعض ملاهيه بالشعر المقيد الموزون، ولكن حواره يتسلسل دائماً بنظامه الواقعي في الحياة، ويجري الحديث بين أشخاصه؛ كما يجري في الحياة العادية، لا يعوقه إلا النظم الذي يضيق به السامع أو القارئ أحياناً، ولا يدري فيم الالتجاء إليه، وكل شيء بدونه، وعلى الرغم منه، غارق في دنيا الواقع!... "موليير" مؤلف واقعي الهدف، واقعي الأسلوب، على الرغم من شعره المقيد المنظوم!...

هذان لونان من الحوار وضعا شعراً؛ كلاهما يخلق من الأشخاص الحية، ويبرز من خفايا النفوس البشرية ما اعتبره التاريخ من مفاخر الفكر الإنساني، وهما مع ذلك مختلفان في الأسلوب؛ أحدهما يجري الحوار بروح الشعر ـ وإن اقترب من النثر، والآخر يجري الحوار بروح النثر ـ وإن تقيد بالنظم!...

هناك لون ثالث من الحوار، لشاعر أيضاً، كتب بعض مسرحياته بالشعر، وهو "إبسن": تجد أن الحديث الذي يجريه على لسان أشخاصه، يتسلسل بنظامه الواقعي، على طريقة "موليير"، ولكننا نشمّ مع ذلك عطراً غريباً، ينبعث من بين حواره، يذكرنا بذلك العطر الشعري، الذي ينبعث من خلال كلمات "شكسبير"؛ فهو مؤلف واقعي الأسلوب، شاعري الجو!...

هنالك أيضاً لون رابع من الحوار، لشاعر في قصة شعرية، هو "جوته"، في "فاوست" ـ هنا نجد الواقع ليس هو شاغل المؤلف؛ فهو لا يعنيه أن يظهر أشخاصاً إنسانية، تعيش في محيطها الإنساني، ولا تهمه مآسي البشر ولا ملاهيهم، ولا مجتمعهم، وحياتهم، ومشاغلهم في ذاتها، ولا من حيث هي؛ ـ إنما الذي يهمه في قصته هذه، هو علاقة الإنسان بما هو أعلى، هنا إذن مجال الفكر والشعر، وهنا نجد أسلوب الحوار ـ عند "جوته" لا يتسلسل طبعاً بنظام واقعي، ولكنه يجري محمولاً؛ على أكتاف الفكر مرة، وعلى أجنحة الشعر مرة أخرى؛ فهو هنا مؤلف فكري الهدف، شاعري الأسلوب!...

هـذه ملاحظـات خاطفـة علـى بعـض أسـاليب الحـوار، تدلنا على أن أداة المسرحية وإن كانت واحدة لا تتغير، لأنـه مـا مـن مسـرحية تقـوم إلا بهـا!... فإنهـا ـ أي الحـوار ـ يختلـف لونهـا، وطبيعتهـا، وروحهـا، وطريقتهـا، ـ بـاختلاف طبيعـة الفنان، وطبيعته العمل الفني!...

البناء

إذا ملك أديب مسرحي ناصية الحوار؛ فما الذي يبقى أمامه لينشئ مسرحية؟... لا شيء أمامه غير أن يشرع في البناء؛ ـ ذلك أن المسرحية كيان مبني، أي قائم بعضه فوق بعض، ومرتبط جزؤه بكله في منطق ونظام ـ هذه الأجزاء التي يضمها هذا البناء، تتكون منها مراحل ثلاث: العرض، فالعقدة، ثم الحل!... أما العرض فمهمته تقديم الأشخاص، وطيف الحادثة؛ التي ستتضح ملامحها فيما بعد، وتتعقد، ثم تنفرج عن الخاتمة!...

وطرق العرض كثيرة، وهي تختلف باختلاف المؤلف، أو باختلاف المسرحية؛ فالطريقة التي قدم بها "موليير"، مثلاً، بطله في مسرحية "تارتوف" تختلف عن الطريقة التي قدم بها، هو نفسه، بطله في مسرحية "السيد البورجوازي"؛

فهو في "تارتوف" لم يظهر البطل على المسرح من أول الأمر؛ ـ بل مهد لظهور بحديثٍ بين أشخاص آخرين، تناولوه فيه بالوصف، والتحليل، والرسم، والتصوير ـ فلما ظهر بعدئذ، كان المشاهد أو القارئ قد عرف عن شخصيته الشيء الكثير، ولم يبق عليه إلا أن يتتبعه في حوادث القصة؛ ليرى تأثيرها فيه أو تأثيره فيها!... أما في "السيد البورجوازي"، فإننا نجد ـ على عكس ذلك ـ بطل المسرحية قد ظهر، منذ اللحظة الأولى، من دون أن يمهد له أحد بحديث، ومن دون أن نعرف من أمره شيئاً؛ فما يكاد يتكلم هو حتى نعرف من كلامه نوع عقليته، وكلما أوغل في الحديث، كشف لنا عن لون شخصيته؛ فالبطل هنا هو الذي يقدم نفسه بنفسه، من مبدأ الأمر...

هنالك طريقة أخرى، اتبعها "شكسبير" في تقديم بطله "مكبث"؛ فما من أحد مهَّد لمكبث بحديث، وما كشف لنا هو بحديثه عن طباعه، ولكن حادثة خاطفة اعترضت ـ عند ظهوره ـ فسلطت على أغوار نفسه المصباح؛ ـ تلك هي نبوءة الساحرات!... فهو لم يكد يظهر لنا، حتى ابتدرته الساحرات متنبئات له بالملك!... هذا الحدث العارض

البسيط، فتق لنا سريعاً قلب "مكبث"؛ فبدا فيه من ألوان الشعور الأثيم، ما كان هو نفسه يجهله طول حياته!.. شخصية مكبث الماضية لم يكن لها أثر في مستقبله، فهو في ماضيه لا غبار عليه، ولكن طبعه الطيب في الماضي لا سلطان له على كبح آثامه، ووقف مطامعه في الغد؛ ـ لذلك لم يجد "شكسبير" حاجة إلى عرض ماضي "مكبث"!. إن "مكبث" عند "شكسبير" هو الطموح الذي يحطم القيود، هو المستقبل الذي يلتهم الحاضر والماضي!... لذلك بدأت القصة، وكأن أشخاصها يركضون في المستقبل ركضاً، المستقبل الذي غيّر كل شيء، المستقبل الذي سفك دم كل شيء حتى ماضي البطل الطيب!...

على عكس ذلك مسرحية "عطيل"!... هنا الماضي هو الذي يؤثر في المستقبل، ويدفع إليه، هنا طيبة "عطيل الماضية ـ بما فيها من حرارة المغرب، ودمه الفوار، وحمق البطل، ورعونته، وجرأته ــ هي التي أدت إلى حدوث الكارثة في المستقبل. أهمية هذا الماضي في مسرحية "عطيل" جعلت "شكسبير" يعنى بعرض حياة بطله الماضية عرضاً وافياً، حيناً على لسانه، وحيناً على لسان الآخرين!...

طرق العرض إذن تختلف، لا باختلاف المؤلف فحسب بل أيضاً باختلاف الموضوع والشخصية!...

فإذا تم العرض فقد بدأت المرحلة الثانية في المسرحية وهي العقدة، أي حادثة توشك أن تقع، ويترتب على وقوعها نتيجة أو نتائج، أو هي مشكلة اجتماعية، أو عاطفية، أو فكرية؛ تتهيأ للظهور، وينجم عن ظهورها، واشتباك أطرافها نتيجة أو نتائج!... على أنه ليس من الضروري ـ في كل الأحوال ـ أن يتم هذا الانفصال ـ بين العرض والعقدة ـ على نحو واضح؛ فقد يحدث أحياناً أن تتداخل المرحلتان، إحداهما في الأخرى؛ كما نلاحظ ذلك في مسرحية "مكبث" أيضاً: فهي قد بدأت بحادثة هي حادثة النبوءة!...

هذه الحادثة عرضت لنا الشخصية، وهيأت لنا العقدة في الوقت نفسه، وكأننا نرى أشخاص المسرحية يصعدون إلينا من جوف الحادثة، أو لكأننا نجدهم أمامنا فجأة معروضين مخلوقين، من نسيج تلك العقدة!... على عكس ذلك مسرحية "عطيل"؛ ففيها نرى العرض منفصلاً تمام الانفصال عن العقدة!... هنا المرحلتان متباعدتان متميزتان؛ إحداهما عن الآخرة... فالعرض هنا يسير بنا شوطاً

بالأشخاص في حياتهم المألوفة؛ ـ حتى نعرفهم في ماضيهم وحاضرهم، ونكاد نلمس بعض طباعهم وأخلاقهم، وإذا العقدة ـ على مهل ـ تأخذ البريق؛ كالشرارة الصغيرة المتطايرة من احتكاك هذه الأخلاق والطبائع بعضها ببعض، إلى أن يحدث آخر الأمر الحريق!...

هنا قد نلاحظ أن طبيعة المسرحية هي التي تحدد طريقة بنائها؛ فإذا كانت العقدة تخرج من طبائع الأشخاص، كان من اللازم عرض هذه الطبائع عرضاً كافياً قبل الحادثة، وإذا كانت العقدة تخرج من حادثة من الحوادث الخارجية، اندمج العرض مع العقدة وظهرا معاً!...

هذه ملاحظة ولا أكثر من ملاحظة: ـ فمن الخطر في الفن أن نتعدى حدود الملاحظة إلى سن القوانين!... والفن نظام، ولكنه يكره القانون!... إنه حرية منظمة، حرية تنظم نفسها بنفسها، ولا تقبل أبداً أن يفرض عليها الآخرون نظاماً. فهناك من المسرحيات ما نرى فيها العقدة، تظهر من اصطدام الطبائع والأخلاق، ولا تعرض لنا هذه الطبائع والأخلاق، إلا وهي مضطربة في خيوط العقدة؛ كما أن هناك من المسرحيات ـ وخاصة ما وضع منها في العصور

الحديثة ـ ما لا عقدة فيها على الإطلاق، إنما هي عرض طويل للطبائع، أو الأفكار، أو الأخلاق!... ومنها ما يرمي إلى خلق جو خاص يغمر فيه القارئ، أو السامع، أو المشاهد غمراً، من دون أن يكون المقصود رسم شخصية من الشخصيات الرسم الكامل، أو إبراز طبع من الطباع الإبراز الشامل!...

على أن تعدد النزعات والاتجاهات، لا يمكن أن يمس دائماً كل هذه الأركان اللازمة لبناء المسرحية؛ فهو قد يضعف ركناً لدعم ركن، أو يقوى ركناً على حساب ركنين!... إن الفن دائم التجدد، وهو في تجدده لا ينسى ـ بالخبرة أو السليقة ـ أركانه اللازمة لارتكازه!...

تلك هي مرحلة العقدة في المسرحية، حادثة تتشعب، أو مشكلة تتشابك، ولكن هذا التشعب، أو هذا التشابك؛ لا بد أن يصل إلى طرف، أي إلى نهاية!...

هذا الانحدار إلى الطرف، أو إلى النهاية؛ ـ هو الحل الذي يؤدي بالمسرحية إلى ختامها!... وهو في المآسي: غالباً ما يكون الموت عقاباً للبطل الأثيم، وحدّاً لحياة البطل المجيد!... وفي المهازل: غالباً ما يكون الزواج هو الختام

البهيج. هذه المرحلة الأخيرة في المسرحية، تأتي نتيجة لما سبق من حياة، هي الجواب عن سؤال، هي الراحة بعد قلق معلق؛ لذلك يجعلها مؤلفو المآسي الراحة الأبدية "للأبطال"، ويجعلها مؤلفو المهازل الراحة الدنيوية للمحبين؛ لأنهم يعلمون أنهم بذلك يحدثون شعور الراحة في نفوس المشاهدين!...

على أن بعض المسرحيات في العصور الحديثة، قد نحت نحواً آخر، فلم تجعل من النهاية جواباً؛ ولم تحدث بها راحة، بل جعلت من النهاية سؤالاً كبيراً، يبقى بين جوانح القارئين أو المشاهدين، وليس له من مجيب، أو جعلت منها وقفة تشيع في النفس قلقاً؛ ولا تحدث شعورا براحة، ولا تمس العقدة التي تبقى دائماً بغير حل!... ربما كانت هذه النهاية ـ في بعض الأحيان ـ أفعل في النفس؛ وقد أدرك "شكسبير" ذلك في مسرحية "عطيل"، فترك الخائن "ياغو" حياً أمامنا بعد موت ضحاياه، وهو الذي كنا نتمنى أن تسدل الستار على جثته وهي مقطعة تقطيعاً!... لم يرد "شكسبير" أن يمنح نفوسنا هذه الراحة، حتى تظل نفوسنا القلقة تلعن "ياغو" طول الأجيال؛ فالمؤلف البارع ليس ذلك الذي يتولى بنفسه ـ في كل الأحيان ـ مصاير أشخاصه، بل هو ذلك الذي يجعل

الناس يتولون أمرهم من بعده!... هكذا نجح "شكسبير" في أن يترك "ياغو" المجرم قائماً، يتلقى صفقات الأحقاب، على حين أن ضحاياه في أجداثهم راقدون، تحت قباب العطف الخالد، والحب الدائم!... ذلك العطف والحب والتفجع، الذي تمثله تلك الصيحة، التي خرجت من قلب الشاعر الألماني" "هايني": "لا شيء في الدنيا يعزيني عن موت "ديدمونة"!...

أما وقد عرفنا شيئاً عن أركان المسرحية، فقد بقيت مسألة أخيرة ـ هذا الكيان المبني الذي يسمونه المسرحية: أهو ـ ككل بناء ـ يجب أن توضع خطته، وترسم خطوطه، بكل أجزائها، وأدق تفاصيلها قبل الشروع في التنفيذ؟... تلك فيما أعتقد مسألة شخصية، وقد يكون في تاريخ الأعلام، من المؤلفين، من كان يفعل ذلك، ومنهم من كان يفعل غير ذلك؛ فليس لأحد أن يملي على فنان طريقة عمله!... كل ما لنا من حق هو أن نبحث، ونلاحظ، ونستنتج، فإذا رأينا الفنان يخرج بعد ذلك على ما رتبناه من بحوث، ونتائج، وقواعد؛ ـ فليس على الفنان من حرج ما دام قد أخرج في نهاية الأمر أثراً بديعاً، مهما تكن الطريقة التي اتبعها...

على أني أرى بتجربتي الخاصة أن المسرحية ـ وإن كانت بناء ـ فهي ليست بالبناء الأصم!... إنها بناء حيٌّ؛ لأنها مكونة من شخصيات حية تتكلم، ومن كلامها قد تحدث مفاجآت فرعية، لا يمكن للمؤلف أن يحسب حسابها!... إن المؤلف يستطيع أن يحدد من قبل طبائع أشخاصه، وأخلاقهم، وخطى حياتهم، ومصايرهم؛ ـ ولكنه لا يستطيع أن يحدد تفصيلات أحاديثهم، ولا جزئيات تفكيرهم: إلا بعد أن يباشر التنفيذ، ويمضي في التأليف!...

إن البناء المسرحي لا يمكن أن يكون ـ بالضبط ـ كالبناء المعماري؛ فالمهندس إذا رسم مسماراً على الخريطة فلا شيء يغيره، أما المؤلف فإنه لا يضمن بقاء جزئية على حالها لو اندفعت شخصيته في اتجاه آخر، على أثر كلمة فجائية، لفظتها شخصية أخرى!... إن المسرحية عجينة، تتطور في يد مؤلفها... إنها شجرة تنمو تحت إشراف بستاني!... إن المؤلف بالنسبة إلى أشخاص المسرحية؛ كالقدر بالنسبة إلينا؛ فالقدر يعرف ما هو صانع بنا في نهاية الأمر، ولكنه يترك لنا حرية الكلام، والحركة التي تقتضيها دوافعنا الداخلية!...

الطبائع عند شكسبير

يخيل إليّ أن كل شخص يحمل قدره في طيات طبيعته؛ فليس في كل الأحوال تهبط الأقدار من السماء على رؤوس الناس؛ ـ ولكنها تصعد أحياناً من طبيعة نفوسهم ـ بل إن تصرفات الإنسان ـ أمامَ الأحداث ـ هي في الغالب صورة من طبعه ونفسه!...

ربما كان فهم الإنسان على هذا النحو، هو الذي جعلنا نرى في "شكسبير" عبقرية عالمة بطبائع البشر؛ فهو في مأساة "عطيل" صور لنا قائدا مغربياً، أسود اللون، حاد الطبع، قليل التأمل، بالغ الجرأة، ساذجاً إلى حد الحمق، طيب النفس إلى حد البساطة!... هذا الرجل قد أحب زوجته "ديدمونة" حباً مبرحاً، فلما سعى بينهما الدساس المخادع "ياجو" بالوقيعة، وأوهم الزوج الطيب أن زوجته تخونه؛ ـ

تحالفت كل عناصر تلك الطبيعة المركبة في "عطيل"، وتجمعت أجزاء شخصيته، من جنسه الحار، وطبعه الحاد، ورعونته وجرأته، إلى غباوته وسذاجته؛ فأدى كل ذلك إلى الكارثة، وكان ينبغي أن يؤدي إليها؛ فهو لم يحاسب نفسه طويلاً، ولم يتردد كثيراً، ولم يقلب الأمر على وجوهه، ولم يتأمل، ولم يتشكك؛ بل هجم على زوجته الرقيقة البريئة يقتلها، ويقتل نفسه، وقد علم ببراءتها بعد فوات الأوان!... وإن المشاهد يرى كل هذا يجري إلى هذا المصير، ويكاد يصيح به: "أيها الأحمق!... تمهل!... ابحث!... حقق!!". ولكنه لو سمع إلى هذا القول، وتأمل، وبحث؛ ـ لكان شخصاً آخر غير "عطيل"، بطبيعته التي عرف بها!... مأساة أخرى لـ"شكسبير"، تصور لنا شخصاً آخر هو "هملت"!... كل ما فيه يناقض شخصية "عطيل"؛ فهو من أبناء الشمال، بارد الطبع، أشقر الشعر، عميق الاطلاع، كثير التأمل، معقد النفس!... هذا الرجل قد علم أن عمه قتل أباه، وتزوج من أمه!... وعلم ذلك من شبح أبيه نفسه!... ظهر له ورآه بعينه، مع الرفاق والحراس، وسمع صوته وهو يهيب به أن ينتقم له من قاتله... ويستحلفه بقسم رهيب، ثلاث مرات، أن يثأر!...

ولكن "هملت" لا يقدم، بل يظل يقلب الأمر على وجوهه، ويتشكك فيما سمع بأذنه، وفيما رأى بعينه، ويمضي يتأمل، ويبحث، ويراقب، ويحقق!... والمشاهد يرى كل هذا التردد، ويكاد يصيح به: "فيم كل هذا التأمل والتفكير؟... أقدِمْ!... انتقم!..." ولكنه لو أصغى إلى هذا القول، وأقدم من الفور، دون تأمل أو بحث؛ - لكان شخصاً آخر غير "هملت" بطبعه الذي عرف به!...

***

لطالما خطر لي هذا السؤال: ترى ماذا كان يحدث لو أن "هملت" بطبعه هذا هو الذي كان زوجاً لديدمونة؟... وكان "عطيل" ــ بطبعه ذاك ــ هو الذي كان ابن الملك المقتول؟...

أغلب ظني أن "ديدمونة" ما كانت تقتل!... فإن زوجها، بطباع "هملت" وما فيها من مزاج هادئ، واطلاع عميق، وتأمل طويل؛ ــ كان يتناول إفك الدساس بشك وحذر، وكان يبحث كل كلمة من بهتانه، ويحقق ويدقق ويسأل الناس، ويتردد في اتخاذ القرار الفاجع؛ إلى أن تنكشف له

الحقيقـة في آخـر الأمـر!... وبانكشـافها تـبرأ "ديدمونـة"، وتبطل المأساة!...

كما أن "عطيل"، بطبعه الحاد، وخلقه الأرعن، وعقله البسيط، وشخصه المقدام؛ ـ ما يكاد يظهر له شبح أبيه، يدعوه إلى الانتقام، حتى يهرع لساعته والسيف في يده إلى عمـه، فيغمـد النصـل في صـدره، بـدون تـردد أو تأمـل أو تفكـير! وبـذلك تنتهـي الروايـة في الفصـل الأول، وتبطـل المأساة ـ مأساة النفس المعقدة ـ بما فيها من درس، وغوص، وتحليل!...

هـا هنـا إذن عبقريـة شكسـبير!... إنـه قبـل أن يخلـق المأساة أو الكارثة، خلق الشخصية التي تصنعها، وقبل أن يخلـق الشخصـية، خلـق الطبـاع الـتي لا بـد أن يصـدر عنهـا تصرف الشخصية!...

لقـد أدرك هـذا الفنـان الخالـد هـذه الحقيقـة البشـرية، وهـي:

"أن الأقدار والمصاير أجنة في بطون الطبائع!..."

من كل ذلك أرى، لزاماً على رجل المسرح، أن يدرس "شكسبير"، دراسة فحص وتمحيص!... فلقد كان هذا المسرحي العبقري محلّ درس في كل أدب من آداب العالم ـ حتى الأدب الروسي الحديث؛ فقد عنيَ به النقاد الروس عنايتهم "بموليير" و"تشيخوف". وألفوا فيه الكتب والبحوث؛ فلقد كتب الناقد "اسكندر سميرنوف" بحثاً مستفيضاً عام 1939 عن إنسانية شكسبير، كما كتب الناقد "اسكندر أنيكست" عام 1946 يقول: "إن شكسبير ـ ذلك الأستاذ العظيم ـ قد خدم بفنه أعظم المثل العليا الإنسانية، وأعطى الواقعية في الفن مثالاً لا يبارى..." !... وقد قال ـ مثل هذا القول من قبل ـ الناقد "قسطنطين درزهافين" في كتاب له عام 1936م، ذكر فيه قيمة الدرس الذي يتلقاه الفن الواقعي الاشتراكي من فن "شكسبير" وتعبيره القوي، وتحليله النفسي العميق، وقدرته الفائقة على وضع أعظم المعضلات الفلسفية، في صور حية، وأوضاع مسرحية؛ ـ ملخصاً رأيه بقوله: "نحن نحب "شكسبير" ؛ لذهنه الحاد، ومعرفته الحكيمة للحياة، وحبه للنوع البشري، وعبقريته الواقعية ـ المفعمة بالفكر العميق، والمشاعر الصادقة!...".

عوائق المسرحية عندنا

لـو ظهـر "شكسـبير" في "مصـر" اليـوم!... مـاذا كـان يصنع؟... هـل كـان ينتج آثاره الخالـدة نفسـها؟... والمقصـود بظهـوره في مصـر، أن يكـون مصـرياً، لغتـه العربيـة... وأن يكون تراثه الأدب العربي، بصورته المعروفة!...

ما من شك أنه سيقف حائراً، باحثاً عن نموذج يحتذيه، وهـو في مبـدأ الطريـق!... فمـا مـن عبقـري يظهـر فجـأة مـن العـدم!... لقـد احتـذى "ببتهـوفن" مثـال "مـوزارت"؛ فكانـت "سمفونيتـه" الأولى تحمـل أريـج هـذا الأخـير!... كـذلك فعـل "شكسـبير"، فهـو عنـدما بـدأ يكتـب للمسـرح الإنجليـزي، كانـت نماذجـه طائفـة مـن مشـاهير المـؤلفين في ذلـك لعهـد؛ مثـل: "مـارلو" و"جـرين" و"كيـد"!... قـال العلامـة "هاريسـون": "كان "شكسبير" - في أول أمره - يقلد الأسلوب الشائع عند

مؤلفي المسرح في عصره؛ تقليداً بلغ من التقيد حداً، جعل بعض النقاد - فيما بعد - يتساءلون: هل كان هو حقاً مؤلف التمثيليات الأولى المنسوبة إليه؟..".

فإذا فرضنا أن "شكسبير" المصري، قد وجد في الأدب العربي من النماذج، ما يسترشد به، ويسير على هداه؛ فإن مشكلة أخرى لا تلبث أن تقف في سبيله!... ذلك هو العصر الذي يعيش فيه!... فاهتمام الناس بالمسرح في عهد "إليزابث"، قد حل محله في مصر، اهتمام بالسباق، والسينما، والكباريهات!... والمسرح لا يمكن أن يزدهر إلا في مجتمع يحبه، ويقبل عليه، ويضعه في المكان الأول من العناية والتقدير!... وازدهار المسرح معناه أنه قد بلغ من القوة، والرواج، والثبات؛ - مبلغاً يتيح له أن يكفل للقائمين به أسباب الانقطاع له!... إن من عوامل إتقان "شكسبير" أنه انقطع للتمثيلية، لا يضع شيئاً غيرها... واستطاع أن ينقطع لها، لأنها استطاعت أن تطعمه!... كل فن لا يستطيع أن يطعم صاحبه يموت!.... لأن للفنان فماً ومعدة، قبل أن يكون له ذهن وقريحة!... وإذا أخذنا بما جاء في كتاب "سدني لي" رأينا "شكسبير" شديد الاهتمام بما تدرّ عليه مؤلفاته من

مال؛ ـ وقد ترك وصية، كما ثبت في السجلات القضائية، جديرة في نظر بعض الباحثين بمرابٍ لا بشاعر!...

فإذا سلمنا بأن "شكسبير" المصري، يستطيع أن يجد في مصر اليوم ذلك المسرح الذي يقول: "انقطع لي، واكتب لي وحدي، وأنا أكفل لك حياتك، ومعاشك..." فإن معضلة أخرى ـ من نوع آخر ـ تنهض أمام فكره، وهو يشرع القلم ليكتب: أيؤلف بالنظم أم بالنثر؟... فإذا اختار النظم فإنه لن يجد من المألوف في الأدب العربي، ذلك الشعر المرسل ـ بغير قافية ـ الذي كان مألوفاً عند شعراء المسرح الإنجليزي، وقت ميلاد "شكسبير"!.. والشعر المقفى على الطريقة العربية يصلح لنوع محدود من الروايات لا لكل الأنواع... فلا بد له إذن من أن يبتدع، وأن يغامر!... "وشكسبير" الإنجليزي لم يبتدع في ذلك الأسلوب، ولم يغامر!.. ولكنه ورث، وأخذ، ثم جوّد، وأتقن!...

فإذا آثر شكسبيرنا المصري أن يكتب بالنثر، فإن مسألة أخرى تعرض له: أبالنثر الفصيح يكتب أم بالنثر العامي؟... فإذا حل المسألة باختيار الفصحى في الروايات التاريخية والجدية؛ فإن الروايات العصرية، التي تصور

أشخاصاً شعبية، وبيئة محلية، ــ لا يمكن أن يعالجها بالفصحى إلا على حساب الدقة في التصوير، والصدق في التلوين!...

فإذا جازف، وغامر، واختار لنفسه اللغة التي يقضيها فنه، وقال: "أنا حر؛ لأن الفن حر!..." أو قال؛ كما قال "موليير": "إني آخذ ما ينفعني في فني؛ حيثما أجده!..."؛ ـ فإن مشكلة كبرى لم يعرفها "موليير"، ولا "شكسبير" تنهض له الآن صائحة: تلك هي مشكلة النظريات الاجتماعية، والمبادئ السياسية، التي تتصادم اليوم، وتتشاجر في عالمنا الحاضر، فإذا أراد أن يقيم مسرحه، في محيط الملوك والتاريخ والفكر؛ كما فعل "شكسبير" الإنجليزي، ـ فإن التقدميين يقولون له: "هذه رجعية!... أين الشعب؟... اكتب عن الفلاح، والعامل، والجوع والفقر، وتبسّط في لغتك، وتواضع في تفكيرك، ليفهمك الدهماء!... لأن الفن هو لهؤلاء!..." فإذا اتجه هذه الاتجاه، انبرى له آخرون من المثقفين يقولون: "هذا عمل لا وزن له في عالم الأدب والفكر، إنما هو إسفاف يراد به التقرب إلى العامة!... اكتب للخاصة!... فما الفن إلا لهؤلاء!...".

فـإذا كتـب لهـؤلاء ولهـؤلاء، وأحـاط بواسـع العلـوم، والفنـون، والمعـارف اللازمـة في عصـرنا الحاضـر؛ لإبـداع فـن الخاصـة، ثـم ألمّ بالبيئـات، والصـور، واللغـات، واللـهجات اللازمـة؛ لإبـداع فـن العامـة، وصـور النفسـيات، والعقليـات، والمبـادئ، والأفكـار، الـتي تصـطرع في بحـر هـذا العـالم الحديث المضطرب؛ ـ فإن ذلك كله يتطلب عبقرية أعجب من عبقرية "شكسبير" الأول!...

حقاً... لـو ظهـر "شكسبير" اليـوم لكـان فكـره تبلبـل، وعقله تحير!... ولكان عمله أعسر، وواجبه أكبر، وعقباته أضخم، ومجهوداته أضنى!... من حسن حظه إذن أنه ولد في "إنجلترا" في القرن السادس عشر!...

المسرح إتقان وتجويد

شـاهدت "مدرسـة النسـاء" لمـوليير، تعرضـها ــ في دار "الأوبرا" المصرية ـ فرقة "لـوي جوفيـه"... وكنت قد شاهدت هذه الرواية قبل اليوم بنحو ربع قرن في باريس، على مسرح "الكوميدي فرانسيز"، فرأيت كيف يوضع الأثر الفني الواحد، في ثوبين مختلفين من البراعة، والحذق، والذوق!...

ذلك أنهم هناك يعرفون ما هو الفن؟!... إنه عندهم ليس مجرد حكاية تروى، ثم تطرح؛ ـ إنما هو النظرة المتجددة للآثار الخالدة!... ما من واحد هناك يجهل مسرحيات "موليير"!... لقد شبت أجيال على مطالعتها في المدارس، ومشاهدتها في الملاعب؛ ـ ولكن كل جيل يجمع مواهبه، ويحشد تجاربه؛ ليصنع منها إطاره الخاص الذي يضع فيه الأثر القديم!...

لقد شاهدت جيلين في الفن، يجدان في إظهار "موليير"، لكل منهما ولا شك ـ خصائصه، ومقوماته، ولكنهما يجتمعان في مزية واحدة هي: الإخلاص، والتجويد، والإتقان!...

على أن الذي يحسن أن نوجه إليه النظر، هو موقفنا نحن من هذا الفن، فإن الفرق الأجنبية تفد على دار "الأوبرا"، ثم تمضي ـ وقد تكبدنا في سبيل استقدامها الأموال، وبذلنا الجهود ـ فلا نرى لوجودها أثراً يذكر، في تقدم الفن المسرحي في بلادنا!... ما هو السر؟... أليس من الحافز للأذهان، أن نبحث عن سر لذلك الأمر؟.. ربما كانت العلة كامنة في شيء واحد: فكرة خاطئة، مضمونها أنَّ على مسارحنا أن تُكثر من إخراج الروايات الجديدة، وأن تتجنب الآثار الخالدة القديمة، فلجأت إلى الساقط الغث، تدفع به إلى المخرجين، يهيئونه في عجلة ولهفة؛ لأنهم يعلمون سلفاً المصير، الذي ينتظر الرواية!... وهو أنها لن تعمر فوق المسرح أكثر من أسبوع!... وهذا لا يزعج الفرقة؛ لأنها تعتقد أن الجمهور يريد منها رواية جديدة، كل بضعة أيام!...

خطأ هذا الاعتقاد واضح للعيون ـ حتى لعيوننا هنا في "مصر"، فالجمهور ـ في كل مكان وزمان ـ لا يريد غير متعة الإجادة... إن الجمهور المصري ـ كغيره من الجماهير الذكية ـ أفطن من أن يذهب إلى المسرح، لمجرد رؤية حكاية تسرد، ـ إنما هو يذهب، ليستمتع بفن يعرض!...

هنا سر النجاح، وهذا هو الذي ثبت دعائم المسرح الأوروبي: الإعداد الطويل لعدد من الروايات قليل؛ حتى يصل الممثل إلى درجة من التجويد والإتقان، يقبض فيها على مفتاح الشخصية التي يدرسها!... لقد كان الممثل "دي فيرودي" يقوم طول حياته شخصية "البخيل"، لـ"موليير" على مسرح "الكوميدي فرانسيز" فلما بلغ السبعين، وهو لم يزل يمثل "الدور"، واضطر إلى الاعتزال، سمعه زملاؤه وتلاميذه يقول في حفلة الوداع، التي مثل فيها "البخيل" للمرة الأخيرة:

"اليوم فقط يا إخواني خيل إلي أني أمسكت به... أمسكت به!...".

لقد صدق!... إن بلوغ الإتقان أمر عسير، ولا تكفي فيه حياة بشرية؛ ـ إلا إذا صبت، بأكملها في عمل واحد!...

لهذا كان لكل مسرح من مسارح الأرض ـ منذ وجد التمثيل، وأشرق، وازدهر ــ ما يُسَمّونَهُ "الربرتوار"، أي التراث الباقي الذي يتجدد ولا يختفي، ويرتفع به الممثل إذا أتقن، ويبلغ المجد إذا سمت به الموهبة، وحمله الكد، ودفعه الجد!... لكل مسرح حقيقي تراثه الدائم؛ ذلك أن هنالك فرقاً جوهرياً بين المسرح الذي يعرض على خشبته ـ ممثلين أحياء، وبين السينما التي تعرض على شاشتها ــ صوراً صماء!... ممثل المسرح الحي يتطور، وينمو، ويتجّدد كلما مثّل دوره، وفي مقدور جمهوره أن يتابعه في هذا التطور والتجدد، فيجد المتعة في مجرد متابعة هذا النمو؛ وهذا الجهاد ــ في سبيل الإتقان، والتجويد؛ ــ في حين أن ممثل السينما، قد سجل دوره في "الفيلم"، وثبته، وجمده تجميداً؛ فمهما يكرر الجمهور مشاهدته في الدور عينه فلن يرى جديداً!.... من هنا جاز للجمهور أن يطالب بتغيير الرواية السينمائية كل أسبوع أو أسبوعين؛ فالسينما المتحركة قوامها: الرواية المتغيرة بموضوعها، ولكن المسرح الثابت قوامه: الممثل المتجدد بإتقانه!...

الإصلاح الخلقي والتمثيل

هل غاية فن التمثيل الإصلاح الخلقي[1]؟؟....

مسألة كانت موضوع بحث وجدل في عصور مختلفة!... بدأت في أيام "أرسطو"، وأتى فيها برأي دعمه بحجج، ثم تجددت في العصر الكلاسيكي "بفرنسا"، فنبش "راسين" على حجج "أرسطو"، فأخرجها، وشكلها بحسب مقتضيات عصره، وألحقها بمقدمة رواية "فيدر"!... تم بعث هذا المبحث ـ مرة أخرى ـ في القرن التاسع عشر!... بعثه "اسكندر دوماس" الصغير، فأثار بذلك جدلاً عنيفاً بينه وبين معاصريه؛ من كتاب ونقاد، وتجددت بذلك المناقشة القديمة في ذلك الموضوع!... رأي "دوماس": هو الاعتراف بتلك

---

(1) نشر هذا الفصل بنصه في مجلة "التمثيل"، التي كانت تصدر من نحو ثلاثين عاماً؛ بتوقيع حسين توفيق"!...

الغاية؛ ففن التمثيل في رأيه، يجب أن يكون مرماه الإصلاح الخلقي والأدبي!... بل ذهب في ذلك إلى مدى بعيد، فأوجب تدخل الفن التمثيلي في ميدان تلك النظريات الاجتماعية، والمسائل الجدلية المعقدة، التي هي من شأن رجال السياسية والتشريع، قائلاً: لم لا نناقش ـ نحن كتاب المسرح ـ مسألة اجتماعية هامة؛ كمركز المرأة الذي وضعها فيه القانون المدني الفرنسي؛ لندلي فيها بآرائنا؟... إن من واجب الكاتب المسرحي أن يضع تلك المسائل على المسرح، أمام الجمهور؛ عارضنا الدواء لما فيها من داء!...

إني لا أدهش "لدوماس" إذا بلغ هذا المدى، فهو ذو المبدأ القائل بأن المسرح: "يجب أن يكون مفيداً..."؛ لذا نرى فنه يرتكز دائماً على الأفكار الأدبية الاجتماعية؛ فلا يكاد يخلو عمل من أعمال فنه، من البحث في مسألة من هذه المسائل، وبالخصوص المتعلقة بالمرأة، وبالأخص مسألة الطلاق!...

على أن من المجازفة الذهاب وإياه إلى هذا المدى، وإلا اضطررنا إلى الخروج على قواعد الفن كما سيأتي ذكره!...

وقـد عــارض "دومـــاس"، في رأيــه، الناقــد المشــهور، "سـارسـي" معارضة شديدة؛ ـ بل لقد جاء علـى نقيضـه تمامـاً، إذ قـال: إن الفـن لا يرمـي إلى الإصـلاح الخلقـي، وإن الغايـة الأولى للفنـانين جميعهم، هـي إخـراج عمل فـني جميـل!.. أمـا الإصلاح الخلقي، فقد يكون غاية ثانوية، وهـذا مـا قـال بـه "أرسطو" وأخذ به "راسين"!...

ونحـن إذا فكرنـا قليلاً، فإننـا نجـد قـول "سـارسـي" لا يخلـو مـن الصـحـة!... فبـالله مَـنْ مِنَ الفنـانين يـودّ إخـراج عمـل مشوه معيب؛ ارتكاناً منه على غرض الإصلاح؟. لعمـري، إن كـان يقصـد الإصـلاح الخلقـي لذاتـه فعنـده الطـرق كـثيرة ـ إيـر طريـق الفـن، وبـلا حاجـة لتشـويه الفـن؛ ـ بـل إن في هـذا الطريـق القضـاء علـى فكـرة إصـلاحه؛ فـالجمهور سُيسـفِّهُ العمـل المعيـب كلّـه، غير نـاظر لفكـرة الإصـلاح فيـه!... إذن غاية الفنان الأولى هـي ـ كما يجب أن تكـون ـ إخـراج العمـل الجميل المتقن؛ فها هم أولاء كمـا ذكـر "سـارسـي" ـ عظمـاء كتـاب فرنسـا: "كـورني" "وراسـين"؛ و"مـولـيير"، وإن شـئت فعظمـاء كتـاب اليونـان؛ مثـل "سـوفوكل"، و"أرسـتوفان"!...

كلهم أخرج آيات في الفن!... والحق، لو دار بخلد أحدهم أن يجعل غايته الأولى الإصلاح الخلقي، لما جاؤوا لنا بفن ما، ولكانت أعمالهم لا تخرج عن كونها أبحاثاً فلسفية لا أعمالاً فنية!...

إن "دوماس"، بتطرفه، كاد ينسى أن التمثيل هو فن؛ فتجب مراعاة قواعده!... ما هو الفن؟... أليس هو تصوير الحياة الإنسانية؟... هل للفن بأنواعه المختلفة غاية غير تصوير الحياة الإنسانية؟... التمثيل، والتصوير، والنحت، والموسيقى والشعر؟؟... ألها غاية غير هذه؟... فالفن، إذن، هو تقليد ونقل وتصوير للحقيقة الكائنة، وكلما أحكم التقليد والنقل قرب الفن من الكمال، والعكس صحيح!... فلنضع أمامنا هذا التعريف، ولنواجه الآن رأي "دوماس"، لنرى إلى أي حد ينطبق عليه هذا التعريف!...

يقول: إن غاية التمثيل الإصلاح، وإن الكاتب إن هو إلا مصلح أخلاقي؛ فمن هو المصلح الخلقي؟... أليس هو ذلك الثائر على الأخلاق الموجودة أو بعضها، الهادم للنظم المتبعة، الناقم عليها، الخالق لمبادئ جديدة يحاول إحلالها محل القديمة؟؟. فالمصلح مخترع وخالق؛ لا ناقل، ولا مصور، ولا

مقلد! ... فالكاتب المسرحي - إن كان مصلحاً - فهو لا شك سيوجد قواعد جديدة، ولن يصور الحقائق الموجودة!.. فهل نستطيع وقتئذ أن نسمي عمله فناً؟... وظاهر أن تعريف الفن لا ينطبق على عمله؛ فهو بمقتضاه مخترع لا فنان!...

رأيُ "دوماس" لا يستقيم إذن مع قواعد الفن، إلا إذا اعتبرنا غرض التمثيل، وغايته ـ تحليل الأخلاق الموجودة، وأن الكاتب المسرحي هو كاتب أخلاقي، لا مصلح أخلاقيّ... بهذا الحل الوسيط، تتمشى مبادئ الفن، على أعمال من يقصدون معالجة المسائل الأخلاقية!. وعندئذ ـ وعندئذ فقط ـ نستطيع تفهم أعمال: "كورني"، و"راسين"، و"موليير"!... ويمكننا بسهولة أن ندرك قيمتها الفنية الكبرى!... فأولئك الكتاب العظام كانوا كتاباً أخلاقيين، لا مصلحين!... فمن "كورني" الذي صور لنا البطولة والفضيلة الإنسانية؛ بصورة المثل الأعلى ــ إلى "راسين"، الذي قلد الحقيقة، والطبعية؛ كما هي في الواقع ــ إلى "موليير"، الذي نقل أحوال الجماعات الممثلة، وأخلاقها؛ كما كانت في عصره!. كل هؤلاء خلقيون صوروا، ونقلوا، وقلدوا: وإن زاد التصوير، أو قل عن

الحقيقة؛ ـ ولكنهم لم يدخلوا غريباً على الحقائق والمبادئ السائرة، ولم يخترعوا؛ فهم فنانون، وإن أعمالهم ـ بما فيها من تحليل للأخلاق، ومن تصوير لما يجب أن تكون، و لما هو كائن؛ ــ كان لها الأثر العظيم في تطهير النفوس، والسمو بها إلى مستوى أعلى!...

فنظرية "دوماس" خطرة؛ من حيث أنها مذهبة لجمال الفن، هادمة لاستقلاله، وليس أدل على ذلك مما صار إليه فن "دوماس" نفسه؛ فمع أن أفكاره، ونظرياته الاجتماعية، والأخلاقية في حد ذاتها قيّمة، وصفاته الشخصية ــ ككاتب مسرحي ـ معترف بها؛ ـ فإن إغراقه في أبحاثه ونظرياته، جعلت فنه مصبوغاً بصبغةٍ صناعية واضحة؛ فظهر عليه التكلف!... وإن أسلوبه الكتابي، مع أنه حيّ مؤثر، فإنه يبدو أحياناً ضخماً أجوف، تغلب عليه طريقة الخطابة!...

وهكذا نرى تدخل الأفكار المبتدعة، المخالفة للحقائق في التمثيل، مفسدة له، مشوهة لبهائه، معرقلة لكماله!... وكما قال "سارسي"، في نقده "لدوماس": إنه يخشى أن يصير الفن أداةً لنشر الدعوة، فتذهب بذلك معالم

جماله؛ لأن نظرية "دوماس" تدعو بطبيعتها إلى تسيير العمل الفني، وتكييفه بحسب مقتضيات الفكرة الإصلاحية، لا بحسب الحقيقة والطبيعة. وبذلك يظهر العمل مشلول الحركة، لا حياة فيه!...

ويجب ألا نعتقد أن في إبعاد الفن عن ثورات الإصلاح تضييقاً في دائرته، أو تقليلاً من فائدته!... يكفي لفساد هذا الاعتقاد، أن نتصور ما يبلغ إليه الفن من فوضى، إذا ما تحول المسرح إلى ميدان للجدل، وأصبح من يشاهد التمثيل؛ كمن يشهد مجتمعاً علمياً؛ فتضيع علينا، تلك الفوائد، التي نجنيها من رؤية الحياة أمامنا؛ كما هي على المسرح!..

قال "دوماس": إنه سيناقش على المسرح، في رواية سيخرجها حديثاً، نظرية وجود الله، فقال معارضه "سارسي": كم كنت أسرُّ وكم كان الجمهور يستفيد، لو أن "دوماس" قال: سأصور على المسرح الماديين العصريين، وسترون أي صورة محكمة التقليد سأظهرها من الواضح أن فائدة الجمهور أتمّ، في معالجة مسألة من المسائل التي تخصّه، وتهمّه، ويتألم منها، أو يشكو!... هنا، المسرح إذا حلّل، وحلَّ تلك المسائل الموجودة بالفعل ـ كما قد أدى ما يجب عليه!..

ومع ذلك فكلما مرت الأيام يظهر "لدوماس" مناصر لرأيه؛ فها هو ذا اليوم "بريو"، يجنح جنوح "دوماس" أحياناً، وعندي أنه لا يمكن التنبؤ بمصير الفن؛ فربما تتحطم غداً تلك القيود التي نحافظ عليها الآن؛ كما حطم المذهب الرومانتيكي القيود الحديدية، التي حافظ عليها المذهب الكلاسيكي زمناً طويلاً!..

من صفات الكاتب المسرحي[1]

يعتقد الكثيرون أن فناً كالتصوير، يحتاج فيه إلى موهبة خاصة، أما فن التمثيل فلا يحتاج لمواهب، ويكفي القليل من الذكاء للقيام بأعماله!...

هذا الاعتقاد باطل!... ونقصر الكلام هنا على الكتابة المسرحية فنقول: إن الكاتب المسرحي شخص مستعد بطبيعته للمسرح، وإنما يتطلب منه ـ ليكون كاتباً مسرحياً ـ موهبة غريزية، مستقلة عن المواهب التي تنتج فناً آخر، ونوعاً آخر من أنواع الأدب!...

---

[1] نشر هذا الفصل في مجلة التمثيل، بعددها المؤرخ 29 مايو 1924م، بتوقيع "حسين توفيق"!...

ذكر "فكتوريان ساردو" في خطبة له في "الأكاديمي فرانسيز" صفة، قال إنها لازمة للمؤلف المسرحي، هي: أن تكون لمؤلف المسرح حاسة مسرحية؛ بمعنى أنه لا يدع أمراً، أو شيئاً يقع عليه نظره، أو تسمعه أذنه؛ إلا وتفرغه تلك الحاسة عنده في الشكل المسرحي!... وبعبارة أدق: ألاّ ينظر، ويسمع ما يدور حوله؛ بغير عينِ المسرح، وأذنه!... فإن رأى منظراً طبيعياً جميلاً، فلا يؤخذ بجماله من حيث الطبيعة ـ وإلا كان مصوراً ـ بل يعجب به بعين أخرى، ولغاية أخرى. فيقول: ما أجمله منظراً في رواية!... وإن أنصت إلى محادثة شائقة، أو محاورة طريفة، قدرها بأذنه المسرحية، فقال: ما أصلحه حواراً!... وإن رأى فتاة ذات ميزة خاصة كالسذاجة، أو المكر، قال أيضاً بعين المسرح: ما أحرى مثلها بدور كذا!... وهكذا في كل شيء... فإن قصصت عليه خبراً مثيراً؛ كجريمة أو مصيبة، سبق إلى ذهنه التصور المسرحي، وبرقت أساريره بالإعجاب، وإذا هو يحدث نفسه: "موقف بديع!... مأساة رائعة!..." هذه الموهبة الخاصة، والقدرة على تشكيل كل شيء بالقالب المسرحي، هو قوة المؤلف المسرحي!...

ليس هذا فقط؛ فكم من الحوادث يمر بنا، وتشترك في الشعور به حواسنا، ومن المواقف المسرحية ما نصادفه ونشاهده كل يوم، ومع ذلك لا نفطن إليه؛ لأنه من الحياة العادية!... ولكن قد ترى هذه الحوادث والمواقف عين أخرى، تفطن لموضع الجمال منها، فتستخرج منها ذلك العمل الفني الذي نصفق له، وعجب به!...

ثم ألا يعرض لنا ــ في الحياة مراراً ــ أن يكتب لنا الطبيب تذكرة بها الدواء، وجلبنا بلا شك تأمل التذكرة، وما كتب فيها بخط سريع لا يقرأ، وسأل نفسه كثيراً: "بالله كيف يستطيع الصيدلي المسكين قراءة هذه الطلاسم؟"... وقد يدور بخلده إمكان خطأ الصيدلي، واحتمال إرساله "مسهلاً" بدلاً من "مقو"!... ألا يحدث هذا موقفاً مسرحياً، من النوع الهزلي، ونحن لا نشعر؟... وقد ترى ذلك عين رجل المسرح، فلا تلبث أن تجد في رواية موقفاً كهذا! ... شخص في وليمة يتناول مسهلاً على اعتبار أنه مقو أشار به الطبيب، وإذا المسهل يفعل فعله، وإذا الشخص المدعو أو الداعي في الوليمة قد فطن للأمر، وإذا هو في مركز دقيق مضحك!... كل هذا ما تراه على المسرح،

فتـدهش، وتعجـب، وتقـول في نفسـك: "مـا أعجـب هـذا الموقف!... ولو بحثت قليلاً لعلمت أن المؤلف إنما نقل جزءاً من الحياة نقلاً، وأنها حواسه المسرحية هي التي نبهته إلى ما يجب نقله، أو محاكاته، أو تصويره!...

وإني لأرى الذهاب إلى أبعد من ذلك أحياناً؛ إذ لا أجد ضرراً في التطرف، فالكاتب كلما قويت فيه تلك الحواس المسرحية كان كاتباً بالطبع، لا صانعاً، ولا مرتزقاً، وكان مثله مثل الشاعر بالفطرة!... والكاتب الذي من هذا النوع ـ وهو عندي المثل الأعلى للكاتب المسرحي ـ تمتزج حواسه المسرحية بحواسه الجثمانية، امتزاجاً لا يستطيع معه استعمال أحدها منفصلة عن الأخرى ـ فهو في معاشرته لأهله، وأصدقائه، وفي جلوسه إلى خلانه وعارفيه، وفي مصادقته لمن لا يعرفه؛ ـ إنما يستخدم حواسه لفنه أيضاً، فينظر إلى هؤلاء جميعاً بنظرة نافذة، مستشفاً بها مستغلق أمرهم، وحقيقة أخلاقهم، ونوع مزاجهم، ولون ميولهم؛ ـ قاصداً بذلك تَفّهم الناس ـ من حيث هم ممثلون ـ في ملاعب غير محدودة متخذاً من حواسه هذه وملاحظاته، الأداة الكاشفة التي يعثر بها على أشخاص رواياته!...

الباب الثامن

الأدب والصحافة

يقول الصحفي:

إني أكتب؛ ليقرأني أهل زماني!...

فيقول الأديب: وأنا أكتب؛ لتعاد قراءتي في كل زمان!...

غذاء الشعب العقلي

قال "بول فاليري"، في حديث له حول القراءة والكتب: إن الإنسانية في جملتها لا تقرأ اليوم شيئاً غير الصحف!... ثم انتهى إلى هذا القول المستغرب صدوره منه؛ "يجب تعليم تلاميذ المدارس أن يطالعوا الصحف!... ولست أمزح؛ ذلك أن الشعب - إذا كان هو الحاكم - فإن للحاكم أن يتسلم في كل صباح تقريراً عن حالة ملكه وحالة العالم!... هذا التقرير موجود في الصحف!... على أنه ينبغي تعلّم كيف يستخرج ذلك منها. إن تحليل صحيفة من الصحف، وغربلتها؛ هما رياضة على أكبر جانب من الفائدة وربما على أعظم جانب من القيمة أيضاً!... إن الغذاء العقلي للجنس البشري، إنما يُعَدُّ الآن إعداداً في مطابخ الصحف؛ لأن الأغلبية الساحقة - ممن يعرفون القراءة - لا يملكون من الوقت لهذه القراءة أكثر من ساعة في اليوم!... وهذه الساعة

ـ التي تختلس اختلاساً في أثناء ركوب "المترو"، أو القطار، أو الأكل في مطعم ـ لا يمكن أن يشغلها غير الصحف!..

هذه حقيقة لا يمكن أن تنكر ـ وهي حقيقة مخيفة، يدهشني كيف أن مفكراً، من طراز "فاليري"، يبسطها بهذا الهدوء!... حقاً، لقد انتقلت مهمة تثقيف الشعوب ـ من أيدي الفلاسفة، والكتاب، والشعراء، والخطباء ـ إلى أيدي الصحفيين!... قديماً كان الناس في البدو والحضر يتناولون أيضاً غذاءهم العقلي في كل حين؛ لأن البشرية لم تنقطع يوماً ما عن طلب الطعام الذهني، إلى جانب الطعام المادي!... ولكنها لم تكن تعرف صحافة يومية، ولا أسبوعية!... كانت تعرف شعراء الحي، وخباء الهياكل، وفلاسفة الأسواق!... وكان أولئك في جملتهم قوماً ممتازين: أنبتتهم العبقرية، وأرضعتهم النبوغ... كان الغذاء العقلي، من يد هؤلاء، بديعاً في أغلب الأحيان مصفى، بعيداً عن السخف والإسفاف؛ لأن الموهوبين لا يسفّون وإن أرادوا!... هكذا كان المطبخ العقلي في الماضي، فهل لنا أن نتفاءل بالمطبخ الحديث؟...

***

في رأيي ـ قبل التفاؤل أو التشاؤم ـ أن نتساءل أولاً: هل نوع الثقافة يتغير بتغير المجتمع؟... لا شك بأن هنالك شيئاً يتغير، وأن هنالك شيئاً ثابتاً لا يتغير!... إن ألوان الطعام المادي قد تغيرت، وتنوعت، وتعقدت على مرّ الأحقاب والأزمان؛ فاختفى العصيد والثريد، وظهر في المأكولات من مالح، وحلو، ومرطبات، ومثلجات؛ ـ كل تنويع وتجديد!... ولكن الفاكهة بقيت هي الفاكهة في كل وقت ومكان، كذلك حياة المجتمع، تتجدد فيها المظاهر، وتتعقد المشكلات، ويظهر الراديو، والسينما، وأحدث النظريات السياسية، والاقتصادية، ولكن شيئاً فيها يبقى بلا تغيير، هو الإحساس بالجمال الفكري والفني؛ فإن بيتاً من الشعر ـ هزّ بدوية في خيمتها منذ ألف عام ـ قد يهز حسناء اليوم في خدرها طرباً!... وأسطورة خيالية ـ شغف بها الأقدمون في مصر، أو الهند، أو اليونان ـ قد تثير أوربا الحديثة عجباً!... فاكهة الذهن والقلب تبقى دائماً نضرة!... ما دامت شجرة الحياة الإنسانية باقية باسقة!...

***

إذا تذكرنا ذلك، جاز لنا أن ننتظر من صحافة اليوم القيام بمهمة التثقيف العام، لو راعت هذه الاعتبارات، عند إعداد الغذاء العقلي للشعب.

***

الصحيفة المثالية، في نظري، مائدة يجب أن تكون حافلة بكل أنواع "الفيتامينات"، يتناول القارئ منها ما يزجي فراغه، وينمي اطلاعه، ويقوي عضلاته المفكرة!... أما من تقصر في واحدة من هؤلاء، فهي كالطعام الرديء، يعطيك شيئاً ويمنع عنك أشياء!...

الأدب خادم للجماعة حافظ للقيم

عندما زار "مصر" الأديب الفرنسي "أندريه جيد"، ـ وهو الذي منح جائزة "نوبل" للأدب ـ سألتني صحيفة فرنسية أن أوجه إليه رسالة، فكتبت أقول:

"نحن نرحب بأندريه جيد، لا لأنه فقد أحد بلغاء المعبرين عن الضمير الإنساني في هذا الزمان، ولا لأنه فقط رسول الثقافة الفرنسية التي نعرف لها قدرها؛ ـ بل لأنه، بعد ذلك، يذكرنا "بالدور" الخطير، الذي ينتظره العالم اليوم من رجال الفكر!... إن العالم اليوم ليضطرب في لجّةِ أفكار جديدة، تماثل تلك الأفكار، لتي انبثقت مع الثورة الفرنسية! ... إن مبادئ "حقوق الإنسان" تقابلها اليوم، مبادئ "حقوق الجماعة"!... التعريف الحقيقي لعصرنا الحاضر هو: أنه عصر "الذرة" التي ظهرت قوتها، وعصر "الكتل الآدمية"

التي عرفت سلطانها!... إن "الجماعات" لا تسمح الآن لمفكر بأن يتجاهلها، أو يقف على بعد منها!... إن أمواجها الهادرة الزاخرة تعلو إليه، وتختطفه، وترغمه على أن يعيش معها، أو يغرق في تيارها!...

لقد أصبح "للعدد" شخصية ذاتية، وإرادة خاصة، وحقوق مفروزة، تريد أن تثبت وجودها إلى جانب حقوق الفرد، وشخصيته، وإرادته!...

"فالعدد" وقد أحس وجوده يصيح في "الفرد": أنت لي، فكر لي أنا، ومتعني، وسلّني، وكن في خدمتي!... فإذا انعزلت، وانتحيت، وفكرت لنفسك، ولأقلية من الخاصة؛ ـ فحكمنا عندنا حكم تلك الأرستقراطية المحاصرة في هوجاء الثورة الفرنسية!...

أهو مبدأ الحرب بين "حقوق الإنسان"، و"حقوق الجماعة"؟... أهو مبدأ الحرب بين "تفكير الفرد" و"تفكير العدد"؟...

وهل يؤدي ذلك إلى حرب بين روح "الكيف" وروح "الكم"، لم يسبق لعنفها مثيل من قبل في تاريخ البشر؟...

ما موقف رجل الفكر المجرد من هذه المشكلة؟...

على أنني أخشى أن تكون هذه المسألة أعسر من أن يحلها فرد، أو جماعة!... وقد يكون مفتاحها في يد الحياة نفسها، أو القدر... فنحن في مبدأ الحرب أو في صميمها بين قوتين... ولم تنته هذه الحرب بعد، لنعرف: من المنتصر؟...

ولكن ذلك لا يمنعنا من التنبؤ والافتراض!...

لنا على كل حال أن نتساءل: لماذا نتصور الحرب؟... وإذا كانت هنالك حرب حقاً، فلماذا لا يقوم صلح بين الطرفين؟... لماذا لا نشبّهُ "المفكر الفرد" بصخرة في رأسها منارة، قائمة في وسط البحر - بحر العدد والجماعات!... إنه ليس بمنأى عن ذلك البحر.! وليس هو أيضاً بالغارق في لجته، ولكنه مقيم في أحضانه، تحيط به أمواجه؛... تضغط على صخرته، دون أن تصل إلى رأسه، أن تعبث بمصباحه!...

على هذا النحو تظل العلاقة موصولة بينه وبين الأمواج؛ فهي تهدأ وتثور، ولكنها تبقى راضية مطمئنة: ترى أشعة المنارة منعكسة على صفحاتها، منتشرة على صدرها... فتتقبل النور بنشوة من الزهو؛ فهذه المنارة العالية لا نضيء

إلا لها، ولا تنهض شامخة إلا بين يديها، ولا ترسل هذا الوهج إلا إليها!...

ولكن الويل إذا علمت الأمواج أن هذا النور مرسل، فوق ذلك، إلى غاية أخرى وهدف أبعد... وأنه يقصد، فيما يرمي إليه، أن يضيء أيضاً طريق تلك السفن التي تسعى في المكان والزمان: حاملة خلاصة الكنوز العليا في حضارة الإنسان!... هنا قد يغضب البحر، وتثور الأمواج. بدافع من الكبرياء؛ فهي في "أنانيتها" لا ترى هدفاً غيرها؛ ـ بل هي ـ في مستواها وسوادها ـ لا تبصر سفناً ولا أفقاً!...إنما ترى ذاتها وحدها، ولا تبصر، ولا تعرف غير ذراتها، ورغوتها، وزبدها!... ويحملها هواء الغرور على الهياج، فتهب هادرة مزمجرة تعصف بالصخر، وتتطاول إلى القمة. محاولة أن تضرب برذاذها المصباح!... وقد تعنف زوبعتها وتشتد فتطيح بالمنارة من فوق الصخرة، وعندئذ تغمرها وتغرقها في جوفها منتصرة... وقد تصمد المنارة راسخة فوق صخرتها، تتلقى لطمات الموج، وتمسح عن زجاج مصباحها الرذاذ، وتمضي في رسالتها صابرة مؤمنة، ترسل نورها إلى صدر الأمواج، وإلى الأفق البعيد!...

تلك صورة صغيرة للموقف، لا أرى في مقدورها أن تحل المشكل، أو أن تجيب عن السؤال، ولكنها فرض من تلك الفروض التي توضع موضع النظر!..

أما الحل الحقيقي فلا مناص من أن نطلبه في أحداث العالم التي قد يتمخض عنها الغد... فنحن مقبلون غداً على ثورات في الشعوب، وانقلابات في المبادئ، وتطورات في الأفكار؛ ـ ليس من السهل التكهن بعواقبها، ولا الاجتهاد في استنباط نتائجها!...

فلتفعل الأحداث فعلها، ولتتغير الأشياء وتتبدل طبقاً لناموس الوجود، ولنخض غمار الحروب... ولنتغير مع الأشياء ونتطور؛ ـ فما نحن إلا بعض هذه الأشياء!...

كل ما نرجو ونأمل هو ألا يغرق "الفكر" يوماً في ثورة الأمواج، فيختفي من الوجود، ويذهب نفعه للناس... يجب أن يبقى "الفكر" دائماً، وأن يكون خادماً للجماعات في حاضرها، حافظاً للقيم العليا اللازمة لتطورها، الراعية لمستقبلها!...

الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي

إن مهمة الكاتب ليست في مجرد إقناع القارئ بل في التفكير معه!... ما أرخص الأدب لو أنه كان وسيلة للهو!.... لا ، إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي. لا أريد من الكتاب أن يريح قارئه ويلهيه ، إنما أريد أن يطوي القارئ الكتاب فتبدأ متاعبه!...

أريد من القارئ أن يكون مكملاً للكاتب، ينهض ليبحث معه ، ولا يكتفي بأن يتلقى، ثم يتثاءب فكره وينام!... إن مهمة الكاتب ليست في تخوير النفوس، بل في تحريك الرؤوس!... الكاتب مفتاح للذهن، يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم!...

إن مهمة الكاتب في نظري: هي تربية الرأي، وكل كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى يدفعهم إلى

التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة، ولا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص، ولا يوحي إليهم إلا بالإحساس المبتذل، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة، ولا يغمرهم إلا في التسلية والملذات السخيفة، التي لا تكون فيهم شخصية، ولا تثقف فيهم ذهناً، ولا تربي فيهم رأياً؛ ـ لهو كاتب يقضي على نمو الشعب، وتطور المجتمع!...

إن واجب الكاتب يحتم عليه أن يحدث أثراً سامي الهدف في الناس، وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل في الناس، وهو أن يجعلهم يفكرون تفكيراً حراً، أن يدفعهم إلى تكوين رأي مستقل، وحكم ذاتي!...

الفن إذن أداة من أدوات خلق الذاتية!...

وهو لا يستطيع أن يؤدي هذه الرسالة إلا في مجتمع حر!...

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالوا: "الفن هو الحرية"!...

والحرية هنا هي الذاتية...

يجب ألا يقوم في المجتمع حائل، يحول دون تحقيق هذه الذاتية الواعية!... وما دام عمل الفنان لا يقتصر على امتناع

الحس، وراحة الخاطر، وتخدير الشعور؛ بل يرمي إلى إيقاظ التفكير، وتأكيد الذاتية، وتدعيم الشخصية؛ ـ فإننا لذلك نرى الفن لا يزدهر عادة إلا في مجتمع، بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأي، ونرى الفن لا يموت عادة إلا في مجتمع، خنقت فيه حرية التعبير عن الرأي؛ لأن الفنان يجد عمله معطلاً عندئذ من ناحيتين: من ناحيته ـ هو الذي لا يستطيع أن ينشئ فناً يوحي بتفكير حر، ومن ناحية الناس ـ الذين وقفت عقولهم في هذا الجو الخانق عن النمو!...

فالجو الخانق إذن يصيب بالعطب والعطل، في الوقت عينه، أداة الإرسال، وأداة التلقي!...

وبهذا يتم الشلل الفكري في الأمة، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج، وتظل ـ بلا حراك ـ في طور بدائي من الرقي البشري!...

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو في سبيل المحافظة على أداة الفكر والرأي؛ لأن هذه الأداة هي في الكيان المعنوي بمثابة القلب: مضخة يجب أن تعمل حرة على الدوام؛ لتكفل النمو والنضج والرقي للنوع الإنساني!...

تربية الرأي العام

من نتائج الحضارة الحديثة، وآثار التعليم الشامل الموحد، ظهور ما يسمونه "الرأي العام"... أي شعور الجماعة نحو موقف من المواقف، وقرارها إزاء مسألة من المسائل... وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفي الوقت عينه؛ كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد... لكأن هذا الرأي العام إذن كائن مستقل؛ يخلق، ويحبو، وينمو ـ إلى أن يصبح قوة ناضجة، محركة، موجهة، تؤثر في الدولة والمجتمع، ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب!...

كيف يوجد هذا الرأي العام؟...

إنه يوجد كلما وجدت التربة الصالحة لظهوره، وهذه التربة الصالحة هي الأمة الموحدة في جنسها، وعقائدها، وتقاليدها، وآمالها، وأهدافها!...

وكيف يربى هذا الرأي العام؟...

إنـه يربـى، كمـا يربـى كـل صـغير، بـالتعليم الشـامل الواحد، الـذي يكـون العقليـة الواحـدة الشـاملة... بهذا النـوع من التعليم يشـب "الـرأي العـام" علـى تفكـير واحـد، يمكنـه من أن يبت في مسائله برأي واحد سريع قاطع!...

لقد كثر التساؤل عن "الرأي العام" في بلادنـا... وهـل لـه وجـود حقيقـي؟... في رأيـي أن بلادنـا مـن أصـلح الـبلاد تربـة؛ لوجود رأي عام ناضج قوي، ولكن الذي يعوزنا هو الاهتمـام بتربيـة هـذا المولـود... التربيـة الـتي تؤهلـه لأن يصـبح كائنـاً مسـتقلاً، واقفـاً علـى قدميـه، يفكـر بعقـل واحـد، ويـؤثر في الدولة والمجتمع تأثيراً ظاهراً فعالاً...

التربة صالحة، ولكن التربية مهملة!...

فكـل شـيء في مصـر، يجعـل مـن هـذا المولـود مخلوقـاً مشوهاً، مضطرباً، مبلبل الفكـر، مشـتت الـرأي؛ لأن كـل شيء في بلادنا له نسخ متعددة، وأثواب مختلفة!... لدينا تعليم أجـــنبي، وحكـــومي، وأزهـــري، ودرعمـــي، وجـــامعي، وخـارجي... إلخ!... ولـدينا قضـاء شـرعي، ووطـني!... ولـدينا أحيـاء أوربيـة، وأحيـاء وطنيـة، وأحيـاء مختلطـة!... ولـدينا مطربشـون، ومعممـون، و"مقبعـون"، و"ملبـدون"، وحفـاة،

ومحتـذون، و"مقبقبـون" ولابسـو الـزي الإفرنجـي، والـزي البلدي، والـزي المختلط... أي طربوش ومعطف وجلباب... أو "طاقية" و"بيجامة" و"قبقاب"!... إلخ...

كل هذا الخلط في الأوضاع والتعليم والتربية والإطار الذي يعيش داخله الناس في بلادنا ـ جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة، كل عقلية تفكر تفكيراً خاصاً، وترى الدنيا من زاوية منفردة!... وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة، من وضعه الذي نشأ عليه!... يحسب الدنيا دنياه، ورأيه هو وحده الذي على حق، لا يفهم جاره، ولا يشعر بشعور مواطن آخر، وبتفكك عقلية الأمة الواحدة، أو عقلية الرأي العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة؛ ـ يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم!... وإذا تفككت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها!...

لذلك كان من ألزم الأمور لنا المبادرة إلى الاهتمام بتربية "الرأي العام"... تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى، وتوحيد محيطه ونظرته إلى الأشياء!...

إذا عنينا بهذه التربية الموحدة العناية الصادقة، ظفرنا بعد قليل بأمة قوية الشخصية، وبرأي عام موحد الثقافة، متحد في العقلية!...

الذوق العام

روت إحدى الفرنسيات البارزات: أنها قابلت يوماً أميراً من أمراء "أوربا"، فابتدرها يقول:

إني شديد الإعجاب "بفرنسا"!... حقاً لقد أنجبت عباقرة خالدين!...

واعتقدت السيدة أنه يعني أمثال "جان جاك روسو"، أو "فولتير"، أو حتى "إميل زولا"...! ولكن ذلك الأمير مضى قائلاً:

نعم!... نعم!... يكفي أن يكون فيها ذلك العبقري "جورج أوهنيه"!... فكادت السيدة المهذبة تصعق؛ ذلك أن "جورج أوهنيه" هذا، ليس أكثر من كاتب يسلي الجماهير، ولا يعلو كثيراً عن كتاب روايات الجيب، أو مؤلفي القصص الشعبية والبوليسية، ولا محل له في سجل الفكر العالي، ولا مكان له في صفحات الأدب الرفيع.

هذا مثل من أمثلة "الذوق العامي"!... لا يشترط فيه أن يكون لأمير أو حقير، ولا أن يوجد في أمة دون أمة؛ لأن مرجع "الذوق" إلى المدارك، والإدراك ينمو أو يتضاءل، ويسمو أو ينحط؛ ـ تبعاً لطبيعة الشخص، وطريقة تهذيبه، ومستوى تثقيفه!...

من اليسير أن نجد "الشعور العام" الموحد، ولكن من العسير أن نعثر على "الذوق العام" الموحد!...

... لأن الشعور العام يصدر عن الضمير، والضمير قلما يختلف بين إنسان وإنسان، أما الذوق فيصدر عن المدارك، وهي تختلف بين طبيعة وطبيعة، وبين ثقافة وثقافة!... خذ شريراً، وألق به في خضم "الشعور العام" فإنك لن تجد وجهاً يشذ فيهش له!... واعرض طيباً فلن تجد من يشيح عنه؛ لأن الخير والشر كالماء والنار، تميز بينهما كل فطرة، دون حاجة إلى معرفة أو مرانة!...

وخذ مفكراً، أو كاتباً، أو موسيقيا، أو مصوراً، أو حتى سياسياً واقذف به في بحر الجماهير والجموع، وانظر العجب الذي يكون!... هنا تختلف القيم، وتضطرب المقاييس، ويبلع البحر الكنوز، وتلمع فوق سطحه

الفقاقيع، وتختفي اللآلئ في صدره وتغوص، ويبرق على شاطئه فارغ الأصداف؛ لأن التمييز بين الجوهرة والزبد، والتفريق بين الصدفة واللؤلؤة؛ ـ أمر لا يستطيعه في كل الأحيان الضمير الطيب، أو الفطرة السليمة؛ لأن الزيف لا يظهر في الناس صائحاً: "أنا زيف!..."؛ ـ بل إنه يظهر قائلاً: "أنا الصدق، وغيري الكذب"!...

ما من دجال في الفكر، أو الفن، أو العلم، أو السياسة؛ ـ إلا برز للناس في ثياب لامعة، براقة، رائعة جليلة!... وهو يملأ شدقيه بكلام خلاب، يوحي إلى الجمهور الساذج أنه هو الذي يقدم إليه أروع ثمرات العقل والقلب، وأجلّ نتائج الجهد والجهاد!...

كيف يستطيع الجمهور المسكين؛ بإدراكه القليل، ووسائله المحدودة، وتثقيفه الضئيل؛ ـ أن يمد يده إلى الأثواب، وينتزع القشر المطلي على اللباب، ويضع إصبعه على الحقيقة العارية المختفية من الخجل، أو الغيظ، أو الحياء؟...

كم من الخبرة والقدرة يحتاج الإنسان؛ ليفرق بين حقيقة فنان وفنان، وعالم وعالم، وكاتب وكاتب، وسياسي وسياسي؟!...

تلك مهمة لا تتسنى لغير جمهور من الخاصة، أهلته طبيعته وعدته، ومكنته هبته وثقافته؛ ـ ليتولى هذا الفرز والتمييز والحكم، ويكون في يده هو زمام الذوق الصحيح، ويناط به هو المحافظة على القيم الحقيقية والمقاييس الباقية!...

ما دام الأمر كذلك فلن يكون هناك "ذوق عام"... كما اعتدنا أن يكون في المجتمع "رأي عام"!...

وكل ما يمكن أن يوجد في هذا المجال هو "ذوق عامي"!... لا يفرز ولا يميز بل يأخذ الأشياء بدون تمحيص، واضعاً الزجاج في مستوى الماس، والنفيس إلى جانب الرخيص.

الباب التاسع

الأدب والسينما والإذاعة

السينمائي الحق هو ذلك الذي يجعلك تدرك أعمق ما يمكن اللمحة التي تخطف بصرك فوق "الشاشة"!....

والإذاعي الحق هو ذلك الذي يجعلك تعي أعمق ما يمكن من الأصوات التي تسمعها من خلال "الميكروفون"!...

والأديب الحق هو الذي يجعلك تدرك عمقاً جديداً، كلما أعدت قراءة "الكتاب"!...

الأدب والسينما

إذا ذكر "الأدب" تبادر إلى الذهن "الكتاب"... والحق أن الكتاب هو في أغلب الأحيان الوعاء الطبيعي، الذي يحفظ فيه الأدب!... وإن كان العكس غير صحيح، فليس كل ما يوضع في كتاب، يمكن أن يعتبر أدباً!... ولما كان الكتاب أداة هينة بسيطة متينة، تستطيع أن تلازم الإنسان في كل زمان ومكان، ـ فقد أتاح للأدب الذي يحويه أن يتخذ ما يحلو له من دقيق المعاني، وبعيد المرامي، ورفيع التعبير، وعملية التفكير؛ ـ اعتماداً منه على أن القارئ في مقدوره دائماً أن يتمهل، ويتأمل، ويطالع ما بين السطور، ويعيد القراءة، ويعاود التفهم والبحث كلما شاء!... طبيعة الكتابة الثابتة، يسرت إذن للأدب، إثبات ما في أغوار النفس والذهن، وإيصاله في أي وقت إلى القارئ مباشرة عن

طريق ملكاته العاقلة!... لو أردنا أن نضع الأدب في إناء آخر، ذي طبيعة متحركة، فماذا يحدث؟... أول إناء متحرك وضع فيه الأدب من قديم هو: الفم، فنتج ذلك النوع الذي نسميه "الخطابة"؛ ــ أدب في وعاء متحرك!... أدب يلفظه الفم، فتتلقاه الأذن، وهذا الفم يتدفق تدفقاً، دون أن يقف، أو يعيد ما لفظ؛ تبعاً لمشيئة سامع!.. فما لم تتلقفه الأذن، ويفهمه الذهن، فقد ضاع على سامعه هباء!... لذلك كان على الخطابة أن تتجنب في كلامها ــ كل ما يحتاج إلى وقت في التفكير، أو جهد في الاستيعاب!... هذا التجنب للفكر، والتأمل، والجهد، والبحث؛ ــ يحتم عليها الانصراف عن مخاطبة الرأس، والاندفاع إلى مخاطبة الشعور!... فالخطيب الجيد يجب أن يتخير نوع الكلام الذي يشعر أنه يؤثر في عاطفة سامعه!... والخطيب الجيد قد يكون كاتباً رديئاً!... كما أن الكاتب الجيد قد يكون خطيباً رديئاً؛ فكلام الخطيب المفوه يسرك إذا سمعته، ولكنك ــ إذا قرأته متأملاً ــ فقد تجده سطحياً أجوف؛ كصوت الطب الفخم الفارغ!... ذكر لي المرحوم "خليل مطران" حادثة في هذا الصدد، قال: "كنت مدعواً لإلقاء

قصيدة في حفل بأحد مسارح "القاهرة"، وكان معي "حافظ إبراهيم" وقد أعد هو الآخر قصيدة لتلقى؛ كما دفع "شوقي" بقصيدة له هو أيضاً لتلقي في الحفل، فألقيت قصيدة "شوقي" على الجمهور المحتشد في المسرح، فقوبلت بالاستحسان المصطنع!... ثم نهض "حافظ" وألقى قصيدته، فصفق له الناس مجاملين!... ثم نهضت، وألقيت قصيدتي، فصفق لي الناس فاترين!... وإذا شاب ينهض ملقياً قصيدة، ذات عبارات حماسية، وجمل طنانة؛ بصوت مجلجل، ونبرات مؤثرة، وإذا المسرح يهتز اهتزازاً بتصفيق الناس، والهتاف يتصاعد كالرعد من الحناجر!... فمال "حافظ إبراهيم" على أذني؛ يبثني امتعاضه وسخطه، فهمست له قائلاً: انتظر إلى الغد حين تنشر القصائد في الصحف!... وكان!... ونشرت في الغد القصائد!... وقرأ الناس على مهل تلك المعاني الرائعة، والصور البارعة، والأفكار العالية، والبلاغة السامية في شعر "شوقي" و"حافظ"!...

هذا ما رواه "خليل مطران"!... وهناك قول ـ مثل هذا ـ رواه الناقد المسرحي "سارسي"؛ فقد كان يردد دائماً قوله: "إن الشعر الجيد يقتل أحياناً الرواية المسرحية"!... فالشعر

الجيد يقتضي عمقاً وثراء في الفكرة والصورة والصياغة... وكل هذا يفلت إفلاتاً من أذن السامع... أو يلقى برداً وفتوراً على حركة الحوادث المسرحية!... والعكس أحياناً صحيح؛ فالشعر الرديء قد يخدم الرواية المسرحية!.. فالشعر الرديء، هو ذلك الكلام المنتفخ بالأقوال المأثورة، التي يعرفها الجمهور سلفاً، فتمس ذاكرته، وتهيج أشجانه، فتنطلق أكفه بالتصفيق؛ دون أن يعي، أو يفكر...

من هذا يتضح أن الوعاء المتحرك، لا بد له من مادية سريعة الاستيعاب!.. وإذا كانت خطب الخطباء يمكن أن تحفظ ـ بعدئذ في الوعاء الثابت ـ بوضعها في كتاب، وكذلك المسرحيات، يمكن أن تحسب في الأدب الثابت بوضعها في كتاب!. فمن ألوان الفن، ما لا يمكن أن يقدم إلى الناس إلا في وعاء واحد؛ ـ هو الوعاء المتحرك، من ذلك فن الصور المتحركة: "السينما!... فهي فن السرعة التي تخطف البصر... وهي من أجل ذلك يجب أن تتجرد من كل ما يدعو إلى التمهل!... فأنت في "السينما" لا تستطيع أن تتمهل؛ لتفهم أو لتتذوق أو لتعجب، أو حتى لتصفق؛ ـ دون أن تفوتك عجلات الشريط، التي تدور بسرعة البرق!... ولا

تستطيع انتظار من يريد أن يأمل، أو يتفكر!... هذا الفن السريع يقوم على لغة أخرى، غير لغة الأدب المكتوب!... قال لي مخرج أجنبي ذات يوم: "إذا أردت أن تعبر عن معنى من المعاني؛ فإنه تكفيك عبارة لغوية قوامها الكلمات!.. أما أنا فأحتاج إلى "عبارة سينمائية، قوامها المرئيات!.." والحق أن فنان "السينما" عليه - قبل كل شيء - أن يترجم كل فكرة إلى حركة منظورة!... في حين أن الأديب يترجم الحركة المنظورة إلى فكرة!... فوقائع الحياة، وأحداث المجتمع، وحوادث الأفراد؛ ـ تمر أمام الأديب، فيلاحظ دقائقها، ويحاول تصويرها ونقلها إلى الورق!... وهي ذاتها تمر أمام رجل "السينما" فيلاحظها هو الآخر في دقائقها، ويحاول تصويرها، ونقلها إلى "الشاشة"؛ غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين عمل الرجلين: فالسينمائي ينقل أمام مُشاهدِه صورة بالفعل... ولكن الأديب لا ينقل إلى قارئه صورة، بل ينقل معنى!... هذا المعنى هو الذي يثير في رأس القارئ صورة!... فالأديب إذن لا يستطيع أن ينقل الصور إلا عن طريق المعاني على حين أن السينمائي يستطيع أن ينقل الصور، صوراً عن طريق مباشر..." فالمعاني إذن أداة الأديب... كما أن الصور

المرئية هي أداة السينمائي... ولما كانت المعاني أوسع نطاقاً، وأعمق عالماً من الصور المرئية؛ لأنها تشمل ما يرى بالعين، وما لا يمكن أن يرى؛ كما تشمل كل ما يمكن أن يقع في مرتفعات العقل المتأمل، وفي أغوار النفس المعقدة، وفي أبعاد الذاكرة المظلمة؛ ـ وكل ما يسبح في محيط الفلسفة، والتصوف، والتفكير، والتجرد!... فلذلك وقفت السينما أمام واجهة الأدب المنظورة البراقة، دون أن تجرؤ على ولوج بابه، والتوغل في دهاليزه وسراديبه!...

هذا ما يلاحظه دائماً أولئك الذين يقرؤون قصص الأدباء العظام في الكتب، ثم يشاهدونها بعد ذلك مصورة على "الشاشة" في السينما... ما أقسى النقد الذي وُجِّهَ إلى قصة "أنا كارنينا" لـ"تولستوي" في السينما!... وإلى قصة "إخوان كارامازوف" لـ"دستوفسكي"!... وإلى قصة "مدام بوفاري" لـ"فلوبير"... بل إلى قصة "ذهب مع الريح" أيضاً، على فرط ما بذل في إخراجها من جهد، وعلى قلة ما فيها من معان أدبية عميقة!... أكثر من قرأ هذه القصص في الكتب، خرج بعد مشاهدتها في السينما، يوازن بين الأثر الذي أحدثه الكتاب في نفسه، والأثر الذي أحدثته

"الشاشة"؛ ـ فيرجح أثر الكتاب، موقناً أن شيئاً ما قد أفلت من قبضة السينما!.. هذا الشيء الذي أفلت هو الجانب غير المنظور، الذي يستطيع القلم أن ينقل معانيه إلى روح القارئ، ولا تستطيع "الكاميرا" أن تبرزه في صورة تتحرك أمام نظر المشاهد!.. وليس هذا عيباً للسينما. إنما تلك طبيعتها، وتلك حدود قدرتها بالنسبة إلى الأدب؛ فعالم الكتاب أضخم، وأعمق، وأغنى من عالم "الشاشة: ـ لأن القلم يصل إلى أبعاد في الفكر والنفس، لا تصل إليها "الكاميرا"!...

كثير من الأدباء لا يريد أن يفهم ذلك، عندما ينقل أثراً من آثاره إلى السينما؛ فهو يتطلب من السينما التعبير الكامل عن تفكيره وأسلوبه!.. إني لم أزل أذكر تلك القضية التي رفعها الكاتب المسرحي "هنري برنستين"، ضد إحدى الشركات السينمائية؛ لأنها رأت ـ وهي تنقل إحدى تمثيلياته إلى "الشاشة" ـ أن تنبذ حواره المسرحي الرائع الذي اشتهر به، وأن تلجأ إلى أحد صنّاع الحوار السينمائي ليقوم بالمهمة؛ ـ فأداها بالطبع على نحو سخر منه الكاتب المشهور وثار له، ولكن الشركة قالت: إن روعة الحوار الأدبي لن يتذوقها جمهور السينما الكبير، ولن تكون إلا عقبة في سبيل تتبعه لحوادث الشريط!...

وجمهور السينما ـ الواسع المنتشر في أسواقها الكثيرة في أنحاء العالم ـ عقلية واحدة، على اختلاف أجناسه!... هذه العقلية يدرسها رجال السينما أدق دراسة، وهم يبنون مشروعاتهم الفنية على أساس هذه العقلية؛ فهم ينتجون قصصهم السينمائية استناداً إلى مستوى معين من الإدراك العام، يوقنون أنه في مقدور مختلف الجماهير في مختلف البلدان!... ذلك أن السينما ليست حتى الآن مجرد فن؛ ـ بل هي إلى جانب ذلك صناعة!... والفرق بين الصناعة والفن: أن الفن في جوهره تعبير حرٌّ عما في نفس الفنان، دون نظر إلى أي اعتبار ـ في حين أن الصناعة هي تعبير عن حاجة السوق وحالة المستهلك!... وهذا ما جعلني أوجس منها خيفة، وأتردد في الاقتراب منها كثيراً!... ولقد أصغيت أخيراً إلى أحد المخرجين، وتركته يعرض عليّ ـ سراً فيما بيننا ـ مشروعه لقصة أراد أن ينقلها عن كتاب لي، فهالني أنه أخذ المظهر والحوادث، وترك اللب، فما ناقشته في ذلك قال: الجمهور في السينما لن يفهم غير هذا الجانب الظاهر الواضح!... والمهم لدينا هو أن نجعل الجمهور يفهم ما يعرض!...

مـن الحـق أن نـذكـر لـبعض المخـرجين محـاولات أملـها المقاصد الفنية الرفيعة، تناولوا فيها بعض آثار "شكسبير"، وأظهروها على "الشاشة"؛ متوخين المحافظة بقدر المستطاع على روح الشاعر، وتفكيره، وأسلوبه!... من ذلك قصة "حلم ليلة صيف" التي أخرجها للسينما "ماكس رانيهارت" الألماني في "هوليوود"، قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات!... ومن ذلك أيضاً "هملت" التي أخرجها أخيراً في إنجلترا الممثل الإنجليزي "لورنس أوليفيه"!... على أن هذا الحرص الشديد من هذين المخرجين على أسلوب الشاعر وفكره أرغمهما ـ عن وعي أو غير وعي ـ على الابتعاد عن طبيعة السينما، والانزلاق إلى طريقة المسرح، فجاء عملهما أقرب إلى التصوير الفوتوغرافي للمسرحيتين، منه إلى الوضع السينمائي بمعناه الحقيقي!... فمخرج "هملت" مثلاً ـ لفرط إعجابه بشعر "شكسبير" ـ تركه كما كان في المسرحية، يؤدي مهمة المعبر الأول عن كل مراميها، واكتفى بتصوير الممثلين وهم يلقونه إلقاء... في حين أن طبيعة السينما كانت تقضي بتحويل هذا التعبير الكلامي، إلى تعبير بالحوادث المرئية، وأن ينقل "الكاميرا" في الزمان، والمكان،

والماضي، والحاضر؛ ـ لا أن يثبتها داخل قلعة "إلسينور" طول الشريط، كما كان الحال في المسرحية!... للسينما أسلوبها الخاص؛ كما أن للمسرح أسلوبه الخاص... ومن الإنصاف أن أقول: إن في مقدور السينما أحياناً ــ عندما تعثر على السينمائي الفنان الحقيقي ــ أن تصل إلى الشعر بوسائلها الخاصة؛ فمن أساطير "والت ديزني" الطويلة ما يكاد يكون من الشعر، ثم من ذا الذي شاهد رواية"الساحر أوز" ولم يهتز لما توحيه من شعر؟!... شعر ساذج بسيط، يخرج من الصور والألوان، لا من المعاني والكلمات،ولكنه يملأ النفس براءة، وراحة، وصفاء!...

فالأدب ــ إذن بشعره ــ يستطيع أن يكون هو روح السينما، وأن ينجح بها وتسمو به، على شرط أن تحتفظ هي بطبيعة كيانها الخاطف المتحرك!... كذلك يستطيع الأدب، بفكره أحياناً، أن يحلَّ في رأس السينما؛ فيرتفع بمعناها ومرماها ــ على شرط أن تبسط ذلك الفكر، وتحلله إلى عناصر سهلة ميسرة، في أشعة بصرية سمعية، تسري في نفوس الناس، من دون أن تقف طويلاً بعقولهم، أو تستوجب جهداً في الالتفات، أو بحثاً عن التلقي!...

إن السـينمائي الموهـوب، هـو ذلـك الـذي يجعلـك تـدرك أعمـق مـا يمكـن مـن اللمحـة، الـتي تخطـف بصـرك فـوق "الشاشة" على حين أن الأديب الموهوب، هو ذلك الذي يجعلك تدرك عمقاً جديداً كلما أعدت قراءة الكتاب!...

الأدب والإذاعة

الإذاعة - هي الأخرى - كالسينما، وعاء متحرك للفن والأدب!... وإذا كانت العين هي عماد السينما، فالأذن هي عماد الإذاعة!... وهنا نقطة الاختلاف بينهما؛ فرجل السينما يتخذ من البصريات لغته التي يعبر بها عن مراميه، ويؤثر بها في مشاهديه، ولكن رجل الإذاعة يتخذ من الصوتيات لغته، التي يسيطر بها على سامعيه!...

هذا الاختلاف في الأسلوب لا يحول دون الاتفاق في الطبيعة؛ فكلاهما يدرك صفته المتحركة، وما تقتضيه من تبسيط، يغني العقل عن المراجعة!... فالإذاعة تدرك أنها صيحة عابرة، لا تقف حتى يسمعها من ذهل، أو يفهمها من جهل!... كما تدرك مع السينما جانب الصناعة فيها، وما تستوجبه من مراعاة المستوى الشائع لجمهور المستمعين!...

هذا الجانب الصناعي ـ في الإذاعة، والسينما، والصحافة ـ له أثره، واعتباره في نوع الإنتاج، وأهدافه!... فتلك أدوات لا تقوم إلا على نظام المؤسسات أي على نظام جماعي يعامل جماعات!... فهي كلها إذن لا تستطيع أن ترضي جماعة دون جماعة، أو توافق ذوقاً دون ذوق!... وهي دائماً تضع في حسابها حل هذه المشكلة: إرضاء ذوق الأغلبية الغالبة!...

نظام المؤسسة هذا لا نجده في أدب الكتاب، ولا في حساب الأديب... فالأديب الحق يضع تفكيره وأسلوبه في صدر كتابه، ويترك بعدئذ كتابه يمضي في الزمان والمكان؛ حاملاً الضوء لمن يريد هداية!... هدف الأديب تبليغ الناس رسالته، وهدف المؤسسات اجتذاب الجماهير، وهي لذلك قلما تفرض رأياً بعينه، أو تبلغ رسالته بعينها؛ ـ خشية ألا تعجب العدد الذي لا تعنيه تلك الرسالة، ولا يهمه ذلك الرأي!... ولكنها في بعض الأحيان ـ عندما يكون عليها واجب لخدمة العامة؛ كالإذاعة الرسمية في دولة من الدول ـ تحاول تخصيص قدر من برنامجها لأصحاب الثقافة الرفيعة من المستمعين، وهذا ما تسميه إذاعة ـ كالإذاعة البريطانية في "لندن" ـ بالبرنامج الثالث!... ولعل الإذاعة أقدر من

السينما على تبليغ رسالة الفن الرفيع بانتظام، على قدر ما تسمح لها به طبيعتها المتحركة!... ففي إمكانها تخصيص محطة أو برنامج لهذا الغرض، دون أن يؤثر ذلك في مجرى الإذاعة العامة للناس كافة!...

هنالك سؤال بعد ذلك يجب أن يطرح: هل الإذاعة فن؟.. هذا السؤال قد طرح بالنسبة إلى السينما، فكان الجواب في أغلب الأحيان بالإيجاب!... والأمر في السينما واضح؛ فالقصة السينمائية أثر له وحدته وطابعه، شأن القصة المسرحية ـ ولكن الإذاعة ببرنامجها اليومي "جراب" طويل، يحوي أشتاتاً مختلفة لا وحدة بينها ولا طابع: من أخبار، إلى أغان، إلى تمثيليات، إلى أحاديث؛ ــ إلى أركان للمرأة، والطفل، والزارع، والعامل، ... إلخ.

فالإذاعة ــ في حقيقة الأمر ــ ليست سوى صحافة مسموعة!... فهل الصحافة فن بالمعنى الذي يطلق على الفنون الجميلة المعروفة؟... إن الفن يقتضي وجود فنان ـ أي خالق لأثر فني!... فمن الفنان بهذا المعنى في الصحيفة السيارة؟... أهو رئيس التحرير؟... أم سكرتير التحرير؟... ما من شك في أن الصحافة فن يحتاج إلى استعداد وموهبة ودراية وتجربة!...

ولكنه فن مختلف، لا يجوز أن يدرج بين الفنون الجميلة المعروفة فالصحيفة كالمصنع... ولعل أقرب الأشياء في وصفها أنها: فن صناعي؛ فالشبه قريب بين مدير التحرير، ومدير المصنع!... وكلاهما يعمل، وبقربه ضجيج آلات!... الإذاعة أيضاً - هذه الصحافة المسموعة - لا ريب في أنها فن، ولكنه فن صناعي أيضاً، وهي الأخرى تعيش في جو الآلات!...

على أننا لو نظرنا إلى التفصيلات، وجدنا في الإذاعة ما يمكن أن يوصف بالفن، ومن يمكن أن يسمى بالفنان!... ذلك هو المخرج الإذاعي في البرنامج التمثيلي!... من ذا ينكر على هذا العمل صفة الوحدة والطابع؟!... إن من تمثيليات الإذاعة ما يكاد يصل: بأسلوب تقطيعه وانتقاله، ومؤثراته الصوتية، وأغانيه، وموسيقاه ونبراته التعبيرية؛ - إلى طاقة فنية تثير الإعجاب!...

هذا الفن الإذاعي يدخل كثير من عناصره وأسراره في نطاق السينما الناطقة، كما أن الكثير من عناصر فن السينما يقترن بالإذاعة في فن جديد هو "التلفزيون"... هذا الفن الثالث الذي يلخص ما عند الاثنين.. أتراه يقضي عليهما؟...

ما من أحد يدري!... أغلب ظني أنه سيؤكد وجودهما، ويمدّ في عمرهما؛ لأنه سيتخذ منهما مادته وغذاءه، فكما أن الإذاعة استمدت من المسرح غذاء لها، سيستمد "التلفزيون" من السينما والمسرح غذاء له!... وقد تموت الإذاعة بوضعها الحاضر، وتندمج في "التلفزيون" كما ماتت السينما الصامتة، واندمجت في السينما الناطقة؛ فلا يبقى على قيد الحياة أخيراً، غير الأنواع التي لا يكرر بعضها البعض!... وما من جدال في أن السينما لا تكرر المسرح؛ لذلك سيعيش المسرح!... لكن، ألا يكرر التلفزيون السينما؟... أتكون هنالك حاجة إلى السينما بعد شيوع التلفزيون؟... إذا أصبح التلفزيون صحافة مسموعة مرئية، فلا بد أن تبقى السينما مقصورة على الرواية الطويلة الفنية ـ دون الجريدة المصورة، والأخبار السينمائية!...

ومع ذلك؛ لماذا تموت السينما بوضعها الحالي؟... ألأن الناس سيقبعون في المنازل، يشاهدون، ويسمعون من خلال "التلفزيون" كل ما كانوا يذهبون من أجله إلى قاعات السينما؟!...

العكس هو المحتمل الحدوث!... لقد دلت التجربة على أن الناس يضيقون بمشاهدة الفنون محبوسين في حجرات البيوت، وأنه لا غنى لهم أبداً عن ارتياد المحافل العامة؛ ليرى بعضهم بعضاً، ولينعموا بالتمثيل، والغناء، والموسيقى في الجو الحار، المصطخب بروح الجماعة... هذا الروح القديم المتأصل في نفوس البشر، منذ كانوا يحضرون حفلات الدين، والفن جماعات!...

فالحفلات العامة ستبقى إذن دائماً؛ سواء في السينما، أو التمثيل، أو الغناء، أو الموسيقى، أو حتى المحاضرات، والمناظرات، وغيرها من أنواع الاجتماعات!... وستعيش أكثر قوة، وأشد تألقاً مما كانت؛ لأنها ستكون هي المادة الأساسية التي يستغلها، ويتغذى بها، ويعيش عليها "التلفزيون"!...

نجوم العين والأذن

من المسؤول عن الأثر الفني في وحدته، وأسلوبه، وطابعه؟... في الأدب المكتوب لا جدال في أن المسؤول عن شخصية العمل الأدبي، وطابعه هو الأديب، مؤلف الكتاب!... ولكن الأمر يحتاج إلى نظر في القصة السينمائية، أو التمثيلية الإذاعية!... فعلى الرغم من قوة الموضوع، وقدرة الممثل؛ ـ فإن من العسير أن نحكم بأن واحداً منهما بعينه هو المسؤول الأول عن الوحدة النهائية، والطابع الشامل للعمل كله... أرجح الرأي أن المسؤول الأول ـ عن ذلك في السينما، والإذاعة ـ هو المخرج...

كتبت ذات يوم أقول: إن الكاتب الحق لا يمكن أن يذله تأليف "سيناريو" للسينما؛ ذلك أن السينما تخضع كل شيء لإرادة المخرج؛ فمخرج السينما هو المنسق لكل شيء ـ

هـو الخـلاق الـذي يطبـع العمـل كلـه، بطابعـه، ... فمـا صـانع "السـيناريو"، ومـا واضـع الحـوار، ومـا مهنـدس المنـاظر والصـوت، ومـا المصـورون، والممثلـون إلخ؛ ـ سـوى عناصـر متفرقـة، وأجـزاء أشـتات ـ المخـرج جامعهـا، وموحـدها، وموجهها إلى حيث يصبها في القالب الذي يريد!... مثله مثل الكاتب الأديب في ميدانه؛ فالكاتب الحقيقي هو أيضاً ذلك الذي يخضع كل شيء لمشيئته ـ هو الذي يجمع الصور، والمشاهدات، والملاحظات، والتجارب الشخصية، وحوادث المجتمع، وأخبار التاريخ، وأساطير الأولين!... ويستخلص من هذا ـ كله أو بعضه ـ عناصر وأجزاء يؤلف من بينها عملاً فنياً موحداً قائماً بذاته!... فالكاتب الحقيقي هو ذلك الذي يخلق عالماً زاخراً بالأشخاص التي تحيا، وتسعى، وتشعر، وتفكر ـ دون أن يحتاج في إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده!... لهذا السبب يجب أن نفرق بين المسرحية، وبين "سيناريو" السينما، وتمثيلية الإذاعة!... فسيناريو السينما لا يمكن أن يقوم بذاته، ويقرأ منفصلاً؛ كقطعة من الأدب!... وكذلك الحال في تمثيلية الإذاعة؛ لأنهما مجرد عناصر في عمل أشمل!... ولا يملكان حياة

مستقلة خارج "الفيلم"، أو بعيداً عن "الميكروفون"!... وإذا أتيح لقارئ أن يطلع على الكراسة النهائية لسيناريو، معد للإخراج السينمائي، أو على كراسة تمثيلية، معدة للإخراج الإذاعي؛ ـ فإنه يجد شيئاً لا يصلح للقراءة!...

يجد الجانب القصصي فيهما مبتوراً، والتعبير الأدبي قاصراً والحوادث والأشخاص تروي، وتوصف، وتجدد معالمها بطرق أخرى غير طريقة التعبير الكتابي!... وبغير التسلسل المعهود، فيما يكتب لينشر ويقرأ!... كما يجد إلى جانب ذلك اصطلاحات فنية لحركة "الكاميرا" وخطوط سيرها، أو لحركة "الميكرفون" وقربه وبعده، وإشارات الموسيقى، وتضخيم، أو تصغير الصور والأصوات، وغير ذلك من وسائل التعبير السينمائي، والإذاعي التي تملأ الكراسة، وتعمل مجتمعة على تكوين وحدة العمل!...

فسيناريو السينما؛ كتمثيلية الإذاعة: كلاهما جزء من كل ـ جزء لا قيمة له بمفرده؛ لأنه بمفرده ليس له كيان أدبي فني، يمكن أن ينشر على حدة، ويكون له قوة التأثير، والتعبير الذاتية التي للأعمال الأدبية!... كاتب السيناريو إذن، وكذلك كاتب تمثيلية الإذاعة، لا يمكن

أن يعتبر من الكتاب بمعناهم المعروف في الأدب ـــ على عكس كاتب المسرحية، فهو يستطيع - إذا كان أديباً ـ أن يكون مقروءاً لذاته وبذاته؛ فـ"شكسبير"، و"موليير"، و"جوته"، كتاب حقيقيون: لأن قصصهم التمثيلية استطاعت أن تبرز للإنسانية عوالم هائلة رائعة، تقوم بنفسها بمجرد القراءة ـــ دون الالتجاء إلى مسرح وممثلين!... ولو كانت آياتهم، وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل؛ لتولد، وتوجد، وتقوم على أقدامها؛ ـ لما سميناهم كتاباً وأدباء!... فالكاتب الأديب هو دائماً كلٌّ لا جزء!... بل إن طبقات الكتاب تختلف أحياناً باختلاف قدرتهم على هذه الكلية وهذا التمام، فالكتاب العظام - في نظري - هم أولئك الذين منحتهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية!... فهم قديرون على الإبكاء، والإضحاك، والارتفاع بالمشاعر، والأفكار ـ إلى قمم الخيال والشعر، والتصوف، والهبوط بها إلى أرض الواقع، والطبيعة الدنيا!...

من أجل ذلك كان أيضاً هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم كتاباً عظاماً كاملين؛ فـ"شكسبير"، في كوميدياته، وفي مآسيه، وفي شعره؛ ـ قد طاف بكل ما عرف الإنسان من

مشاعر، وتألقت أعماله بكل أشعة الكون الفكري المعروف!... وكذلك "موليير" قد أثبت ـ في بعض قصصه ـ أنه قدير على الجد قدرته على الهزل!... أما "جوته" فهو العبقرية الجامعة الشاملة!... في حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية من نواحي الإحساس الإنساني؛ فجاءت عوالمهم التي خلقوها كواكب رائعة، باهرة، سابحة، هي الأخرى في الكون الفكري، ولكن أشعتها لا تحوي كل ما في قوس قزح هذا الكون من ألوان وأضواء!... إن الكاتب العظيم لاعب بارع بكل الأوتار!... وهو أحياناً ـ شأنه شأن المخرج السينمائي والإذاعي ـ يستطيع أن يضع طابعه على أعمال، أجزاؤها ليست من صنعه!... فـ"شكسبير" قد هبط على كثير من القصص الإيطالي، و"موليير" على كثير من القصص الأسباني، و"جوته" على كثير من أساطير القرون الوسطى!... الكاتب العظيم؛ كالفاتح العظيم يقع أحياناً على أرض ليست له فيخضعها لسلطانه، ويقرّ فيها نظمه وأحكامه، ويصبغها بلون تفكيره وحضارته، ثم يضع عليها راية عبقريته؛ ليعترف بها التاريخ!...

ولقد أثبتت السينما أن من بين مخرجيها من يستطيع أن يكون فناناً عظيماً، له طابع يتميز به، وأسلوب يؤثر عنه!... فهناك مثلاً "سيسيل دي ميل"؛ باتجاهه إلى موضوعات التاريخ، أو الأساطير - يبرزها في إطار ضخم فخم؛ كما فعل في شريطه الأخير "شمشون ودليلة"!... وهناك "أرنست لوبتش"؛ بميله إلى السخرية اللاذعة؛ كما يمثلها شريطه المسمى "نكون أو لا نكون"!... وهناك "هتشكوك"؛ بحبه لإظهار البراعة، واستخدام الإيحاء، وإشاعة جو السر والغموض؛ كما ظهر في شريطه "ربيكا"!... وهناك "هوايلر"؛ في عزوفه عن إظهار البراعة، وحبه لإخفاء حذقه تحت ستار البساطة؛ كما فعل في شريطه "أجمل أعوام حياتنا"!... وهناك "رنيه كلير"؛ بنزوعه إلى الفلسفة الساخرة؛ كما صنع في شريطه عن "فوست"... إلخ... إلخ.

كل واحد من هؤلاء يستخدم "الكاميرا"؛ استخدام الأديب للقلم، يعبر بها عن لون طبيعته، واستعداده، ونوع نبوغه المكتسب بالهبة، أو المكتنز بالخبرة!...

وما من شك في أن للإذاعة أيضاً مخرجيها الممتازين... وإن كان ذلك على نطاق أضيق، ومجال أصغر!... فالإخراج

الإذاعي ليس له حتى الآن الأهمية والمسؤولية التي للإخراج السينمائي؛ لأن تمثيلية الإذاعة ليست سوى فقرة واحدة، بين فقرات كثيرة، في سلسلة البرنامج الطويل!... وقد يكون لمحدث بارع، أو محاضر بارز، أو مغنية مشهورة من الاعتبار عند السامعين؛ ـ ما تتضاءل إلى جانبه بقية الفقرات!... وقد يكون لمخرج الإذاعة أهمية أكبر إذا تقدم "التلفزيون"!...

لكن، أترانا غالينا في أهمية المخرج بالنسبة إلى العمل السينمائي؟... هل معنى ذلك أن الممثل المشهور، والمغنية الممتازة، والمؤلف الكبير، والمصور القدير: ـ كل أولئك ليس لهم في نظر الجماهير وجود ولا تقدير؟!... ربما كان الواقع أحياناً هو العكس؛ فالجماهير قد تذهب أفواجاً إلى رواية سينمائية؛ لتشاهد ممثلة، أو لتسمع مغنية، أو لترى قصة مؤلف!... بل أكثر من ذلك: ربما كان الإخراج رديئاً، ولكن الرواية قد تنجح؛ بسبب مؤلف، أو ممثل، أو مغن!... بل ـ في أغلب الأحيان، وإلى عهد قريب ـ ما كان الجمهور يذهب قط إلى السينما من أجل مخرج!...

وما كان اسم المخرج ـ مهما يبلغ شأنه ـ هو الذي يجذب الناس، أو يدفعهم إلى الحضور!...

كل هذا صحيح، وملاحظ في كل يوم، ولكن ذلك لا يغير شيئاً في تلك الحقيقة الفنية: وهي أن المخرج هو المسؤول الأول عن وحدة العمل السينمائي وطابعه!... والمسؤولية الفنية شيء، وعامل النجاح شيء آخر!... فرواية "أنا كارينينا" لـ"تولستوي"؛ مثلاً قد يكون نجاحها في السينما راجعاً إلى قوة "تولستوي" وحده، وهذا معقول، ولكن ذلك لا ينفي طبيعة عمل المخرج، حتى إن كان هو المسيء للرواية، المقصر في إبراز معانيها، المضعف لقوة مراميها!...

فالمخرج - قد يكون وقد لا يكون - هو العامل الأول في نجاح الرواية السينمائية؛ - بل إن المخرج أحياناً يتلاشى أثره وطابعه، إذا كان ضعيفاً، وكان مؤلفه أو ممثله عظيماً... ولدينا الأمثلة: أين طابع المخرج في شريط "هملت" لـ"لورنس أوليفيه"؟... نحن لم نر غير طابع "شكسبير" وحده... وأين طابع المخرج في قصة "الملكة كريستيانا"؟... نحن لم نر غير طابع "جريتا جاربو" وحدها!...

إن من أهل التمثيل من يكون له شخصية، تطغى على كل شيء، وتبدو للمشاهد مالكة عليه كل حواسه،

محتلة كل ذاكرته، منذ اللحظة الأولى!... حدث لي ذلك مع ممثلين، لم أعرف عنهم شيئاً يوم شاهدتهم للمرة الأولى، واكتشفت مواهبهم، قبل أن تأخذ مكانها المرموق من سماء الشهرة الواسعة!... ومن حقي أن أقول: اكتشفت؛ فليست العبرة بالاكتشاف أن توجد ما كان معدوماً!... إن أمريكا كانت موجودة قبل "كولمبس"، والكواكب والنجوم كانت ملء السماء قبل المراصد وعلم الفلك. إنما العبرة أن تشعر بالقيم الفنية، تدخل مدار حياتك لأول مرة!...

على هذا النحو دخل مدار حياتي بعض نجوم السينما: من ذلك أني رأيت ممثلاً مجهولاً، في شريط إنجليزي صامت، لرواية "أوسكار وايلد": "مروحة الليدي وندرمير"، فحفظت اسمه من ذلك الحين، وجعلت أرقبه، وأتتبعه طول الأعوام حتى استوى في ذروة سمائه، ثم اعتزل العمل في السينما، وكاد يغور في ليل النسيان... ذلك هو "رونالد كولمان"!... ورأيت مثله في رواية صامتة لا أذكرها!... ولكني ـ منذ شاهدتها تمثل ـ أدركت أنها لا بد بالغة شاهق القمم!... كانت تلك الممثلة هي "نورماشيرر"...

على أن الاكتشاف الذي قد يدهش حقاً، هو اكتشافي لتلك الفتاة العجيبة، التي يحيط تمثيلها غموض!... كان ذلك في شريط صامت، في رواية غريبة الموضوع والإخراج، لم يجرؤ أحد على عرضها، في دار كبيرة شهيرة من دور "باريس"، فعرضت في دار متواضعة، يؤمها نفر خاص من النظارة المشغوفين بكل طريف غير مألوف!... كانت هذه الفتاة البارزة المظهر؛ ـ الرائعة الجوهر، ذات الوجه المقتصد في الانفعال، والنفس الزاخرة بالأسرار؛ ـ تجعلني أشعر بأن هذه الممثلة لن تختفي بانتهاء الرواية، ولا بانتهاء روايات مقبلة!... إنها شيء يجب أن يبقى ويعيش؛ لأن من رآها لا يمكن أن ينساها!... إنها حلم لا تكفيه الحياة في قصص، إنها حلم جيل وعصر!... كنت هذه الممثلة الصغيرة، يومئذ هي "جريتا جاربو"!...

ولكن اكتشافي الذي بقي لي وحدي، ولن يشاركني في الإعجاب به كثير من الناس؛ لأنهم قد لا يعلمون عنه شيئاً؛ ـ هو ذلك الممثل الذي كان يقوم بدور صغير إلى جانب الفتاة، "جريتا جاربو" في تلك الرواية الأولى القديمة!... كان يقوم بدور "جزار" في حي فقير!... منذ رأيته يومئذ، وأنا أخفّ لمشاهدته، في كل رواية يظهر فيها!... لقد رأيته من حسن

حظـي في روايـات سـينمائية، صـامتة بـالطبع، مـأخوذة عـن درامـات "إبسـن"، وشـهد الله كـم أبكـاني!... لا لأنـه كـان يريد أن يبكي مشاهديه ـ على النقيض؛ لقد كان يعيش في الشخصية التي يمثلها على نحو يثير كوامن النفس!... لقد كان هـذا الممثل يؤدي دوره، على صورة لا أظن لها شبيهاً حتى اليوم في نظري، ولن يستطيع قلمي أن يصف فن هـذا الرجل؛ فهذا فن ارتفع في ابتكاره، وحلق في غرابته إلى ذرى عجيبـة!... ولم يمـض هـذا الممثـل بالفعـل في طريـق الشـهرة العالميـة؛ فقـد انقطـع عـن "السـينما"، ولم يبـد لـه أثـر في الأشـرطة الناطقـة، ولم أتتبـع مصيره، ولا مـا انتهـى إليـه!... كل ما بلغني عنه أنه رفض الانغمار في عـالم السينما، وآثـر العمـل في مسـارح "ألمانيـا" موطنـه!... وقيـل لـي: إنـه مـن عمـد المسرح الألماني، غير أني لم أره إلا في تلك الروايات الصـامتة الغريبـة التـأليف والتمثيـل!... كـان هــذا الممثـل يـدعى "وارنركراوس"!... هذا ممثل لا يريد فنه أن يبرح ذاكرتي!... لقد أرسل في ذهني أشعة، وكشف لنفسـي عـن أكـوان، ثـم اختفى؛ كما يختفي كوكب قصـيّ، ويغيب في هـوة الفنـاء السرمدي، تاركاً ضوءه يلمع في سمائنا الأعوام!...

الباب العاشر
الأدب ومشكلاته

رسالة الأدب ـ كغيرها من الرسالات الكبرى، التي تبغي السمو بالبشرية ـ لا تبلغ الأسماع إلا بعد جهد وصراع

نهر الحياة الكبرى

من العلل الشائعة في بلادنا ضعف الإقبال على المطالعة الجيدة، ولقد سرى الداء في طائفة من شباب الجيل الجديد، أخذهم دوار العجلة، الذي ابتلى به هذا العصر، وأغراهم حب الوصول بغير مجهود، فوقع في وهمهم أن القراءة عبث، وأن بطون الكتب ليست إلا مقابر، وأن الذي يعنيهم الحياة؛ - ولا شيء غير الحياة!...

وإنه لمن المفرح والمضحك معاً أن نسمع شاباً يحدثنا عن "الحياة"، كما لو كان حقاً يعرفها؛ وكما لو كنا ـ نحن الذين تقدمناه في الزمن - قد ولدنا في كوكب المريخ، فلم نهبط الأرض، ولم نكدح في الحياة قبله، ولم نعشها ولم نرها!...

يحسن ـ قبل كل شيء ـ أن نبدد وهم هذا النفر الساذج من الشباب، فنقول له: إننا عشنا في أحداث حربين

عـالميتين، وعرفنـا مصـر وأوروبـا في أزمـتين وثـورتين، وإن كثيرين منا ـ ومنهم كاتب هـذه السـطور ـ لم يقض شبابه كله في مقاعد الدرس أو التدريس، ولم تكن حياته كلها غارقـة في النظريـات، أو في التحريـر، والتحـبير؛ ــ ولكنـه غـرق زمنـاً في الحيـاة مـن حيـث هـي حيـاة، بواقعها وحلوهـا ومرّهـا، وطيّبهـا وخبيثهـا؛ ومـن ذلـك يـوم كـان يعمـل في القضـاء، يجـوس خـلال الريف والمدن، ويتصـل بالحـاكمين والمحكومين، ويطّلـع على خبايا المجتمـع، وخفايـا الصـدور والأسـر والأكـواخ والقصـور، وأنـه عـرف حريـة الوحـدة، ومسؤولية الأسرة، ولحظة التأمل، وزحمة الإخفاق، ومشقة الكفـاح مـن أجـل العـيش ــ وتبعـات الـرأي الحـر في المسـائل السياسـية أو الاجتماعيـة. ولم يفقـد في أي وقـت اتصـاله بالبيئـات الـتي يـرى فيهـا ويعـرف مـا يجـري في البلـد، ومـا يحـركه، ويتحـرك فيه: من أشخاص ودوافع!...

... كمـا عرفنـا كلنـا ــ ولا شـك ــ تلـك الحيـاة الأخـرى الصغيرة، التي عرفها كل شاب؛ ـ ذلك أنك لـو حادثت شـاباً عما يعنيه بكلمة "الحياة"، لفهمت منـه أن الحيـاة عنـده هـي وجوده المحدود الـذي يعرفـه، وظروفـه الـتي تحيط بـه!... هـي

الرغبات التي يحلم بها، وينالها، أو لا ينالها!.... هي الفتاة التي يحبها، ويريد أن يجعل من حبه لها مشكلة المجتمع، أو معضلة الكون!... هي الحانات، أو الامتحانات، أو المرتبات، أو السهرات الحمراء، أو الليالي الظلماء، أو ما يقع تحت بصره؛ في الطريق العام، أو في الترام، أو في القهوة، أو في المكتب، أو في الحي!... أو ما يقرؤه سريعاً في صحيفة، أو مجلة، أو كتاب خفيف، أو ما يصل إلى علمه بالتواتر والإشاعة من أزمات العالم، ومشاغل العصر!... هذه هي كل الحياة التي يمكن أن يحيط بها شاب من شباب اليوم!...

ولكن الحياة شيء أعمق من ذلك، وأطول، وأرحب!... إنها مثل نهر لا نعرف منه المنبع، ولا المصب!... البعض يكتفي منه باللعب عند الشط، والبعض يسبح بالقرب من شط النهر، أو ينغمر فيه، والبعض يفعل كل ذلك، ولا يكفيه؛ - بل يحاول أن يصعد في منابعه، باحثاً مرتاداً!...

***

آثار الأقدمين الخالدة؛ من كتب، ومعارف، وفنون؛ هي القوارب، المراكب التي نصعد بها مستكشفين منقبين في منابع نهر الحياة الكبير!...

***

وهنا تبدو صعوبة: ليس كل الناس يستطيع أن يكون مرتاداً، ومستكشفاً!... فلا بد لمن أراد التنقيب في هذا النهر، ومعرفة خباياه، وفهم أسراره، من خبرة وتجربة!... فنحن لا ننتفع كثيراً بمطالعة الأقدمين، إلا إذا تسلحنا بتجارب السنين...

إن الخطأ الذي يقع فيه أكثر الناس، هو ظنهم أن القراءة أخذ صرف!... وأن القارئ ليس إلا جعبة، فارغة يملؤها الشيء المقروء!... وأن المؤلف مانح، والمطالع ممنوح، وأن الكتاب عائل، والقارئ عالة!...

***

والواقع ـ كما دلنا علم النفس الحديث ـ أننا لن نستطيع أن نصل إلى ما نجهل إلا عن طريق ما نعلم!... علمنا

السابق هو مفتاحنا لباب المجهول؛ فليس للألفاظ التي نقرؤها معنى ثابت محدد، ولكنها تتغير، ويضيق مدلولها، ويتسع؛ تبعاً لدرجة علمنا وخبرتنا!... فلفظ "الإسكندرية" مثلاً ــ عند من لم يرها ولم يعرفها ــ لا يدل على شيء كثير، ولكنه ـ عند من رآها وعاش فيها ـ يدل على صورة ومعان لا حصر لها ولا عد!... فنحن، في حقيقة الأمر، لا نطالع بأذهاننا وحدها، ولكننا نطالع بتجاربنا، وخبرتنا!...

وإن من الكتب ما يقلّ محصوله أو يكثر، ويجدب أو يخصب؛ ـ تبعاً للشخص الذي يقرأ هذه الكتب، أو الجيل الذي يطالعها!...

ومَنْ مِن الكهول والشيوخ لم يهز رأسه عجباً، وهو يعيد قراءة "كليلة ودمنة" أو "العقد الفريد" أو "الإلياذة" أو "هاملت"، ولم يقل في نفسه: كيف لم أفطن إلى هذه المعاني في شبابي"؟!...

وهل كان من الممكن أن يدرك الإنسان ـ في شبابه من معاني الحياة ـ أكثر مما تتيح له سنه من خبرة وتجربة؟!...

هنا سر عزوف أكثر الشباب عن الكتب القديمة النفيسة!... جهلهم بالحياة العميقة الرحبة، هو الذي يخيفهم

من تلك الكتب!... إنهم يضجرون منها سريعاً؛ ضجرهم من مصاحبة من هم أكبر منهم سناً!... وهم يكتفون بالكلام عن الحياة؛ ليوهموا أنفسهم أنهم قد عرفوها!...

هذه المشكلة، ليست إذن مشكلة الشباب في عصرنا وحده!... إنها مشكلة الشباب دائماً ـ في كل العصور ـ إلا أنها في العصور الخوالي، كانت أخف وطأة، وأقل خطراً؛ ذلك أن الشباب ما كان يقع في أيديهم غير قيم الكتب؛ فكانوا مضطرين اضطراراً إلى احترامها، والعكوف عليها، يسيغون منها ما يسيغون، ويتركون للأيام ما يتركون!... إلى أن تتقدم بهم السن، ويختزنوا من تجارب الحياة، ما يمكنهم من فهم ما تركوا، وما يؤهلهم لبعث ما ظنوه مدفوناً في بطون الكتب؛ من حياة ما ماتت، ولا يمكن أن تموت؛ لأنها قطعة من الحياة الكبرى، التي لا تفنى، وبضعة من أنفسنا التي لا تهرم!...

أما اليوم فإن وسائل اللهو قد تنوعت، وألوان القراءات الخفيفة السائغة قد تعددت، وكلها مما يناسب مزاج الشباب، ويطيب لسنه ويتفق مع محيطه؛ فما الذي يضطره إذن إلى بذل الجهد، وتجشم المشقة في اتخاذ القوارب

والمراكب، يصعد بها إلى "حياة" هـي بالنسبة إلى مداركه وتجاربه "مجاهل"، لا يمكن أن ينفذ إلى جوفها وهو في ربيع العمر!...

مع الشباب شيء من الحق، فما من أحد يحب لهم هذا الكفاح المؤلم على الدوام ـ وإن لِسنّهم عليهم حقاً ـ ولكن، إذا استطعنا أن نغريهم بعض الشيء بهذه المحاولة الشاقة، ونسألهم أن يمنحوا المطالعة المجهدة وقتاً يسيراً إلى جانب المطالعة المسلية؛ ـ فإنهم، ولا ريب، لن يندموا على هذا الوقت، في مستقبل الأيام... لأنهم سيجدون لذة في أن يقولوا هم أيضاً ـ وقد وخط رؤوسهم الشيب ـ مثل ما قال كل جيل سابق:

"كيف لم نفطن إلى هذه المعاني في شبابنا؟!...

وعندما تنبض الكتب القديمة بحياة جديدة، تحت نور تجاربهم، سوف يصيحون زهواً:

"نحن أيضاً لم نقنع بالشط، وارتدنا النهر الكبير... نهر الحياة الكبرى"!...

الشعر وأشعته

هل الشعر تصوير للحياة؟...

ما من ريب في أن للشعر صلة بالحياة؛ لأنه ينبع من كائن حي: هو الشاعر... غير أن الذي أرتاب فيه قليلاً، هو أن الشعر تصوير مباشر للحياة... فإن الحضارة تملك من الأدوات ما هو أدق في تصوير الحياة من الشعر؛ ففضلاً عن النثر المنوط به ـ دائماً من القدم ـ تصوير الحياة في جملتها، وتفصيلها، وجوهرها، وتفكيرها تصويراً حقيقياً واقعاً؛ ـ فإن لدينا اليوم أيضاً "السينما"... تستطيع أن تسجل في شريط كل تفصيلات الحياة، في بلد، وزمن، وطبقة، وبيئة؛ ـ بالألوان واللسان واللهجات!...

على صورة يعجز، عن وصفها للعين والأذن أي كاتب في أي لغة من اللغات!... ولدينا الصحافة الإخبارية، والتصويرية، والتحليلية، فيما يسمى

"الربورتاج"!... تستطيع أن تتغلغل في طبقات الحياة المختلفة؛ فتسجل الأحداث، والأخبار، وتصور "بالروتوغرافور"، وترسل محرريها: يختلطون ويندمجون، ويتحرون ويتقصون، ويرجعون إليها، بأدق المعلومات، والإحصاءات، والوصف، والسرد، عن حدث من أحداث المجتمع، أو حالة بيئة من بيئات الشعب!...

وإنه ليكفي - في الغد - أن يطلع الإنسان على مجموعة صحفية، لعام من الأعوام، في بلد من البلاد؛ ليخرج في الحال بصورة دقيقة، عن حياة ذلك البلد، في تلك الفترة من تاريخه!... ويكفي أن يشاهد شريطاً سينمائياً محفوظاً - سجل حياة مجتمع في زمن من الأزمان - ليرى تلك الحياة بذاتها، قد بعثت ماثلة للعيان!... فما مهمة الشعر إذن عندئذ، وقد ملكنا أدوات أخرى غيره، تمثل لنا الحياة خير تمثيل؟!.. لابد أن يكون للشعر مهمة أخرى، مجرد تصوير الحياة الجارية، وتمثيل الأمم والشعوب والأجيال - ذلك التمثيل الظاهري، المادي، المباشر!!...

***

ما هي هذه المهمة الأخرى للشعر؟... هذه المهمة التي يستطيع القيام بها وحده؛ دون غيره من تلك الأدوات ـ التي وجدت، والتي قد توجد ـ في مستقبل الأحقاب؟!... لا بد أن تكون تلك المهمة الخالدة شيئاً يتصل بالشاعر نفسه... بطبيعته هو، وبمزاجه، وبنظرته الخاصة إلى ما يحيط به من كائنات!...

على هذا النحو يجب تعريف الشعر، لا بأنه تصوير للحياة؛ بل بأنه انعكاس الحياة على نفس الشاعر!... فالشاعر؛ مثل القمر، لا يعطينا الحياة في أشعتها المحرقة، ووهجها الذي يعمي البصر، ولكنه يتلقى بعض أشعتها، ويصفيها من خلال نفسه، ويعرضها علينا بعد ذلك؛ ـ ضوءاً جميلاً منظماً مهذباً، ترتاح له العين، ويسبح فيه الذهن، ويأنس له القلب!...

من أجل ذلك كان الشعر غير دقيق؛ في تصوير الحياة لنا، كما أن القمر غير دقيق؛ في نقل أشعة الشمس إلينا!... كلاهما يعطينا شيئاً ممزوجاً بطبيعته، مخلوطاً بخصائصه!... وكلاهما أيضاً، فيما أرى؛ يرمي إلى الهدف عينه؛ فالسؤال الذي يلقى على الشعر هو السؤال عينه الذي

يطرح على القمر: ما الذي تقصد إليه من إعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل؟...

أما القمر فيجيب:

لست أقصد بهذا الضوء أن أريكم واقع الأشياء؛ فإنكم ترون هذا الواقع مثلاً واضحاً في وهج النهار، ولكني أريد أن أدثر لكم الأشياء في رداء جديد، من نور وظلال؛ لأوقظ فيكم روح الوجود، وجوهر الكائنات، وأثير في أذهانكم عوالم أخرى أجمل وأكمل من العالم الموجود، وأجعلكم ترون في ضوئي شيئاً آخر غير الذي ترون في ضوء الشمس، فتحيون بذلك حياتين، فيزداد وجودكم بذلك اتساعاً!...

ويجيب الشعر بمثل ذلك قائلاً:

أنا ـ أيضاً ـ لست أقصد أن أريكم واقع الأشياء، في حقيقتها المادية؛ فهذا من شأن العلم، وما يجري مجرى العلم من تاريخ، وبحوث، وتحقيق، وإحصاء، وتسجيل!... ولكني أريد، بضوئي، أن أطرق أبواب تفكيركم، ومشاعركم، وأنمي فيكم ملكة التخيل، والتأمل، وأجعلكم أنا أيضاً تحيون حياتين: حياة الواقع الأرضي، وحياة الفكر العِلْوي!...

ولكأن الشعر أدرك خطر السينما والصحافة، الذي يهدد في الغد، فأردف يقول: لا تنتظروا من عدستي أن تلتقط ظاهر الحياة؛ فإن "الكاميرا"، والمصور الصحفي سيكون لهما غداً في ذلك فن دقيق رائع، ولكن عدستي هي التي تلتقط وتسجل حياة القلب... وهي حياة لا تستطيع أن تصورها "الكاميرا"، ولن تستطيع!... وسيكون الشاعر الذي يمثل عصره، هو ذلك الذي يصور ـ لا مجرد الحياة العادية الجارية، ولا الأوضاع والأحداث المحلية؛ ـ بل هو ذلك الذي يمثل الحياة العادية الجارية، ولا الأوضاع والأحداث المحلية؛ ـ بل هو ذلك الذي يمثل حياة الفكر والروح في عصره!... هو "أبو العلاء"؛ بالنسبة إلى الدولة العباسية!... وهو "دانتي"؛ بالنسبة إلى القرون الوسطى!... و"طاغور"؛ بالنسبة إلى الهند اليوم!... و"فاليري"؛ بالنسبة إلى أوربا الحديثة... إلخ.... وأخيراً يجيب القمر قائلاً:

عدستي ـ أنا أيضاً ـ ليست مثل عدسة الشمس؛ فهي لا تلقي أشعة كاشفة. ولكن تلقي أشعة موحية!... أشعة الشمس تقول للناس: انظروا، وأبصروا!... وأشعتي تقول للناس: اشعروا، وفكروا.

مستقبل الشعر

هل دولة الشعر موشكة على الزوال؟.. هل قرض الشعر سينقرض في مستقبل غير بعيد؟...

ما من ريب في أن هنالك أخطاراً تهدد حياة الشعر، وهذه الأخطار ليست وليدة اليوم؛ فقد ظهرت كلما ظهر في الإنسانية حدث أو تحول؛ فالشاعر الذي كان يرفع القبيلة، ويخفض القبيلة، قد أحس الخطر على سلطانه، يوم تحولت القبيلة إلى دولة؛ فلم يعد الشاعر ـ عندئذ ـ يتكلم باسم جماعة، ولكنه يتكلم باسم فرد هو ملك أو عظيم، ثم تحولت الدولة من الأرستقراطية إلى الديموقراطية؛ فما عاد الشاعر يتكلم باسم ملك أو عظيم، ولكنه أصبح يتكلم باسمه هو؛ للتعبير عما في نفسه!... وإلى هنا لم يمس الخطر كيان الشعر في ذاته ـ وإن كان قد انتقص من سلطانه السياسي، وحدَّ من نفوذه العام!...

أما الخطر الذي توجس الشعراء خيفة منه على كيان الشعر، فهو ظهور "العلم" في القرن التاسع عشر، على نحو عاصفة بمصير البشرية، مغير لنظرتها إلى الأشياء!...

فقد رُوي أن الشاعر "كيتس" نهض ذات ليلة، في إحدى الولائم، رافعاً كأسه بهذا النخب الغريب: "اللعنة على ذكرى نيوتن!..." فلما سأله الحاضرون عما قصد قال: لأن نيوتن حطم نظرتنا الشعرية إلى قوس قزح، حين فسره لنا ذلك التفسير المادي!..." فشرب الحاضرون عندئذ ــ وكانوا من الشعراء ـ على "لعنة نيوتن!...".

على أن الأيام أثبتت لنا ـ بعدئذ ـ أن "العلم" لم يستطع هدم "الشعر"، كما أنه لم يستطع هدم "الدين"!... فالحقيقة الفنية، والحقيقة الدينية، تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية!...

فقوس قزح، يمكن أن يكون موضوعاً لقصيدة مبتكرة؛ اليوم، وفي الغد!... يتغنى فيه الشاعر بالجمال الذي يبعثه في النفس، في أوقات الصحو، أو في أوقات الغيم، من دون أن يحفل بتكوينه العلمي، أو بنظريات التحقيق الضوئي!...

والسيف، يمكن أن يظل رمزاً للقوة والحرب؛ يبرق نصله في أبيات الشعر، على مدى الدهور، دون أن تنال من جماله الشعري حقائق القنبلة الصاروخية والذرية!...

والقمر سيمضي ـ طول الليالي ـ يدثر الدنيا بغلالة أشعته الفضية، مهما يكن من أمر تبحرنا في حقائق الفلكية والجيولوجية!... ولن نستطيع أن نقول للهائمين بحسنه؛ من شعراء وعشاق: "أفيقوا!... إنكم تهيمون بحب جرم ميت؛ لا ماء فيه، مظلم مشوه بالبراكين المنطفئة!...".

إن علمنا بحقيقة القمر، لن يمنعنا من حب ضوئه الشاحب، ولن يمنعه من التأثير في نفوسنا الشاعرة!...

ما دامت هنالك نفس؛ مستقلة عن الرأس... فلا خوف على الشعر من العلم!...

***

لكن... على الرغم من كل ذلك، فإن الشعر، في عصرنا الحديث، آخذ في الضعف، سائر إلى الفناء، أو إلى ما يشبه الفناء!... إن كل شاعر يمضي، يترك مكانه فراغاً!... وكل ذواقة للشعر يذهب، لا يترك له خلفاً!... وكل رواية للشعر منقرض!... وكل ناشر لدواوينه مبتعد!...

نرى هذا اليوم في كل بلد؛ فإن دور النشر في أنحاء العالم لا تطبع ديوان الشعر إلا وهي مؤمنة بالخسارة، مدركة لفداحة التضحية!...

لماذا؟... هنا الخطر!... الخطر الحقيقي على الشعر!...

العلة ـ فيما أعتقد ـ هي ضعف الثقافة في الشعوب!... إن شعوب الأرض اليوم تتعلم ـ على نطاق واسع ـ تعليماً سطحياً!... إن تلك الطبقة الممتازة ـ من المتذوقين للفنون العليا ـ تكاد تغرق اليوم في محيط هذه الملايين، من أشباه المتعلمين!... هذا المحيط الطامي لم تنتشر فيه الثقافة، ولكن الذي انتشر فيه هو ضعف الثقافة!... وهذا المحيط الذي يمتد في كل بقاع الأرض ـ من المشارق للمغارب ـ هو الذي يفرض ذوقه على الإنتاج الذهني وعلى دور النشر!...

والشعر هو خلاصة الثقافة، وعصارة الذوق؛ فهو لذلك فن مركز، يضغط في أبياته القليلة، ما يوحي بالكثير إلى أصحاب الأفهام!...

إنه ليس كالنثر فن إسهاب وإيضاح، يفرغ في رؤوس الناس ما يريد من كلام، وثرثرة، ومعلومات ـ يزدردونها هينة لينة، بلا جهد ولا اجتهاد!...

إن الشعر فن إيجاز وإيحاء، يفترض في السامع قدراً من الثقافة، وحظاً من الذوق!... إنه لبس طعاماً، يقذف به في الفم، ولكنه مفتاح نحرك به موسيقا النفس؛ ـ فلا بد إذن أن تكون النفس مستعدة له، وأن تكون قد هذبت أوتارها، قبل أن تتهيأ للمفتاح!...

هذا التهذيب أو الإعداد لم يتح بعد لكل ذرات هذا المحيط الطامي من الشعوب!... وما دامت الغلبة للعدد، فلا مفر من أن يلبي المجتمع نداء غالبيته الطاغية الساحقة!... وما هو هذا النداء؟... إنه الرغبة في إلتقام السهل؛ أي النثر!...

وليس كل النثر أيضاً؛ ففي النثر ما يسمو إلى مرتبة الشعر؛ إيجازاً، وتفكيراً، وفناً!... هذا أيضاً يجب أن يبعد، أو يحصر في أضيق نطاق ـ إلى أن يختنق!...

لن يبقى إذن حراً طليقاً، رائجاً، مزدهراً؛ غير الغذاء الذي تستطيع الملايين إساغته واقتناءه!...

وهو بالطبع لن يكون الشعر الممتاز!...

فهل يتغير يوماً هذا الحال؟... أو يصير الشعر آخر الأمر إلى زوال؟!...

***

وإذا استطاع الشعر أن يزول يوماً، فهل يزول "الشاعر"؟!...

هذا الكائن العجيب، الذي أوجدته الطبيعة، من بين الخلق على نسق غريب!... هذا الذي قال فيه "موريـاك؛ متسائلاً:

"من هذا الرجل الذي يتكلم بخيلاء، ويمشي بكبرياء؟... لا شك أنه رجل أصحاب الملايين، أو أرباب البيوت المالية!...".

لا، لم يكن هذا الرجل سوى "شاعر"، من أصحاب الأبيات الشعرية!... أما كبرياؤه فليست سوى نوع من الدفاع عن النفس!...

إن الشك، في أعماق الشعراء، يعيث كالسوس!... إنهم في حاجة إلى التفاتنا؛ حتى لا يغمرهم اليأس!... إن هذا البلبل الذي يشدو في الربيع، هذا الكروان الذي ينشد والناس نيام، هذا الذي يسمونه الشاعر؛ ـ ما استوثق يوماً، كل الوثوق، أن أذناً قد سمعته!... إن أغانيه تصعد ضائعة بين النجوم؛ لتهبط عائدة إلى قلبه!... وإن صمتنا ليبدو له؛ كأنه خيانة، أو كأنه نذالة!... إذا خرج الشاعر يوما عن طوره،

ورمانا بالتهم، وغضب علينا وقذفنا بالحمم؛ ـ فلنحتمل منه!... فإن أغلب الناس، على هذه الأرض، قد أصيبوا بالصمم!... إنهم لا يسمعون أهازيجه!...

ولكن، هل من اليسير أن يسمع كل الناس أهازيج الشاعر، وأن يرتفعوا إلى سماء معانيه؟... حسبه، فيما أعتقد، أن يكون هناك اهتمام؛ فهو لا يطلب في حقيقة الأمر أكثر من "إشهاد" بأنه موجود، وأن الأمة في حاجة إلى وجوده!...

ولقد نال، في غابر الأزمان، هذا "الإشهاد" الرسمي بوجوده. فمن ذا ينكر أن "المتنبي" كان له في دولته شأن وأي شأن؟!... ومن ذا ينكر أن "أوربا"، تعترف بفضل شعرائها وأدبائها حتى الآن؛ ـ اعترافاً معنوياً أدبياً، يعوضهم بعض الشيء عما فقدوه من تقدير مادي مالي في العصور الحديثة؟... فحكومات الغرب وشعوبها ـ إن لم تستطع أن تمنح، الشاعر أو الأديب، مالاً وإقبالاً؛ ـ فإنها تمنحه تعظيماً، وإكباراً... فتقيم له التماثيل، واحتفالات الذكرى، وتحفل بآثاره، وتفاخر بأعماله!...

ولكن، الشرق؟... ولكن، "مصر"؟... إن بعض السطحيين يتساءلون أحياناً: كيف لا ينتج أدباؤنا وشعراؤنا إنتاج زملائهم في بلاد الغرب؟... أما أنا فأتساءل: كيف استطاع أدباؤنا وشعراؤنا أن ينتجوا إطلاقاً؟... ولماذا هم ينتجون؟... إن موقف أدبائنا وشعرائنا اليوم ليدعو إلى العجب: إنهم في موقف لم يقفه أدب، ولا شعر في عصر من العصور؛ فالمعروف أن الأدب يعيش دائماً بتشجيع طبقة من المجتمع: ففي العهود الماضية كان في كنف العظماء والأغنياء ـــ يتبارون في حمايته، ويتسابقون في إعلاء كلمته!... وفي العهود الحديثة، وزوال الأمية، انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم؛ فهو الذي يثبت الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه، وهو الذي يحيطه بمظاهر الاحتفال والتقدير!... أما أدبنا اليوم فهو حائر؛ كاليتيم بين أغنياء؛ لا شأن لهم بأدباء ولا شعراء، وبين شعوب لم يتم تعليمها؛ فهي لا تستطيع أن تعنى بعد بأدب أو شعر!... فأدباؤنا وشعراؤنا ينتجون، وهم يعرفون أن إنتاجهم لا يهم الأغنياء ولا الفقراء!...

لقد أحست الحكومة البريطانية أن الكتاب الإنجليزي في أزمة، وأن الفكر الإنجليزي: من أدب، وشعر، وفن،

وعلم، يجتاز مرحلة دقيقة، فسارع الوزير المختص بطلب اعتماد يقدر بمئات الآلاف من الجنيهات، ينفق في سبيل الفكر الإنجليزي في الخارج، حتى يظل الإنتاج الفكري في إنجلترا محتفظاً بمستواه؛ فلا يقنط المؤلفون، ولا ينصرفوا عن التأليف والإنتاج!...

أما في "مصر"؛ فإن الحكومات تدع المؤلفات الأدبية، تعامل معاملة الأرز، والقطن، والسكر؛ ـ فتكبل بقيود التصدير، وأغلال العملة، وتحبس في أيدي مؤلفيها، لا يدرون ما يصنعون بها ـ ولا لمن صنعوها!...

هناك، الحكومات تغار على نشر الفكر القومي، وهنا، تنام الحكومات، أو تهبّ لتقص أجنحة الفكر العربي!...

وبعد ذلك يقال لأدبائنا: ألِّفوا؛ كما يؤلف أدباء "أوربا" ولشعرائنا: غنوا وأنشدوا؛ كما يغني وينشد الشعراء العالميون!...

أدب القصة

إن الإنسان ليس مجرد "جسم" يتحرك في محيطه البيئة المادية؛ من ريف، أو حضر، أو منزل، أو ناد، أو مكان عمل؛ ـ مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية!... ولكن الإنسان أيضاً ـ فوق ذلك، وأكثر من ذلك ـ "عقل"؛ يتحرك في عوالم فكرية!... وهو "روح"، يسبح في معان شعرية!.. وهو مبادئ فلسفية، ودينية، واجتماعية؛ تصطرع وتتطور!... فالعناية ـ بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان ـ هي التي تجعل من القصة أدباً رفيعاً!... لولا ذلك لما كان لمثل: "سوفوكلس" أو "تولستوي" أو "فولتير" أو "شكسبير" أو "جوته"؛ ـ ذلك المكان السَامق في الآداب الخالدة؛ فهم ما أرادوا أن يحكوا للناس مجرد قصة ولكنهم أرادوا أن يبرزوا لنا أعمق ما في الإنسان!...

فما من واحد من هؤلاء قنع بتصوير بيئته، أو لونه المحلي؛ لمجرد التصوير!... فإن "فولتير" لم يرسم لنا الفرنسيين فقط، و"شكسبير" لم يرسم لنا الإنجليز فقط، و"تولستوي" لم يرسم لنا الروس فقط، و"جوته" لم يرسم لنا الألمان فقط؛ ـ فهم جميعاً ما رسموا حقاً، وما صوروا غير "الإنسان"!...

وما من واحد منهم أراد أن يصور "الإنسان"؛ في حياته القومية، المحدودة، ذات الألوان الصارخة العابرة!... ولكنهم جميعاً قصدوا أن يصوروا فيه شيئاً ثابتاً خالداً!... لمحنا منه ـ في ومضات تفكيرهم، وقبسات عبقريتهم ـ شيئاً هو فوق الإنسان ذاته!... وهذا هو الذي جعلهم يُقْرَؤون في كل بلد، وكل لغة، وكل زمن!...

ذلك لأنه ما من واحد من أولئك الخالدين، جرؤ على حمل القلم قبل أن ترسخ قدمه في أعماق الثقافة المعروفة في عصره؛ فقد كانوا يدركون أنهم ينشئون "أدباً" أي ذلك الشيء الذي يتصل اتصالاً مباشراً بالجوهر الثابت في كيان الإنسان!... ولكن انتشار القصة ـ باعتبارها مطالعة سهل ـ قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق، والهرب من الجهد، واتخاذ القصة مركباً هيناً، لا يكلف أكثر من سرد

حوادث محلية، وحبك مواقف مسلية، ووصف أشخاص، ورسم مناظر من الحياة الجارية: بأي أسلوب اتفق؛ ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ، اسم "الأدب" المبتكر والخلق الأصيل!...

وما دامت هناك جماهير، ينتشر بينها التعليم البسيط، عاماً بعد عام، وينجذب بطبيعتها إلى اللون اليسير الخفيف الشائق، وما دام هناك ناشرون يريدون الربح، فيمدون الناس بما يشتهون؛ ـ فلا بد من أن تثبت "القصة" وأن يكتب لها الذيوع!...

ومهما يكثر عدد القصاصين فلن يستطيعوا أن يكفوا في المستقبل تلك الأسواق التي ستفتح للقصة؛ فليست دور النشر وحدها هي التي تحتاج إلى القصص، ولكن الصحافة اليومية والأسبوعية ـ بأنهارها الواسعة ـ لن تكفّ عن طلب فيض من القصص لا ينتهي... فالقصة إذن مَقْضيٌّ عليها بأن تكون "صناعة"، رائجة، يزدحم عليها الطلب!... وبهذا وحده يقضى عليها في الوقت عينه بأن تبتعد نهائياً عن منطقة "الأدب"!...

***

والأدب ـ من ناحيته ـ سوف يرى أنه غير مستطيع أن يعمل طليقاً، في أجوائه العليا، وهو مرتبط بالقصة!... لقد أراد أن يستعين ببريقها وتشويقها في اجتذاب الناس، ولكن الناس، ما إن يروا قصة تافهة القيمة، محبوكة الصنعة؛ ـ حتى يندفعوا إليها متحمسين صائحين: "هذه هي الحياة!"، وينصرفوا بجموعهم عن القصة الأخرى، التي تطوى في أعماقها الحياة الحقيقية، تلك التي غاص لها الأدب والفكر، ضجرين قائلين: "ليست فيها حياة!"؛ ذلك أن الحياة عندهم، هي التي يرونها فقط؛ بعواطفهم السطحية، جاهلين أن الحياة في الأدب والفن ليس معناها السطحية في النظر إلى الحياة!... فهل يأتي يوم ينفصل فيه الأدب عن القصة؟... فلا يحتفظ منها إلا بالقدر الصغير الذي قد يخدم أهدافه؟... وبذلك يمضي مستقلاً باحثاً كاشفاً عن الحقائق في جوهرها، لا يحسب لأحد حساباً، ولا ينظر خلفه؛ ليرى من تبعه، ومن لم يتبعه... تاركاً "القصة" لشأنها، ولأسواقها، ولجماهيرها؛ ـ لها صفتها الخاصة، شأنها ـ في ذلك ـ شأن الصحافة، والإذاعة، والسينما!... غير مجترئة على أن تتمسح بأعتاب "الأدب"، أو طامعة في أن يسبغ عليها جلاله!...

هذا الاتجاه في الأدب ظهرت بوادره ـ منذ الآن ـ في أدباء عظام، منهم: "أندريه جيد" الفرنسي، و"ألدس هكسلي" الإنجليزي، و"ستيفان زفايج" النمسوي، و"إيليا اهر نبرج" الروسي: فقد استخدموا القصة ـ فيما مضى ـ استخدام الجراح للقفاز؛ كي يصلوا بها إلى شيء عميق دقيق، في كيان الإنسان!... ولم يجعلوها قفازاً للمتعة أو الزينة، يجذب النفس، ويخلب اللب!... ومع ذلك؛ فقد انتبهوا إلى التجرد بعض الشيء من العنصر القصصي؛ ليعرضوا حقيقة الإنسان، ومشكلات الزمان في قالب أدبي طليق، هو أحياناً قالب المذكرات، أو اليوميات الحقيقية، التي لا خيال فيها، وأحياناً قالب التاريخ، أو المقالة، أو البحث الذي لا اختراع فيه؛ كما جرت أخيراً في الصحف الأوروبية مناقشة بين بعض الأدباء البارزين، موضوعها هذا السؤال: "هل ماتت القصة باعتبارها من فروع الأدب؟... هل هي في طريق الموت؟... وكان المؤيدون لفكرة موتها، يقولون: إن الأدب ليس في حاجة إليها؛ لأنها بطبيعتها الخاصة لا تستطيع أن تقول كل شيء!... والأداة التي لا تستطيع في الأدب أن تقول كل الحقيقة، سيقضي عليها الأدب بالخروج من

دولتـه... والمقصـود بـذلك أن القصـة لهـا حـدودها الضـيقة الحبيسة في إطار "حدوتة" ممتعة، فهي لا يمكنها في كل الأحوال الاضطلاع بمهمة التعمق في بحث قضايا الإنسان الكبرى... تلك المهمة التي تميز الأدب الكبير!...

***

تقابل ذلك بوادر اتجاه آخر في محيط القصة: ذلك أنها وقد أيقنت أن الأدب هو التعبير الأعلى للقيم الخالدة في الحياة والإنسان؛ مما يحتاج إلى ثقافة بعيدة الأفق، ودراسة للإنسانية، رحيبة المحيط، عميقة الجذور!... في حين أن القصة المجردة لا تحتاج إلى كل هذه الأسباب؛ لتصل مباشرة إلى هدفها من إمتاع الجمهور، فقد أصبحت القصة اليوم، بمعناها الشائع، وهدفها المقتصر على الامتناع العابر؛ هي الميدان الأعظم لنبوغ النساء!... فما من أحد رأى نجاحاً؛ كنجاح "ذهب مع الريح"، أو "عنبر إلى الأبد"، أو قصص "فيكي باوم"!... ومن يدري ربما أثبت لنا الغد أن القصة لن تكون إلا "أدب" النساء!... لأنهن بطبعهن يحذقن ملاحظة التفاصيل الدقيقة لشؤون الحياة اليومية، ويُجدن تحليل

العواطف الداخلية ولديهن ولع فطري بالاسترسال في الوصف، وسليقة غريزية للإسهاب في القص، ولهن براعة في الإمساك بالقلم، ينسجن به قصة من حكايات بعض الناس؛ كما يمسكن بالإبرة ينسجن بها ثوباً من "التريكو" إلا أنه قلما تستطيع المرأة أن تكون "أديبة"، أي كاتبة عميقة الثقافة، قوية الذهن، تتناول الإنسانية كلها بنظرة ناقدة، وتحيط بمشكلات عصرها، وتؤثر في تفكير زمنها!...

***

لكن، أليس من الجائز أن يتم زواج بين "الأدب" "والقصة"؟... ما من ريب في أن هذا شائع الحدوث، غير أن هذا الزواج أيضاً شأنه شأن كل زواج!... كثيراً ما يسيطر فيه طرف على طرف، ويتغلب طبع على طبع؛ فإذا تغلب "الأدب" فنحن أمام فن ناقص، وإذا تغلبت القصة فنحن أمام فن رخيص!... أما إذا حدثت المعجزة - وهي في الواقع معجزة كل أسرة ـ وتم التوازن التام في هذه الزوجية الموفقة!... وتمشي الأدب في القصة؛ كما يتمشى الروح العميق في التكوين البديع؛ - فنحن إذن أمام معجزة في الفن!... ولكن

هذا الزواج السعيد لا يحدث أكثر من مرات قلائل في كل قرن؛ لهذا كانت الآثار الخالدة ـ في الأدب القصصي ـ أندر من أن تكون مناط حكم أو مجال قياس... لكأن الطبيعة تغار من كمال تلك الآثار!... فهي تولد كاملة، في لحظات وئام، غفلت عنها عين الطبيعة التي لا تنام!...

حياة الشخصية القصصية

قوة الخلق الفني ـ لشخصية قصصية ـ لا تكون فقط في حياتها المتدفقة النابضة داخل القصة نفسها، بل في حياتها خارج القصة، في حياتها الممكن استمرارها على وجوه أخرى في رؤوس الناس!... فقصة "روميو وجوليت" مثلاً قد بلغ خلق أشخاصها من القوة حدّاً يمكن أن يمنحهم حياة جديدة في نفس القارئ غير الحياة التي رسمها "شكسبير"!... تأملت أخيراً شخصية "جولييت" طويلاً، وقلت في نفسي: إنها لم تكن أول امرأة أحبها "روميو"؛ فقد أومأ إلينا "شكسبير" في مطلع روايته أن "روزالين" كانت هي معبودة "روميو" الأولى. وهاكم حواراً وجيزاً بين "بنفوليو" وصديقه العاشق المشهور، ينبئنا بحقيقة مشاعره، في ذلك الحين!...

قال "بنفوليو" لـ"روميو":

في ذلك الحفل المقام في دار آل "كابوليت"، سوف تجد "روزالين" تلك التي تهيم بها حباً!... وستجد أيضاً كل جميلات "فيرونا"؛ فاذهب إلى هناك، وصن عينيك عن المحاباة والتحيز، وتأمل ملياً من أدلك عليهن، ولسوف ترغم على الاعتراف بأن بجعتك ليست سوى غراب!...

فقال "روميو" لـ"بنفولينو":

لو كفرت عيني بمن تعبد، وصرحت بهذا البهتان؛ لكان أولى بدموعي أن تنقلب نيراناً مستعرة، وبعيني أن تحرق - هي ذاتها - كما يحرق الكذابون والسحرة!... امرأة أجمل من محبوبتي؟!... منذ أن ولدت الدنيا؛ - فإن الشمس التي ترى كل شيء، ما رأت لحبيبتي "لوزالين" نظيراً!...

وذهب "روميو" إلى حفل آل "كابوليت" متخفياً... وهناك وقع بصره، لأول مرة، على "جولييت" وسأل: عمن تكون؟... فلم يجبه أحد...فوقف مشدوهاً، يتأملها، ويصيح في أعماق نفسه:

يا لهذه الروعة!... إن ضياءها ليكسف أضواء المشاعل!... يا لهذا الجمال!... إن حسنها ليتألق في جبين الليل؛ كما تتألق الجوهرة في أذن غادة حبشية!... جمال أنفس من

أن يناله بشر... وأرقّ من أن تحويه أرض!... إنها لتنير هذا الجمع؛ كأنها حمامة بيضاء بين غربان!... أعرفت الحب أنا حتى للساعة؟!... عيني تقول: "لا"... إنها أول مرة أبصر فيها الجمال الحق!...

ووقع في قلبه تلك اللحظة ذلك الحب العنيف الذي سجلته الأساطير، وخلدته عبقرية "شكسبير"، وأصبح اسم "جولييت" على شفتيه، وعلى لسان الدهر، وشفاه المحبين؛ ـ رمز الغرام الذي يجرع كأس المنون للعاشقين!... أما "روزالين" فقد تلاشى رسمها من رأسه، وذهب اسمها في النسيان!... ولم يعد لها مكان في ذاكرته، ولا ذاكرة الزمان!...

وقاد الحب "روميو" و"جولييت" إلى النهاية المحتومة، وتزوجا خفية عن عيون أهلهما المتعادين، ولعب القدر للتفريق بينهما لعبته المرسومة؛ ـ فكانت المأساة المعروفة!... لقد أراد الراهب الذي عقد قرانهما سراً أن يجمع بينهما، فأعطى "جولييت" المنوم الذي يظهرها بمظهر الموت، فلما تجرعته دفنها أهلها في قبر الأسرة الفخم!... وأقبل "روميو" وقد ظنها ميتة، وجهل أنها منومة، فأعد لنفسه هو الآخر

سُمّاً يذيقه نوم الأبد، ودخل عليها القبر قائلاً لجسدها المسجى:

يا حبيبتي!... يا زوجتي!... ما استطاع الموت أن ينال من جمالك شيئاً!... ها هو ذا الحسن، لم يزل، نابضاً بتاج سلطانه، فوق مرجان ثغرك، وورد خدك!... وإن لواءك الأسود، أيها الموت، ليقف دونها مخذولاً لا يستطيع حراكاً!... آه يا "جولييت" المعبودة. لماذا أنت هكذا جميلة؟!... إني لأكاد أعتقد أن الموت نفسه هائم بمفاتن سحرك!... إن شبحه حائم حولك في هذا الظلام؛ لينالك، ولكني سأبقى إلى جانبك دائماً!...

وأخرج من جرابه قارورة السم وأفرغها في جوفه، وهو يقول:

"لقد صدقتني القول أيها الكيميائي!... سمك يسري في جسدي سريعاً؛ ـ قبلة أخيرة!...".

ولثم ثغر "جولييت"، وسقط غائباً عن الوعي، ولم يمض قليل حتى انتهى فعل المنوم، واستيقظت "جولييت"، وأبصرت "روميو" ممدداً تحت قدميها، فأدركت ما حدث... لقد حسبها ميتة حقاً، فلحق بها إلى السماء. فنظرت إليه وقالت:

ماذا أرى؟!... كأساً لم تزل يد حبيبي قابضة عليها؟!... إنه السم الذي قاده سريعاً إلى حتفه!... أهكذا شربت كل ما فيها أيها الأناني"!... هلا تركت لحبيبتك "جولييت" قطرة منها؟!... سأعتصر شفتيك بقبلاتي، عسى أن أرتشف من بينهما قليلاً من سم، يمنحني الموت، الذي يجمع بيني وبينك دائماً!...

وأخذت تلثم فمه، وهي تقول: "شفتاك حارتان!... إلى أن سمعت ضجيجاً خارج القبر، فخافت أن تفلت منها فرصة الموت، وأن يحول الناس بينها وبين اللحاق بحبيبها إلى السماء!... فاستلت خنجر "روميو" وطعنت به قلبها طعنة أردتها، وسقطت فوق صدره جثة هامدة!...

تلك هي القصة كما سجلتها الأساطير، وخلدتها عبقرية "شكسبير"!... ولكني أفترض أنَّ الكيميائي الذي أعطى "روميو" قارورة السم لم يصدقه القول، وما فعل إلا ما فعله الراهب، وأعطاه منوماً هو الآخر ينتهي أثره بعد حين...!

واستيقظ "روميو" فألفى الناس محيطين به، يذودون عن حياته، ويمنعونه من التفكير في الموت، وقد جردوه من سلاحه وحرسوه، وعهدوا به إلى الراهب يلازمه ملازمة

ظله، ويغسل بالنصح الطويل أحزان قلبه... حتى مرت الأيام السود، وعاد إليه بعض صوابه، وخضع للمحنة واستسلم للقدر، وبعد عنه شبح الموت، وتسرب إلى نفسه بصيص العزاء، وليس أقوى من الزمن سلطاناً، إذا اجتزنا عتبة قصره المسحور، نسينا من أمرنا ما لا ينسى!...

وكانت هناك امرأة سحرتها قصة هذا الغرام ـ كما سحرت كل نساء "فيرونا" ـ فتمنت ـ كما تمنين ـ أن تدنو من ذلك العاشق، الذي وقفت المدينة كلها سداً يحول بينه وبين الموت لحاقاً بمحبوبته!... إنها تعض الآن بنان الندم على ما كان من صدها له وفتورها نحوه فيما سلف!... أتراه يحفظ لها في طيات قلبه شيئاً من شغفه الماضي، دون أن يعي؟!... ذلك كل أملها الآن، إذا نفخت في ذلك الرماد... فمن يدري؟... لعل تحت جمرة تلتهب من أنفاسها!... وإذا التهبت من جديد نيران حبه الغابر لها فأي فخر، بل أي سعادة كتب لها أن تراها؟؟... "روميو" الذي ماتت من أجله "جولييت".. يصبح لها، وملكها، والهائم بها؟!...

كان هذا حلم "روزالين"!...

وإذا تمكن حلم من امرأة، وتمكنت هي منه، فلن تتركه حتى يغدو حقيقة!... وسعت "روزالين" إلى "روميو"، وأدنت أنامل عطفها من خده، لابسة له ثياب الصديقة الوفية، التي يحتاج إلى حنانها في ساعات حزنه. ولبثت بجواره الأيام والليالي تبدي له إخلاصاً بلا غاية، وتظهر له حباً بلا أمل، حتى استطاعت أن تظفر منه، مع الزمن، بعاطفة من المودة، أخذت تنمو في كل يوم وتكبر وتتقد، حتى كادت تلامس المحبة والميل، وأخيراً... تزوج "روميو" من "روزالين"!...

***

مضى عام على عقد القران... وأنجب "روميو" طفلاً... وبدأ يحس كأنه يتخبط في خيوط الحياة الزوجية، وأنه ليس أكثر من ثور يدور في ساقية الأيام المتشابهة في أنينها، وصياحها، وبكائها، وصمتها، وصخبها... وبدأت "روزالين" ترى "روميو" زوجاً ككل الأزواج، لا هو عاشق في قصة، ولا بطل في أسطورة!... وجعلت ذات صباح تتأمله وهو يرتدي على عجل ثياب الخروج، مهمل الهندام، أشعث الشعر!... فقالت له متهكمة، وكأنها تخاطب نفسها:

أهذا "روميو" الذي ماتت من أجله "جولييت"؟!...

فالتفت إليها ضجراً:

دعى "جولييت" في قبرها نائمة!...

- ولماذا تنظر إليّ بهذا الوجه المتبرم!؟...

- لأني ضقت ذرعاً بهذا الكلام... ما من شيء عندك غير "جولييت"!... "جولييت"... إني أسمع منك مائة مرة في اليوم اسم "جولييت"!...

- وماذا يغضبك في هذا... إلا أن يكون في ذلك فتح لجراح قلبك!...

- لا شأن لك بقلبي!...

- ومن قال لك إني أريد أن يكون لي شأن بقلبك؟!... وهل هو موجود؟... إني أعلم أنه لم يعد لك قلب منذ أن ماتت "جولييت"!...

- لا تتحدثي عنه إذن!...

- إني لا أفعل سوى شيء واحد، أسائل نفسي دائماً: لماذا أنت حي؟... ما فائدة حياتك؟... إن أكبر غلطة ارتكبتها هو أنك لم تمت مع "جولييت"... كل قيمتك هي

أنك كنت عاشق "جولييت"... أما فيما عدا ذلك فأنت لا تساوي شيئاً في الرجال!... إنما أنت التفاهة بعينها، والحمق، والخمول، والغباوة!...

- وصلنا إلى السباب وسلاطة اللسان؟...

- لا أريد شتمك!... فالذنب ذنبي - غلطتي هي أني تزوجتك؟... نظرتي الأولى إليك يوم صددتك كانت هي الصائبة، ولكن "جولييت" خدعتني، سامحها الله، وجعلتني أراك من خلال عينيها!... لقد كانت قصيرة النظر!... لقد كانت ضعيفة الإدراك بلهاء!...

- اشتميني أنا ما شئت، ولكن لا تشتمي ميتة تحت التراب!...

- تدافع عنها؟!... ألم أقل إنك لم تزل تحبها؟!...

- إني لا أدافع عنها، بل أدافع عما يليق، وما ينبغي للموتى من احترام!...

- يا لحرارة صوتك، كلما تعلق الأمر بجولييت!... قلبك هذا البركان الخامد بين يدي أنظر في فوهته، فلا أجد فيه غير فراغ وصقيع!... هذا الجراب الذي لا يصلح إلا لأن ألقى

فيه بكل قاذورات بيتي... أرى الدخان يتصاعد منه فجأة عندما يمر بيننا شبح جولييت!...

ـ إن هذا الدخان، الذي تقولين عنه، لا يتصاعد من قلبي، ولكنه يتصاعد من حياتي معك تلك التي أصبحت جحيماً!...

ـ خسئت وخرست!... اذهب عني!... اذهب عني أيها الوقح ـ بل أيها الأثيم الذي يرضى أن يعيش مع امرأة لا يحبها!...

ـ لقد أكدت لك مراراً أنك مخطئة واهمة؛ إذ تظنين أني لا أحبك...

ـ إنك كاذب... أنت لم تحبني يوماً...

ـ لقد أحببتك يوماً حباً عنيفاً!...

ـ يوماً، فيما مضى... في الغابر من الأيام!... قبل أن تراها بالطبع!... قبل أن تعرف "جولييت، نعم هي دائماً "جولييت"!... أرأيت أنك لا تريد أن تنساها؟!...

ـ لماذا تعذبين نفسك هكذا "يا روزالين؟!... أنت التي لا تريدين أبداً أن تنسيها؟... خذي هذا المنديل، وكفكفي دموعك... ودعيني أكشف لك عن دخيلة قلبي!...

ـ أنت كاذب!... لا أصدق حرفاً مما تقول!... لن أصدق حرفاً من كلامك!... ستزعم لي أنك تحبني؛ كما قلت لي كثيراً هذا العام، وأن الماضي قد دفن، وأن حبي قد نبت في قلبك!... نعم، وأي نبات؟... كالزهرة التي تنبت في تراب المقبرة!... ولكن هذا هراء!... ما أنت إلا زوج يريد السلام في بيته بأي ثمن، ولو كان الثمن هذه الكذبة الكبرى!... لا، لا أستطيع أن أصدق أنك تحبني، وأن بك قلباً حياً يتسع لي!... إنما الحب كله لـ"جولييت"!... "جولييت" هي حبك الخالد!... "جولييت"!... هذه المرأة التي انتزعتك مني، تلك السارقة التي سرقتك مني ـ حية وميتة ـ لا تكف عن تطويقك بذراعيها!... إنها دائماً ها هنا في بيتي!... لكأنه بيتها!... وفراشنا؛ لكأنه فراش عرسها!... لا أستطيع لها طرداً... هذه اللصة الملعونة... هذه الدخيلة الملعونة!... هذه الملعونة!...

ـ واأسفاه!... زوجتي!... زوجتي، قد جنت!...

***

وتـرك "روميـو"منزلـه، وخـرج هائمـاً علـى وجهـه في الطرقات يقول لنفسه:

نعم، كان يجب أن أموت بموت "جولييت"!... لا من أجل الحب؛ بل من أجل راحة دماغي بعد ذلك!...

فقد كان هذا الحوار مع "روزالين" يكرر ويعاد في الأسبوع مرات... وعبثاً حاول هو أن يقنعها بالحقيقة، وهي أنه يحبها؛ حباً لا هو بالصاخب، ولا هو بالثائر، حباً لا علاقة له بحبه الأول العنيف.. ولا صلة له بحبه لـ"جولييت" الملتهب!... إنه الحب الزوجي الهادئ الدائم!... إنه ليس الحمى الطارئة على الأجسام، وهي مريضة!... ولكنها الحرارة الطبيعية المقيمة في الأجسام وهي صحيحة!...

ما كان في إمكان "روزالين" أن ترى هذه الحقيقة؛ لأن بصرها لم يكن يرى غير تلك الصفحة الواحدة، في ماضي زوجها، صفحة "جولييت" الرائعة!...

إنه لمن العسير على امرأة أن تدرك أن هذه الصفحة، لن تبقى خالدة في تاريخ رجل!... لقد جلبت "روزالين"، على نفسها وعلى زوجها الشقاء؛ لأنها لم تصدق أن "جولييت" كانت حلماً في شباب "روميو"، وأنه ليس في مقدور الإنسان أن يعيش في الحلم إلى ما بعد طلوع النهار!...

القدر في الخلق القصصي

ما من قصة من واقع الحياة، يمكن أن تسلم من عنصر "المصادفة"؛ ذلك أن الحياة لا يمكن أن تسمى حياة، بدون أن يسيطر عليها "القدر"؛ فإذا لم يكن هناك قدر؛ فمعنى ذلك أن هنالك فقط عقلا بشرياً!... والعقل البشري وحده إذا صنع قصة فإنه يخرجها مخلوقاً خيالياً، لا يتصل بالحياة؛ فلا بد إذن من المصادفة ليوجد القدر؛ لأنهما زوجان لا ينفصلان...

فما من زوجين خلق أحدهما للآخر، مثل هذين الزوجين!... لكأنهما الطبق وغطاؤه، والكف وأصابعها، والقلم ومحبرته، والجلاد وسيفه، والجواد وفارسه؛ عمل أحدهما مرتبط بعمل صاحبه، ولا يبرم أحدهما أمراً إلا بمعونة الآخر!...

وإني لأتمثل الزوج ـ وهو "القدر" ـ قد جلس ذات ليلة إلى زوجته "المصادفة"، يتسامران... فقال الزوج:

إنـي أعجب لحياتنا معاً؟!... أنا مثال الصرامة والدقة والحزم، وأعيش معك أنت، يا مثال الهوى، والطيش، والجنون؟!...

فقالت الزوجة:

صف نفسك وصفني بما تشاء!... لا تهمني الأوصاف والنعوت!... ولكن، هل نسيت أني أنا التي أخرجك دائماً من المآزق، وأنقذك من الورطات؟!..

ـ متى ذلك؟... إني ضعيف الذاكرة!...

ـ نعم؛ ككل الأزواج عند اللزوم، ولكني أذكرك على الأقل بحادث واحد لا ينسى، وواقعة لا تنكر؛ لأنها مسجلة في الأساطير، يتناولها الشعراء، ويتناقلها الفنانون، من جيل إلى جيل: حادثة "أوديب"!... ألا تذكر؟ ... أوديب الملك، أنسيت يوم جئتني يائساً، عاجزاً، متوسلاً، تقول لي: "ماذا أصنع؟ أمامي مخلوق يدعى "أوديب"، مكتوب في "لوحي" أنه يجب أن يقتل أباه، ويتزوج أمه!... كيف يتم هذا

الحكم العجيب عليه؟... ماذا أصنع، حتى ينزل به القضاء المكتوب!؟... عند ذاك، هدأت أنا من روعك، وقلت لك: يا عزيزي القدر!... لا تصنع أنت الآن شيئاً... دعني أنا أحوك لك الحوادث، وأنسج لك الظروف... أنسيت كل هذا؟!"...

فقال الزوج:

أما أنك "خياطة" بارعة، فهذا ما لا سبيل إلى إنكاره، وهل كنت تريدين أن أعطى زوجة، لا تجيد على الأقل الخياطة والنسج؟... ولكن الذي آخذه عليك هو ذلك المقص الطائش في يدك!... بعض التأني!... بعض التعقل!... لا تكون هكذا عصبية المزاج!... إنك تلبسين أعمالي ـ أحياناً ـ أردية سخيفة التفصيل، سريعة التطريز!... لطالما سمعت من ينتقدني، من الناس بقوله: يا لهذا القدر، الذي يبدو في صورة بعيدة عن العقل والمنطق!... ولو علم الناس أن العقل والمنطق، لا يمكن أن يكونا من صنع امرأة؛ ـ لما اتهموني ظلماً!... ولكن أين لهم أن يعلموا أنني متزوج؟!... وإني متزوج منك يا عزيزتي "مصادفة"؟!...

فقالت الزوجة بهدوء ورفق:

أتستطيع أن تدلني على رداء واحد، لم أتقن نسجه؟... هل انتقد أحد - على مر الأحقاب - ما صنعت في "أوديب"؟... قلت لي: إنه يجب أن يقتل أباه ويتزوج أمه!... فانظر ماذا فعلت أنا؛ لأمكنك من ذلك: جعلت والديه يعرفان هذا المصير، من أحد العرافين؛ فيدفعان به، وهو في المهد، إلى راع؛ ليسلمه إلى الفناء... ولكن الراعي أسلمه إلى ملكة عاقر، في مملكة بعيدة، حتى شب وهو يعتقد أنه ابن هذه الملكة وزوجها، ثم جعلته - وهو فتى - يعلم بنبوءة العراف، فيهرب ممن يعتقد أنهما والداه!... وعندئذ، جعلت أباه الحقيقي يسافر من مملكته - مع حاشية قليلة العدد - فيتقابل مع ابنه، وهو لا يعرفه عند مفترق طرق، ويحدث بينهما نزاع على من يمر قبل الآخر، ويشتد الشجار إلى حد الضرب، وهنا جعلت ضربة من يد الابن تنحرف فتصيب أباه، فيقع جثة هامدة، ويخلو عرش المملكة، وتظل أم "أوديب" الحقيقية بلا زوج!... عند ذاك، جعلت وحشاً غريباً، يهدد أهل تلك المملكة، ويفتك بشبابها!... وجعلت الملكة الأرملة، تعلن إلى الناس أنها تقدم نفسها عروساً لمن يقتل الوحش، وينجي المدينة من شره... وهنا جعلت "أوديب" هو

الذي يقتل الوحش، وينال العروس التي هي أمه... ماذا في ذلك يخالف العقل أو المنطق؟!..

فقال الزوج متجنباً الرد على سؤالها:

لا فائدة!... أهنالك امرأة تعترف بأن تصرفاتها غير معقولة؟!... إنك في كل يوم تفرقين ما ينبغي أن يتلاقى، وتجمعين بين ما يجب أن يفترق!... لشد ما يغيظني أن أرى رجلاً وامرأة، كل شيء في أحدهما يناسب الآخر، كل شيء في أحدهما ينادي الآخر، وهما يعيشان الأعوام ـ أحدهما على مقربة من الآخر ـ فما تتدخلين أنت بحركة، أو بهمسة، أو بوخزة؛ لتتبهي أحدهما إلى صاحبه... وإذا كل منهما يسير بعد ذلك في طريق، فتتدخلين أنت، وتقحمين على كل منها إقحاماً ـ شخصاً غريباً، ذا طباع مختلفة متنافرة، ولا تزالين بهما حتى يجتمعا، وكل شيء فيهما يصرخ: مستغيثاً، طالباً أن يبتعدا بعد السماء عن الأرض!...

ـ أنسيت أنني إنما أسير وفقاً لأوامرك؟...

ـ هذا صحيح!... أنا أصدر الأمر، وأنت تدبرين!... أنا آمر بالطعام، ولكنك أنت المسؤولة عن الألوان إذا تنافرت، والطهو إذا لم يحسن سبكه!...

ـ كيف تريد أن يكون حسن السبك، وأنت الذي قلت لي في الحالة التي ذكرتها: مكتوب في لوحي، أن هذين الزوجين يجب أن يكونا في زواجهما شقيين؟!...

فأطرق الزوج، ولم يجب؛ وكأن أمراً هاماً يشغل باله، وفجأة رفع رأسه، والتفت إلى زوجته قائلاً:

ما علينا، ... اسمعي يا عزيزتي "مصادفة"!... أمامي حالة، أريد أن أختبر في علاجها براعتك!... رجل في تمام صحته، قد حجز محله في القطار المتحرك بعد ساعة ولكن المكتوب في لوحي، أنه سيموت في الجو، ذلك اليوم نفسه، ماذا تصنع؟..

ـ ليس أبسط منها حالة!... انظر!... سأجعله يقابل صديقاً، يحدثه عن وقوع تصادم لقطار فيتشاءم، وينوي السفر بالطائرة التي علم أن صديقه مسافر بها. وإذا لم يكن موت الصديق أيضاً مقرراً ـ في لوحك ذلك اليوم ـ فإني أجعله يؤجل سفره، وينزل لصاحبك عن محله، وترتفع الطائرة بالرجل، وتحترق في الجو بمن فيها!... ما رأيك؟...

فهز الزوج رأسه، وقال متنهداً:

دائماً أسلوبك الملتوي كخيوط العنكبوت!... لماذا لم تنزلين صريحة صارمة كالصاعقة!... ولكنك امرأة، لا تجيدين غير "شغل الإبرة"!...

فانتفضت الزوجة غاضبة، ونهضت صائحة:

يا الظلم الأزواج!... إن طول العشرة يضجركم ويبطركم!... ولكني أقسم لك: لو استمر نقدك لي، على هذه الصورة؛ ـ لكففت عن معونتك، وامتنعت عن هذا العمل، الذي تسميه "شغل الإبرة"؛ لأرى ماذا تصنع بمفردك ـ أنت الصارم الحازم؟!...

فتراجع الزوج، وأجلس زوجته إلى جانبه، وقال لها برفق:

مهلاً يا عزيزتي "مصادفة"!... مهلاً!... ترفقي بصحتك!... لا تكوني هكذا عصبية المزاج!...

فقالت الزوجة متدللة:

لست عصبية المزاج!... إن نسيجي الذي تنتقده، ليس سوى خيال خصب!... أما أنت ـ بحزمك وعزمك ـ فضعيف الحيلة، فقير المخيلة... تريد أن تنزل بأحكامك؛ كالسيف الأصم، فلا تمهيد ولا تدبير!...

ـ أحمدُ الله أنكِ معي؛ لتمهدي وتدبري. أما من قُبلة للصلح؟!...

على شرط ألا تعود؛ فترميني بقلة العقل والمنطق!...

وألا تعودي أنت فترميني بضعف الحيلة والخيال!...

وتعانقا وتصالحا، وباتا ليلتهما متصافيين هانئين، إلى أن طلع النهار، وتوالت الليالي، ونسيا الشرط والوعد. وعاد كل منهما إلى سابق عهده، يبدي رأيه في صاحبه، ويعقد في جو الزوجية سحابة، تبرق، وترعد، ثم تنقشع، وهكذا دواليك؛ لأن تلك هي الحياة التي اصطلح على تسميتها "الحياة الزوجية الموفقة السعيدة" حتى إذا كان الزوج اسمه "القدر"، والزوجة اسمها "المصادفة"!...

الفنان والجمهور

هل يجب على الفنان أن يهبط إلى الجمهور، أو أن يصعد إليه الجمهور؟...

سؤال كثير التردد على شفاه الناس، والإجابة عنه تقتضي شيئاً من التأني؛ فلا بد ـ قبل كل شيء ـ أن يكون هنالك "فنان"!... أي إنسان، أقوى في الإدراك، وأسلم في الذوق؛ ـ من سواد الجماهير!... فإذا انعدم هذا الشرط لم يعد هنالك محل لهبوط، أو صعود... ولم يبق إذن معنى للسؤال!... فإذا استوثقنا من أن الفنان موجود، وأنه قائم، بإدراكه، وذوقه، وأسلوبه؛ فوق قمة، يشرف منها على الجموع؛ ـ فقد حق علينا أن نبحث: أيهما يخطو نحوَ الآخر حتى يتم اللقاء؟... أهم الذين يتسلقون إليه الجبل؟... أم هو الذي ينزل إليهم السفح؟...

قد يكون من الخير أن نتلمس الهداية، عند المبدع الأعظم لهذا الكون!... لقد أراد ـ وهو في عليائه ـ أن يبلغ الناس رسالة. فماذا فعل؟... إنه تعالى لم ينتظر من الناس، بمفردهم، صعوداً إليه؛ لأن هذا شاق عليهم؛ ولأنهم في ظلامهم وجهلهم لا يعرفون مسالك الطريق إلى نوره!... إنهم في حاجة إلى من يمسك بأيديهم، ويقودهم، ويصعد بهم!... لا بد إذن من النزول بينهم، ولكن من الذي ينزل؟... الدين الإسلامي يعلمنا أن الذي نزل هو محمد؛ رسولاً من عند الله!...أما الدين المسيحي فيقول لنا: إن الذي نزل هو الله نفسه؛ متجسداً في المسيح!...

مهما يكن من اختلاف في الدينين، فهما متفقان في الغاية: إن الله رأى أن يدنو هو من الناس برسالته ــ لا أن يتركهم هم، يصعدون إليها من أرضهم!...

لا جدال ــ إذن ــ في أن الفنان لا يستطيع أن يبقى في القمة، حبيس فنه؛ منتظراً أن يصعد إليه الجماهير، في جبله الوعر، يحملون المصابيح في أيديهم، ويتصبب العرق من أبدانهم وهم يصيحون به: "أين أنت أيها الفنان المعلق في السحب؟!... جئنا نبحث عنك؛ فقد أدركنا بالفراسة، أو

بالحدس والتخمين، أنك في ذلك المكان؛ فهل عندك رسالة تبلغنا إياها؟!..."

لا يمكن بالطبع أن يقع شيء من ذلك، ولكن المعقول هو أن ينزل ذلك الفنان، حاملاً رسالته تحت إبطه، ليلتمس الناس؛ في مسارحهم، ومشاربهم، وأسواقهم، ومتاجرهم، وملاهيهم؛ ليقول لهم: "أيها الناس!... أصغوا إلي لحظة!... إني لم آت لأثقل عليكم، ولا لأضيع وقتكم عبثاً؛ ـ ولكن معي شيئاً أعرضه: فيه متعة لكم!... ولكن، فيه أيضاً تهذيباً لنفوسكم، ورفعاً لمداركم!...".

وهنا تقوم ـ في وجه الفنان مثل الصعوبة التي قامت في وجه الأنبياء، فالجماهير ـ أمام النبي أو الفنان ـ تتفرع عندئذ إلى طائفتين؛ طائفة تحسن الإصغاء إلى لب الرسالة، ولا يشغلها الغث عن السمين، ولا الغلاف المزوق عن الغرض المكنون، ولا الظاهر الشائق عن الباطن المقصود، فتتبع الفنان في كل طريق، وتسلمه قيادها، فيصعد بها الجبل خطوة خطوة، متحاملة على نفسها متمسكة بالصبر، ماسحة عن وجهها غبار الكد وآثار الضجر، مؤمنة بقائدها وبالهدف الذي يسير بها إليه؛ ـ حتى تجد نفسها ـ آخر الأمر ـ

قد استوت معه فوق القمة!... وطائفة، عامية، عابثة، ما إن ينتهي بها الإصغاء إلى معان أعمق مما تصورت - حتى يطيش حلمها، ويذهب صبرها، وتسرع منفضة من حول الفنان، ضاحكة ساخرة، ما وعت من رسالته غير السطح المموه، والقشرة الملونة، والجانب السهل الخفيف، والشكل البراق السخيف، الذي ما قصد به إلا اجتذابها، وإثارة استطلاعها واستدراجها إلى ما في داخله من جوهر مفيد!...

هذه الطائفة الأخيرة ـ من غوغاء الفكر، وكفرة الدين ـ هي التي تتعب الأنبياء والفنانين!... وهي في الفن تتظاهر بمتابعة الفنان، إلى أن يبدو عليه ميل للجد والصعود؛ فتحزن، وتقف، وتقول له هازلة: "إلى هنا، واترك يدنا، واصعد وحدك!..." وهي في الدين، تساير النبي، حتى ينهاها عن منكر تريده، فتهزأ به، وتقول: "اذهب عنا، واتركنا في لذائذنا!..." تلك هي الطائفة التي كتب عليها الضلال في العقيدة، والظلام في الفكر وهي التي لن ترقى إلى قمة أبداً!...

الشهرة الأدبية

من رأي "كارليل" أن "جان جاك روسو" رجل مريض، وأن رغبته المحرقة ـ في مدح الناس له ـ قد بلغت حد الجوع، الذي لا يعرف له شبع!... ولقد روى عنه أنه دعى، ذات مساء، إلى حضور رواية تمثل على المسرح، فاشترط على من دعاه أن يذهب متنكراً؛ كما يفعل الملوك، أي يخفي وجوده عن الناس، حتى يكون في زعمه، على شيء من الراحة والتحرر والطمأنينة، ولكن الجمهور ما لبث أن لمح "جان جاك روسو" في مقعده، ولم يلق بالاً إليه، ولم يحفلِ بأمره، فثارت ثائرة "روسو"، وضاق صدره طول المساء، وساء خلقه، وغضب إذ خاب تدبيره،وأخطأ حسابه، وعرفه الناس.. على أن الذي دعاه ورأى منه هذا الحال؛ ـ أيقن كل اليقين أن العلة الحقيقة ـ في غضب "روسو" وثورته ـ ليست في معرفة

الناس له... بل في أنهم عرفوه وتبينوه، ولم يبدوا له الحفاوة، ولم يستقبلوه بالترحيب!... ويعلق "كارليل" على ذلك بأن طبيعة "روسو" كلها قد سمعتها هذه الفكرة المسيطرة ـ فكرة الشهرة عند الجماهير، وما يقترن بها من مساس بشخصه، وإعلاء أو حط من قدره!...

وإذا تركنا "روسو"، وصدقنا ما قيل في "جوته"، و"بيتهوفن"؛ من أنهما كانا يضمران الغيظ، كلما مرا في الطريق معاً على جماعة من الناس، تعرفهما وتحييهما؛ فقد كان كل منهما ـ فيما روى ـ يعتقد أن التحية موجهة إليه، وأنه هو المقصود بإيماءة الرأس، وإشارة البنان!...

وإذا تركنا كل هؤلاء، ورجعنا إلى أدباء العرب وشعرائهم؛ وجدنا كثيراً من أعاظمهم يحبون الشهرة، ويفاخرون بذيوع الصيت في جموع الناس!... وهذا هو "المتنبي"، الذي يقول مباهياً:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

ما هذه الشهرة التي يحبها أكثر العظماء؟!... أهي شيء غير أن تكون معروفاً لأناس لا تعرفهم؟!.. وما قيمة ذلك عند رجل عاقل؟.. ما الذي يحبب إليك هذا الوضع الغريب: أن يكون سترك مهتوكاً، وأمرك مكشوفاً؛ لقوم مجهولين لك، يحملقون في وجهك إذا سرت، ويتهامسون عليك إذا أقبلت، وينبشون في أسرارك، ويبدون رأيهم في حياتك، ويجعلون منك موضوعاً للحديث الفارغ أو الساخر، ويرون من حقهم أن يشرّحوك حياً أمام الملأ، وأن يجردوك من ملابسك في الطريق العام؛ لأنك كما يقولون: رجل عام!... ليس من حقك الستر، ولا بد أن تعرض للناس حقيقتك العارية!... أليس هذا الذي يحب لنفسه هذا الوضع غير مريض أو مجنون؟!...

ما من شك أنه مريض أو مجنون، ذلك الذي يحب راضياً مباهياً أن ينزل عن ملكيته لنفسه، ويصبح مملوكاً لأناس، لا يمتون إليه بصلة، يتصرفون في أمره كما يريدون، ويصورونه لأنفسهم وللمجتمع على النحو الذي يحلو لخيالهم السقيم أو السليم!...

إن المشـهور شـخص بـاع الحريـة واشـترى العبوديـة، بـاع حريته في أن يذهب حيثما يريد، فلا يجد من يفسر تنقلاته تفسيرات مختلفة، وباع حريته في أن يتصرف كما يشاء، فلا يجد على تصرفاته معلقاً، وباع حرّيته في أن يراقب الناس ولا يراقبه أحد، ويطلق لسانه في كل شيء فلا يحاسب على ما يقول، ويكون هو السائل، ولا يكون هو المسؤول!...

لماذا تباع هذه الحرية - إذن - في سبيل هذه العبودية؟!..

لا يوجد غير سببين:

إما أن الشخص يتعرض للشهرة، أو يسعى إليها، وهو عالم بعواقبها السيئة، وأعبائها الثقيلة، ولكنه لا يجد منها بداً في سبيل غاية أسمى؛ كتبليغ رسالة إلى الناس، أو نشر أفكار في المجتمع؛ فمثله مثل الذي يسعى إلى هدف دونه بحر، فلا يجد مفراً من أن يرضى بخلع ملابسه، ويتجرد ليخوض الماء!...

وإما أن الشخص يحب الشهرة لذاتها. ويجعلها هي الهدف، ولا يهمه أن يصل بعدها إلى شيء؛ فمثله هنا مثل الذي يتجرد ويقذف بنفسه في البحر، لا ليعبره إلى غاية

أخرى، بل ليظل فيه سابحاً، أو غارقاً وهو بذلك وحده ناعم راض مسرور... لا يريد من هذا البحر خروجاً، ولا يريد من هذه العبودية انطلاقاً، يتأذى إذا صدف عنه بحر المجتمع، فلم يصفق لمجيئه، ولم يهتز لذهابه!...

حب الشهرة على هذا النحو مرض من غير ريب وهو يسبب آلاماً نفسية لصاحبه وهو أشد فتكاً في العظماء والأقوياء من البشر ـ ليت العلم الحديث يكشف له علاجاً!...

شخص الفنان

جلسنا أمام البحر، تهب علينا أنسام "سبتمبر" الباردة اللطيفة؛ كأنها الطيور المهاجرة، هاربة من طلائع الزمهرير إلى الجنوب!... هذا أوان "السماني" بدأ موسمه وكثر باعته، يحملون الأقفاص، ويصيحون من حولنا منادين...

قال صاحبي:

يا لهذا السمان القوي!... إنه يقطع هذا البحر العظيم طائراً في الفضاء، لا يستريح على أرض، ولا يتنفس فوق شجرة!... أذكر أني في مستهل العمر تمنيت لو أن الله خلقني طائراً من الطيور، أما وقد خلقت إنساناً؛ فقد كان الأولى بي أن أكون على الأقل فناناً ـ ولكن الحياة جرفتني في نهرها الضيق!...

ـ وما الذي كان يغريك بتلك الأمنية؟

ـ أمر واحد كان يجذبني ويغريني: حرية الفنان!... إن الحرية لقوة!... تلك الحرية التي هي أثمن امتياز، منحه المجتمع لرجل الفن!... أو قل إنه هو الذي استخلص هذه الحرية بيده!...

فالمجتمع لا يستطيع أن يمنح الفنان شيئاً ـ إنما الفنان هو الذي هرب من قيود الناس الأرضية، وخرج على أوضاعهم السطحية، وزهد في قيمهم المادية، وارتفع إلى قيم أخرى أسمى وأبقى؛ ـ وبذلك استطاع أن يطير إلى الأعالي؛ لأن وظيفته التحليق فوق رؤوس الناس، يرى ما لا تراه عيونهم!...

***

قالها الصديق بحرارة وإيمان وسكت منتظراً مني الكلام!... ولكني رفعت بصري إلى سرب من طير "النورس" الأبيض، يبسط أجنحته على صدر الماء، وقلت:

هذا "النورس" يرى الأسماك تسبح في الأعماق، وهي لا تراه!... تلك هي الحرية حقاً... ولكن الأسماك الآدمية لا تلبث أن تلمح، وهي في غمرتها، الفنان في ارتفاعه، فتصوب

إليـه نظـرات الأفـاعي حتـى يسـقط في أفواههـا!... كـم مـن الفنانين استطاع أن يحتفظ بقيمه العليا طويلاً؟...

ـ الفنان الذي يسقط، ليس هو الفنان الحق!...

ـ هذا صحيح!... ولكن المؤلم أن ترى فناناً، يجاهد في سبيل المحافظة على قيمه العليا؛ كما يجاهد الطير ليبقى في علوه، ولكن الناس لا يتركونه يجاهد ضد نفسه، وضد جاذبيـة الأرض، بـل يسـرعون إليـه، مـدفوعين بالفضـول، يتناولونه بالنبش في ريش حياته، والتفتيش في حنايا وجوده وشخصه؛ ـ يفسـرون كـل شـيء فيـه بمقايسـهم، ويخضـعون كل بادرة منه إلى أوضاعهم ولا يدعونه حتى يربطوا رجله بخيط يلهون به، ويشدونه إليهم كلما آنسوا فيه ميلاً للهرب... لا، يا صاحبي!... لا تتحدث كثيراً عن حرية الفنان!..

***

وسكت لحظة أتأمل موج البحر، ثم مضيت أقول:

قرأت يوماً لأحد الأدباء الغابرين هذه العبارة: "حبذا لو قرأ الناس مؤلفاتي؛ كما لو كانت وجدت، داخل زجاجة

مختومة، ملقاة بين أمواج اليم!... هذا أديب يتمنى أن يلقي إلى الناس بإنتاجه، ولا يلقي إليهم بشخصه!... لقد كانت هذه خطتي دائماً في مطالعة آثار الفن!... ما أذكر أني قرأت مرة مقدمة عمل فني!... بل كنت أصرف قدماً إلى العمل ذاته، إني لا أعرف شيئاً كثيراً عن حياة "شكسبير"، ولم أعن بالنظر في حياة "الفردوسي"، أو "الجاحظ"!... ولم أحاول أن أقرأ حياة "جوته" أو "موليير"!... كل هؤلاء تغذيت بكثير من إنتاجهم - قبل أن أعرف من هم - بل لقد منعت نفسي منعاً صارماً عن قراءة حياة "فاجنر" بقلمه، وهي في ثلاثة أجزاء ملأى بالطريف الغريب، ولم تهزني حياة "بيتهوفن" ولا حياة "موزار" ولكني حفظت الكثير من موسيقاهم عن ظهر قلب!... إني أريد أن أكتشف الكنوز بنفسي، ولا أريد غواصاً معي يخنق أنفاسي بثرثرته، أو دليلاً يقودني حسب هواه!...

***

وغرقت في الصمت... وأطرق الصديق لحظة... ولكنه ما لبث أن التفت إلي قائلاً بنبرة شك:

لا... لست من رأيك في هذا!... وهل يستطيع الناس أن يقدروا الأثر الفني، بدون أن يعرفوا صانعه؟!... لو لم ندرس حياة الكثير من الفنانين، ونلمّ بظروف إنتاجهم، ونعرف تفكيرهم وفلسفتهم وبيئتهم ونشأتهم واتجاهاتهم... أكان من الممكن أن نفهم مرامي أعمالهم؟!... إليك مثلاً بسيطاً: الفن الإغريقي، ما سرّ تقدير العالم له؟... أليس لما يعرفه الناس عن حياة أكثر خالقيه؟... ماذا يحدث لو جهلنا كل شيء عن شخصية فنانين؛ من أمثال "فيدياس" أو "براكسيتيل"؟!...

ـ لا يحدث شيء... وأبادر فأطرح عليه هذا السؤال:

ألا تقدر أنت ـ ويقدّر العالم كله معك ـ ذلك التمثال المصري البديع "رأس "نفرتيتي"؟... أتستطيع أن تخبرني من صانعه؟... و"أبو الهول" الرهيب، أتعرف من ناحته؟!...

ـ إذا عرفنا ذلك كان أدعى إلى زيادة متعتنا الفنية!...

ـ أتظن ذلك؟... أما أنا فأرتاب فيما تقول... ماذا يحدث لو عرفنا كل شيء عن الخالق الأعظم، الذي أبدع الكون المنسق العظيم؟!...

ـ إن الخالق الأعظم هو نفسه الذي يبعث إلينا برسله؛ ليعرفونا به تعالى، ويصفوه لنا، ولم يقتصر على ذكائنا وحده في معرفته، ولم يكتف بقدرتنا المحدودة على فهم آثارهم، وأعماله، ومراميه!...

ـ وهل استطاع الرسل أن يصفوه لنا على حقيقته، أو أنهم وصفوه لنا على تلك الصورة التي توافق عقولنا، ولا تعلو على إدراكنا؟!... إنه لأمر عسير على الرسل أنفسهم، قبل أن يكون عسيراً على الناس!... وإن قليلاً من بينهم من أمكنه التحليق إلى حيث يقتبس شعاعاً من نور الله، وأقل من هؤلاء من تمكن من شرح هذا الشعاع للناس، على نحو يفهمونه، ولم يكن في مقدور الناس أن يعرفوا عن الله أكثر من أنه جبار قهار، لطيف غفور، كريم رحيم!... إلخ... صفات إنسانية تدركها مشاعرهم الآدمية!... لا يا صاحبي... إن الناس لا يمكن أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم!... وإنهم هم الذين يفرضون عليك الصورة التي يعرفونها كما لو كانت ثوباً من صنع أيديهم يلبسونك إياه قهراً. هذا ما دفع الخالق الأعظم أيضاً إلى تحذير الناس من الخوض في شخصه... وحمل رسله على منع الناس من

الاسترسال في أسئلة خاصة بذاته تعالى ـ وإذا كان الناس قادرين على تناول الذات العلية بالتشويه، فما بالك بشخص الفنان ـ وما هو إلا فرد من بينهم، يستطيعون أن يقولوا فيه ما يشاؤون؛ ـ حتى من يزعم أنه شارح لشخصه، ومفسر، أو مدون لحياته، أو مؤرخ؛ ـ قلما يوفق إلى تقصي الحقيقة فيه!... إنما هو يجمع نتفاً من تقولات الناس، إذا لم يكن قد رآه، فإذا كان من معارفه رسم له صورة من وحي رأيه الشخصي فيه، قد يخطئ فيها أكثر مما يصيب!... لو علمت كيف يكتب التاريخ لألقيت في هذا البحر بكل كتب التراجم!... ثق أنه ليس أصدق من "الأثر الفني" وحده، هو صورة الفنان التي لا تشوه... هو روحه المنطلق من جوف ردائه الدنيوي... هذا الرداء الذي لا يستطع الناس أن يتقولوا في تفصيله، بما شاء لهم جهلهم أو زيفهم، أو تحمسهم، أو إغراقهم!... "العمل الفني" هو وحده الذي يحلّق فوق الأجيال حراً، سليماً، بعيداً عن أيدي العابثين، وأفواه الناهشين. هنا حرية الفنان، التي ليس له حرية سواها!...

***

ومـرّ بنـا في تلـك اللحظـة بـائع "سمـان" يحمـل قفصـه وينادي...

فقلت لصاحبي:

حرية الفنان، مثل حرية "السمان"!... إنها في الفترة التي يحلق فيها فوق البحر... بحر الفن ـ مهاجراً ـ من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال!... أما فيما عدا ذلك فإنه يهرب من أطباق الثرى، أو الثلوج؛ ليسقط في أطباق الأرز، أو الثريد!...

منطق الفنان

المجتمع ـ هذا الكائن الضخم كالبحر ـ يحيط بمنارة الفنان ويعلو بسواد أمواجه على صخرتها يريد أن يضمه بين أحضانه... متوهماً أنه يغمره بعطفه وحنانه، محاولاً أن يخضعه لمنطقه وقوانينه، فإذا أقصى الفنان رأسه عن مستوى الغمر، وأبعد مصباحه عن لفحة الموج؛ وتصرف في أمر بوحي من ضوئه الداخلي؛ ـ حكم عليه المجتمع من الفور بالشذوذ!...

ما من أحد أشد التصاقاً بالمنطق كالفنان؛ لأن الفن ذاته منطق!... ما الفن إلا منطق إلا منطق في رداء جميل!... "بيتهوفن" في عالم الأصوات هو سيد المنطقيين بلا مراء!... إنه "أرسطو" الموسيقى!... أنغامه تنساب في منطق عجيب خلاب، مقدماتها تفضي إلى نتائجها الحتمية، وتتسلسل مثل

أبرع الأفكار الفلسفية إحكاماً!... وإذا كان الخلق صورة من الخالق، فلا بد أن يكون المنطق ـ وهو روح الفن ـ من خصائص الفنان!...

كل فنان منطقي مع نفسه، وحياته، وشخصيته، والظروف، التي فيها: يعمل، وينتج ويخلق!... ولا أستطيع أن أصدق شيئاً غير ذلك، ولكنه نوع من المنطق خاص به، ملائم لحياته، وظروفه الخاصة؛ لا علاقة له بالمنطق العام الذي اصطلح عليه المجتمع، وسنّهُ شريعة للناس، بغير تفريق ولا تمييز!...

إن الفنان لا يتقيد بنظرة الناس إلى الأشياء... لأن الناس تصنع نظارات مصنوعة سلفاً، لكلّ أمر من أمور الدنيا!... أما هو فينظر إلى الأشياء بعينه المجردة عن كل منظار، صنع بيد غيره، فيرى بالضرورة غير الذي يراه الآخرون... إنه يبتدع منطقه بنفسه؛ كما يبتدع فنه، فإذا أدهشت الناس تصرفاته رموه بالشذوذ!...

قليل من المفكرين، أو المنصفين من يفهم الفنانين!... إن من أراد أن يفهم فناناً وجب عليه أن يضع نفسه في مكانه، ويحس إحساسه، ويعرف لون حياته ونشأته

وماضيه، وعراكه وجهاده، وميوله ونزعاته؛ ـ فإذا تعمق في درسه خرج منه يقول "معقول"... ليس هنالك شذوذ!... إنما هو منطق مقبول!...".

إن المجتمع يخطئ دائماً فهم الفنان، كلما أراد أن يطبق عليه قانوناً ثابتا.... لطالما سمعنا من يزعم ـ عن تخبط وجهل ـ أن الفنان ينبغي له أن يتزوج؛ لينتج، أو أن يعيش مترهباً؛ ليبدع، أو أن يشقى في الحب؛ ليخلق أو أن يذوق الفقر، أو أن ينعم بالثراء... إلخ؛ ـ كل هذه الأقوال هراء!...

لقد أشبع التاريخ أولئك المتحذلقين تكذيباً، وخلد في سجله عباقرة في الفن أنتجوا آيات!... بعضهم وهو عزب، وبعضهم وهو متزوج!... بعضهم وهو في ذلة الفاقة، وبعضهم وهو في نعمة الرخاء!... بعضهم وهو غارق في الحب، وبعضهم وهو محروم من الحب!...

ولطالما توهم الناس أن الفنان الذي ينتج ـ من أجل المال ـ يسفّ؛ وأن من يعمل ـ بناء على طلب ـ يهبط ويسخف!... وها هو ذا "بيتهوفن" يخلق "السنفونية" التاسعة العظيمة؛ من أجل خمسين جنيهاً "بناء على طلب" دار من دور النشر الموسيقي!... وها هو ذا "شكسبير"، كان يحشر أحياناً، في

بعض مسرحياته الفكاهية، ما يعجب جماهير الملاعب، ويربح ما يقيم أوده، ويكفل معاشه؛ فلا الإنتاج من أجل المال، ولا العمل على إرضاء الجماهير؛ ـ منع الفنان الحق من أن يخرج في الفن روائع؛ لأن العبقرية إذا تفجرت فإنها تستمد وحيها من السماء ومن الأرض، من الروح ومن المال، من السحب ومن الوحل!... كل شيء لها منبع وحي، ومصدر غذاء...

ليس في الوجود قانون يطبق على الطبيعة الفنية!...

إنها قادرة على الإبداع في أي ظرف، وفي كل حال ـ لا شيء يقتلها!... كل شيء يغذيها، ويقويها، وينفعها... إنها لا تقتل أبداً من الخارج... ما من شيء في الكون يهدم الفنان، حتى ولا يده!... حتى ولا أخطاؤه، لأن فنه يأكل، ويطعم، ويستفيد من كل ما يصادفه!... من العلو ومن الهبوط، من الفوز ومن الإخفاق، من الفضائل ومن الرذائل!... من الاعتصام بالشواهق، ومن التردي في المساقط والمهاوي!...

شيء واحد يقتل الفنان.. ولا يصيبه إلا من الداخل، هو: نضوب الزيت من مصباحه... وانطفاء جذوته، وانتهاء رسالته!... وهو نفسه لا يعرف ذلك الموعد، ولا يتنبأ بذلك

الحين!... وربما سكت دهراً، فإذا الفتيلة تتوهج بلمعة أخيرة رائعة، قبل أن تخبو طبيعته الفنية، وترقد رقدة الأبد!...

ليس أثقل - في نظري - من أولئك الذين يسألون الفنان: لماذا كفَّ عن إنتاج الآثار القيمة؟... لو أنهم أعطوا قدراً من الفهم والعلم، لأدركوا أن الفنان لا يخلق بإرادتهم ولا بإرادته!... فليسألوا ذلك الجبل الشامخ فوق البحر: بركان "فيزوف" الأشم: متى تضطرم أحشاؤه؟!... ومتى يخرج رأسه النور، وصدره الحمم؟!...

الفنان لا يشيخ

لا أنسى تلك المذكرات التي قرأتها منذ سنوات؛ عن "تولستوي بقلم سكرتيره الذي لازمه في كهولته وشيخوخته!... كان ذلك السكرتير شاباً لم يتخط الثلاثين، وكان حديث عهد بالتخرج في الجامعات، يوم دعي إلى خدمة "تولستوي"!... كتب يصف أول لقاء له بالكاتب العظيم، فقال: إنه ذهب إليه في قريته "ياسنايا بوليانا" حيث مزرعته الواسعة، وهو يرتعد فرقاً من رهبة المقابلة!... ويحسب حساباً لما يقول وما لا يقول، ويرتب الكلام بمقدار، والصمت بمقدار؛ فهو أمام عقل من أكبر عقول "أوربا" في ذلك الوقت!... ومشى متئداً مضطرباً في طريقه إلى البيت الكبير، فرأى رجلاً أشيب الرأس واللحية في ثياب الفلاحين، يجلس تحت شجرة، فسأله عن

"تولستوي"، وأين يكون الساعة؟.. في البيت أو فى الحقل؟... فابتسم له الكهل، وأجلسه إلى جواره، وجعل يلاطفه ويحاوره، حتى أنس له الشاب، واطمأن إليه، فمال الكهل على أذن الشاب هامساً: أنا "تولستوي"!...

وطفق السكرتير الشاب، يسرد بعدئذ مفصلاً في صفحات طوال كيف نشأت بينه وبين "تولستوي" صداقة وألفة، واتفاق واتساق، في كل قول وشعور ـ إلى حدّ، نسي معه الفارق الذي يفصل بينهما: في السن والفكر، والمقام!... وكلما مرت الأيام بهما، تأكد إحساس الشاب بأن "تولستوي" ليس أكبر منه سناً، وأنه مثله في نحو الثلاثين!... شيء واحد يضحكهما معاً، ويبكيهما معاً، ويثير اهتمامهما معاً!...

إلى أن كان يوم، هبط فيه القرية أنجال الكاتب العظيم، جاؤوا من المدينة، ونزلوا ضيوفاً على أبيهم!... وكانوا في سن الشاب السكرتير؛ فإذا شعور مفاجئ يصدمه على الفور!... لكأن أولئك الأنجال هم الكهول؛ وكأن أباهم هو الشاب والخجول!... فقد كان في كلام أولئك الأبناء، وفي حركاتهم وضحكاتهم؛ ـ ذلك الوقار

المتكلف والجد المصنوع، والبعد عن البساطة والطبيعة، مما حمل السكرتير على الصمت رهبة منهم، واكتفى بأن نظر إلى "تولستوي" بعينه وكأنه يقول له: فلنصبر عليهم حتى يرحلوا؛ إنهم أكبر منا سناً!... فيتلقى الجواب نظرة باسمة متواضعة من الكهل، وكأنه يجيبه موافقاً: "أصبت يا صديقي!... ما لنا ولهؤلاء المسنين؟!...".

***

مثل هذا القلب نجده عند "جوته"، فقد بلغ جوته الثمانين، وما شعر بأن قلبه قد شاخ، وإذاً هو يقع في غرام فتاة في الثامنة عشرة، نضرة كالزهرة... وحاول أصدقاؤه عبثاً أن يفهموه الموقف، فما ازداد إلا تشبثاً برغبته في الزواج منها!... إنهم هم الذين لم يفهموه، ولم يدركوا أن هذا الشاعر الشيخ كان له دائماً قلب شاب!... إنه ليدهشني كيف وقف "جوته" ذلك الموقف الصارم من "هايني"!... فقد روى "هايني" أنه يوم كان شاعراً شاباً طلب مقابلة "جوته"، شاعر "ألمانيا" العظيم... فلما أذن له ودخل عليه، وجده صامتاً صارماً؛ كتمثال إله ولم يرض أن يلقي من عليائه

كلمة رقيقة، إلى الشاعر الشاب!... وخرج "هايني" من ذلك المكان الرهيب، يسخط ويقول: "ما جوته هذا سوى معبد أجوف!..." في يقيني أن ما بدا من "جوته" يومئذ، لم يكن سوى الرداء التمثيلي المزركش، الذي يحلو للعبقرية أحياناً أن تدثر فيه دلالها وفخرها!... ولو صبر "هايني" الشاب؛ حتى تتوثق الألفة بينه وبين الشاعر الكبير؛ ـ لرأى العبقرية قد خرجت له عارية من ردائها الرسمي... فإذا في جوفها قلب بسيط طيب صاف فياض بالرحمة نابض بالشباب... ذلك أن الممتازين من الرجال لهم دائماً هذه الصفة:

إنهم يخلقون وبين ضلوعهم قلوب لا تشيخ!...

أدركته حرفة الأدب

كتب "فولتير" إلى شاب، يريد الاشتغال بالشعر والأدب رسالة، يبصره فيها بمتاعب هذه الحرفة ـ جاء فيها هذا القول:

"استعدادك الأدبي قوي، ما من سبيل إلى مقاومته أو إلى الشك فيه؛ فالنحلة يجب أن تفرز شهداً، والدودة يجب أن تنسج حريراً، ومسيو "ريومير" العالم الطبيعي يجب أن يشرحهما، وأنت يجب أن تنشد فيهما شعراً!... ستكون شاعراً وأديباً، لا لأنك تريد هذا، بل لأن الطبيعة أرادته!... ولكنك تخدع نفسك، إذا حسبت راحة البال ستكون من نصيبك؛ فحرفة الأدب ـ وخصوصاً لمن ابتلى بالعبقرية ـ ذات طريق أفعم بالأشواك من طريق الثراء.... فإذا شاء الحظ العاثر أن تكون محدود الموهبة، قليل الحظ من التفوق ـ وهو ما لا أعتقده فيك ـ فأمامك ندم سيلازمك طول

العمر!... وإذا كنت ممتازاً فائزاً، فأمامك خصوم وأعداء سينبتون من حولك!... إنك ستسير على حافة هاوية، بين الحقد والاحتقار!...

قد تسألني: ولماذا أتعرض للحقد؟... ألأني صنعت قصيدة بليغة، أو مسرحية رفيعة، أو كتاباً في التاريخ نفيساً، أو حاولت أن أستنير وأنير الآخرين؟!... نعم، يا صديقي!... من أجل هذا، ولهذا ستجلب على نفسك الشقاء إلى آخر الدهر، ولنفرض أنك أنشأت مؤلفاً رائعاً، فإنك لا بد لك من أن تهجر الراحة التي تعرش على بيتك؛ لتبحث عمن يفحص لك عملك، ويعينك على نشره بين الناس!... فإذا كان ذا أفكار تخالف أفكارك، أو لم يكن صديقاً لأصدقائك، أو كان بالمصادفة في جانب منافسيك وحسادك، فإنك لن تظفر منه بمعونة ولن يكون حالك معه خيراً من حال رجل يبحث عن وظيفة في دوائر المال، وهو متجرد من وساطة النساء!... ولنفرض أنك، بعد عام قضيته - بين رفض ومفاوضة - نجحت آخر الأمر في طبع كتابك، فما الذي سيكون؟... لا مفر لك من أحد أمرين: إما أن تنجح في كم أفواه تلك الكلاب الحارسة لباب الأدب، وإما

أن تجعلها تنبح في جانبك وتروج لبضاعتك!... وفي "فرنسا" ثلاث مجلات أدبية أو أربع، ومثل هذا العدد في "هولندا"... وهي تختلف: في اتجاهاتها، ومواقفها، وتحزبها!... ولأصحاب هذه الصحف مصلحة في أن يجعلوها ساخرة... وللمحررين فيها رغبة في أن يتملقوا طبيعة البخل والخبث، التي فطر عليها الجمهور!...

وأنت تريد أن تقرع لك طبول الشهرة، فلا محيص لك من مداهنة الكتاب، ومصانعة الحماة، وممالأة رجال الدين وأهل العلم، بل أهل التجارة، حتى الباعة الجوالين!... وبرغم كل هذا الحرص منك، فلن يمنع ذلك صحفياً من الصحفيين أن يتناولك بالنهش والتمزيق!...".

ومضى "فولتير"، مسترسلاً في مثل هذا القول، حتى ختم رسالته بقول:

"ما هدفي من كل هذا النصح الطويل؟... أهو صرفك عن طريق الأدب؟ كلا... فليس لي أن أقف في وجه القدر، ولكني أردت فقط أن أحملك على التريث والصبر!..."

***

ليس من الضروري أن يكون الإنسان "فولتير"؛ حتى يصادف مثل هذه المشاهد، من حين إلى حين!... فلقد قال لي شاب ذات يوم:

"الأدب يا سيدي في دمي!... وأنا دائماً تائه النفس، موزع الفكر، هائم الخيال... لا أتحكم في وقتي؛ فهو يتمزق بفترات طويلة من السبحات، والسرحات، والتحليق في الفضاء!..."

ما من شك في أن هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الصحف، التي تصور "الأديب"؛ في تلك الرسوم الكاريكاتورية؛ شخصاً مذهولاً، مخبولاً، لا يعرف الفرق بين رأسه وقدمه!... فيؤخذ هذا الهذر على أنه حقيقة، ويقع في وهم الشباب أن تلك هي علامة الأديب، الذي خلق الأدب في دمه!... ومتى شاع هذا الوهم فيهم، صعب إقناعهم بأن الفكر صحو لا نوم، وأن المفكر هو أشد الناس يقظة: لأنه يجب أن يرى للناس ما لم يروا، وأن يبصرهم بما لم يبصروا، وأن ينبههم ويهديهم: وهو مكتمل العقل متفتق الذهن، متسع الأفق، والحيلة، والمعرفة، والتجاريب!...

لمثل هذا الشاب أقول: عش أولاً إنساناً صحيحاً؛ لتستطيع بعدئذ أن تفكر للناس تفكيراً صحيحاً!...

ثم هنالك سؤال، يجب أن يطرح على مثل هذا الشاب:

ما الذي يغريك بحرفة الأدب أو مهنة الفكر؟...

إذا كان الجواب: بريق الشهرة!... فليعلم أن الشهرة، تصاحب الامتياز في كل مهنة أخرى!... على أن الشهرة في كل مهنة تقترن بها الثروة، إلا شهرة الأديب أو المفكر؛ فالطبيب المشهور، أو المهندس المشهور، أو حتى المطرب، والحاوي، والمهرج، إذا ذاع له صيت؛ ـ جاءهم الصيت بالمال الوافر!... أما المفكر الشهير، فقلما يستطيع أن يجمع من تفكيره مالاً!...

الهدف للأديب، أو العالم، أو الفنان الحق، هو: أن يعيش؛ لينتج ثروة فكرية!... أما الهدف للآخرين فهو: أن ينتجوا؛ ليعيشوا في ثروة مادية!...

يجب أن يكون ذلك مفهوماً لكل شاب، قبل أن يقدم على الانقطاع لهذه الحرفة!... وإن أكثر رجال الأدب، حتى في بلادنا، لم يظفروا بمال يذكر، وحادوا عن طرق جمع الثروة، وقد يسرتها الحرب الأخيرة، لكل من سعى إليها، حتى من الغوغاء والجهال والحمقى... وكرسوا جهودهم للواجب المفروض عليهم. أو الذي فرضوه هم على أنفسهم؛

طمعاً في ماذا؟... لست أدري!... ربما كان الجزاء الحقيقي للمفكر هو لذة التفكير ذاتها!... ولذة الكشف عن تلك الأسرار، التي تزخر بها نفسه ونفس الإنسانية!...

***

إن حقيقة رجل الفكر تتمثل لي في هذه الصورة البسيطة: صورة قاعة، متسعة، معلق بحيطانها عديد من الساعات الدقاقة!... تلك هي الدنيا، وقد تعلق بها جموع الناس!... هكذا تمضي الحياة؛ بناسها فوق حائطها: يسيرون في مجراهم، ويدقون دقات الحظ أو المصير في أوقاتهم، ثم يقفون وقفتهم الأخيرة، وقد سكن محركهم، وانتهى أجلهم!...

ساعة واحدة من بين ساعات الحائط، تركت مكانها من الجدار، وكشفت عنها الغطاء، ولم تحفل بالسير كما يسير غيرها، ولا طربت لرنين الدقات كما طربت البقية؛ بل جعلت همها وشاغلها فحص نفسها من الداخل!... فنثرت التروس، وطرحت الأجراس، وفكت الأجزاء، وحلت المحركات، وطفقت ـ بدافع الفضول، أو بباعث الرغبة في

المعرفة والنور ــ تدرس عمل كل ترس، وجزء، وآلة، وعقرب؛ ـ لتقول ـ بعد ذلك ـ لبقية الساعات المعلقة السائرة في طريقها، مغلقة البصر، محجبة الوجه بغطاء الزجاج:

هل عرفتم من أنتم؟... وما نبضاتكم؟... وما دقات قلوبكم؟... وكيف تسيرون؟!...

الأدب والسعادة

يقال أحياناً: إن مهمة الأدب هي إسعاد الناس، أو معاونتهم على بلوغ السعادة!... ربما كان هذا صحيحاً، لو عرفنا أولاً: ما هي السعادة؟...

أريد أن أتصور هذه الفكرة الخيالية: البشر يضجون على هذه الأرض، ويصيحون طالبين: "السعادة"، وقد انقسموا فريقين؛ فريق يراها في العدالة الاجتماعية، والمساواة الإنسانية، وفريق يراها في الثراء الفردي والإنتاج الواسع!... واشتد الخلاف بين الفريقين، وأيقن كل منهما أن الآخر، هو الذي يحول بينه وبين "السعادة" التي يحلم بها البشر؛ فأخذا يهيئان معدات الحرب، غير حافلين بتدمير الأرض، في سبيل الهدف!...

وعلا صخبهما حتى بلغ السماء، فقالت الملائكة:

سيدمرون الأرض؛ من أجل "السعادة"!...

فنزل عليهم صوت من عليّين:

أعطوهم ما يريدون!...

وعندئـذ حـدثت في الأرض معجـزة؛ فقـد انقلبـت الصحارى جنـات واسعة، جاريـة الأنهـار، دانيـة القطـوف، شهية الثمار!... وزالت الفوارق بين الناس فإذا كل فرد غني ثري، ولم يعد هنالك ظالم ولا مظلوم، ولا سليم ولا سقيم؛ - فالجميع في صحة ورفاهيـة، وسلامة، وعافيـة!... والمستوى الاجتمـاعي والعقلـي، والروحـي؛ - مرتفـع للجميـع: الكـل سـادة، والكـل أحـرار!... إنـه العـالم المثـالي، الـذي كـان ينشده الفلاسفة والحكماء!...

ومرت على الناس لحظة، شملهم فيها العجب والذهول. وجعلـوا ينظـرون إلى حيـاتهم الجديـدة، وكـأنهم لا يصـدقون!... كـل شـيء في متنـاول أيـديهم: الـرزق موفـور، والصحة دائمة، والحريـة قائمـة!... مـا مـن مطلـب إذن يسـعون إليه... وما مـن أمـر يشـكون منـه، إنهـا السـعادة!... نعـم، هـي السعادة!...

وهكذا غرقوا لحظة في سعادتهم، فرحين، مهللين!...

إلى أن استيقظوا ، بعد حين، وهم يقولون:

وبعد؟!..

وكشفت لهم هذه الكلمة فجأة، عن هول مجهول!... فصاحوا في الأرض: وبعد؟... وبعد؟... وبعد؟...

وقعدوا يتأملون حالهم قائلين:

وبعد ، ألا يوجد غد؟... وما قيمة الغد ، إذا لم يحدث فيه شيء؟!...

وما هو الشيء الذي يجب أن يحدث؟... كل شيء قد حدث... الحرية ، الثروة ، الصحة!...

واستولت عليهم هذه الفكرة المروعة فثاروا :

لا يوجد غد ، لا يوجد أمل، لا يوجد كفاح، لا يوجد عمل!...

ومشوا في مسالك الأرض يرددون ذلك القول؛ كأنه نشيد!... وقد أحسوا بعض الراحة الخفية ، وهم يثورون هذه الثورة: لقد وجدوا أخيراً ـ منذ أن ابتلوا "بالسعادة" ـ شيئاً يشكون منه!... لقد عرفوا حلاوة الشكوى مرة أخرى!...

نعم، لقد أدركوا أنهم سجناء!... سجناء سعادتهم!... إنهم خلقوا؛ ليكون لهم غد!... غد يعطيهم شيئاً، هو ثمرة عمل اليوم... غدٌ هو في نظرهم رمز التقدم، ولكنهم لا يتقدمون؛ لأن كل تقدم قد تم ــ أي أن كل شيء قد وقف!... وما دام كل شيء قد وقف؛ فهو إذن الموت!... هم إذن أموات، هادئون في قبور سعادتهم!...

أترى السماء قد أعطتهم "الموت" بدلاً من "السعادة".. أم أن هذه السعادة الكاملة هي نوع من الموت؟...

ولكن الموتى لا يشكون ولا يثورون، وهم قد اكتشفوا في نفوسهم هذا الخيط الضئيل من خيوط الحياة: الشكوى، والثورة!... فهناك إذن أمل!... لكن، إلى من يتجهون بهذه الشكوى؟...

وهنا رفعوا جميعاً رؤوسهم إلى السماء صائحين:

أيتها السماء!... رحمة بنا ولطفاً!... ارفعي عنا هذه السعادة!...

فسمعوا صوتاً يأتي من عليين:

تريدون الفقر؟...

فقالوا جميعاً:

نعم!... لنكدح من أجل الغنى!...

فقال الصوت.

تريدون المرض؟...

فقالوا جميعاً:

نعم!... لنقاوم من أجل الصحة!...

فقال الصوت:

تريدون العبودية؟...

فقالوا جميعاً:

نعم!... لنكافح من أجل الحرية!...

فقال الصوت:

وإذا عدتم إلى الشكوى؟...

فقالوا أجمعين:

سنعود إلى الشكوى؛ لأننا بها نطلب ونأمل ونعمل!... وبالطلب، والأمل، والعمل؛ ـ نسير، ونتقدم، ونتطور!... وبالسير، والتقدم والتطور، ـ يكون لنا أمس، ويوم، وغد!...

وبالأمس، واليوم، والغد؛ ـ نعيش!... نعيش!... نعيش!...

فقال الصوت:

والسعادة؟...

فقالوا جميعهم:

السعادة هي شيء يأتينا من داخل أنفسنا، لا من الخارج!...

فقال الصوت، وهو يخفت، ويرتفع، وينقطع:

لعلكم الآن قد فهمتهم حكمة الخالق!...

***

نعم!... هنا مهمة الأدب!... هي أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق، وروح الوجود!... وإفهام البشر أن السعادة عمل، وكفاح، وتقدم، وتطور!...

الأدب ومصير العالم

عندما نشرت "سليمان الحكيم" عام 1943، لم يكن قد وقع بعد ذلك الحدث العظيم الذي هزّ البشرية، وهو انطلاق تلك القوة الهائلة من الذرة؛ كما انطلق "الجني" من القمقم!... ولم تكن الحرب القائمة الدائمة في أغوار الإنسان، قد أسفرت عن وجهها الحقيقي؟... تلك الحرب: بين غريزة السيطرة والطموح، التي تمتطي "القدرة" الجامحة، وبين الحكمة "العاقلة" التي تريد أن تمسك بأعنّةِ المطية الخطرة!...

اليوم يخيل إلي أني تنبأت بذلك قبل حدوثه، وقصدت في القصة تصور ذلك الصراع الدائر الآن، على مسرح الدنيا، الذي كاد ميزانه يميل بنا إلى الهاوية!... فالجني المنطلق من القمقم، هو المتسلط الساعة على النفوس،

والقـوة عميـاء!... مـا نالهـا أحـد، حتـى انـدفع يـدوس بهـا الآخـرين!.. والقـدرة مغريـة ــ مـا ملكهـا أحـد حتـى بـادر إلى استخدامها ـ فيما ينبغي وما لا ينبغي!...

إن أزمة الإنسانية ـ الآن وفي كل زمان ـ هي أنهـا تتقـدم في وسـائل قدرتهـا، أسـرع ممـا تتقـدم في وسـائل حكمتهـا! إن ـ المخالب في الإنسان الأول ـ قد تطورت إلى أسـلحة حجريـة، ثـم إلى سـيف، ثـم إلى مـدفع، ثـم إلى قنبلـة ذريـة!.. ولكـن وسائل تحكمه في غرائـزه، لم تتطـورْ إلى حدّ يمكنهـا، في كل الأحيان، من كبح جماح القـدرة المطلقـة!.. لـذلك كـان لابد دائمـاً مـن وقـوع كـارثـة، أو حـدوث إخفـاق؛ حتـى يفطـن العـالم آخـر الأمـر إلى ضـرورة الحكمـة!... ولكـن المشـكلة هـي أنـه قلمـا يفطـن، وإن فطـن فقلمـا يسـتطيع الوقـوف في الوقت المناسب!... إن منظـر الإنسـان في هـذا القـرن العشـرين ليدعو إلى العجب!... فالصورة الحقيقية له هـي صورة مخلـوق: له ذكـاء العـالم، وضمير القرصان، وغريزة الحيوان!..

لسـنا نطمـع، طبعـاً ــ وقـد منحنـا هـذا الكيـان الآدمـي بخـيره وشـره ــ في أن نقتـل "الجنّـي" الـذي فينـا ــ بذكائـه، وعبقريتـه، وطموحـه، وسـلطته؛ ــ ولكنـا نأمـل أبـداً في أن

نقيم من نفوسنا الخيرة، سداً يقف في وجه إغرائه كلما طغى، وأراد أن يجمح بنا إلى الهلاك!...

لكن، ما وسيلتنا اليوم في بناء هذا السد؟.. ومن الذي يتولى إقامته وتشييده؟.. أهم رجال السياسة؟.. أم رجال الفكر؟.. أم رجال الدين؟..

ليس رجال السياسة بالطبع!.. فهم، مهما تخلص نياتهم، عاجزون عن التحرر من مطامع دولهم، وهم المتهمون، وهم المخفقون!... أما رجال الدين فخير من يضطلع بهذه المهمة ـ لولا تلك القيود التي تمنعهم من الخوض في كل ميدان!...

بقي رجال الفكر!... ولهم من سعة الأفق، وسمو النزعة الإنسانية، ومن التجرد عن الهوى، ومن الحرية في العمل؛ ـ ما يمكنهم من أداء هذا الواجب العظيم...

فما الذي يقعدهم؟...

لقد قام منذ أعوام قليلة نحو خمسمائة من رجال الفكر والأدب، على رأسهم "أندريه جيد" و"فرانسوا مورياك"، يطلبون إلى هيئة الأمم المتحدة، العمل على إلغاء الحروب؛ باعتبارها وسيلة من وسائل حلّ المشكلات الدولية!...

هذا عمل طيب، وصيحة قيمة من رجال الفكر والأدب هناك!... ولكن مع الأسف!... من الذي سيصغي إليها؟... ومن الذي سيستجيب؟!....

أهم ممثلو تلك الأمم التي اجتمعت؛ كما يجتمع وحوش الغاب، عند تقسيم الفريسة، لا يسمع منها إلا زمجرة من هنا، وتحفز من هناك؟!...

إن إطلاق الصيحات والاحتجاجات، من رجال الفكر، ما عاد يجدي... لم يبق للإنسانية من طريقة سوى إيفاد رجال الفكر أنفسهم، بدلاً من رجال السياسة، إلى حيث يبتون في مصير العالم كله!... يوفدون في هيئة دولية، لها السلطة المطلقة في توجيه هذا العالم.. لا يمثلون في هذه الهيئة مصالح دولهم وحدها؛ بل يمثلون الإنسانية، باعتبارها وحدة لا تتجزأ!...

ولكن من الذي سيوفدهم بهذه الصفة؟!...

هنا المسألة؟...

على أن هذه الصعوبة الكبرى لا يجب أن تدعونا إلى اليأس؛ فهذا حلم لا يمكن أن يتحقق في مستقبل قريب...

حسب رجال الفكر أن يؤدوا واجبهم على قدر ما يستطيعون!... وعلى الأيام أن تنضج ما غرسوه من أفكار!... حبذا لو قام رجال الفكر والأدب في مصر والشرق العربي أيضاً يرسلون إلى هيئة الأمم مثل هذه الصيحة؛ ـ فإن الشرق أولى أن تصدر من مفكريه مثل هذه المشاعر الإنسانية!...

إني لواثق أن تضامن المفكرين المؤمنين، في أنحاء العالم، بهذه الرسالة العليا ـ رسالة الحكمة التي تكبح القوة ـ كفيل على مر الزمن أن يحدث في نفوس البشر فرقعة، ربما استطاعت ـ في يوم من الأيام ـ أن تسكت صوت القنبلة الذرية؛ فإني أومن بأن للأدب والأدباء مهمة كبرى: هي صيانة المصير الإنساني من الدمار؛ كما أن للأدب والأدباء رسالة عظمى؛ هي السير بالعالم إلى مصير أكمل!...

الباب الحادي عشر

الأدب وأجيـــالــــــــــــه

الأجيـال تتماسـك في الأمـم؛ كمـا
تتماسك حلقات السلسلة الفقريـة
في الأجسام...

حلقات الأجيال

الدنيا حلقات!.. كل جيل يجب أن يمد يده إلى الجيل الذي يليه!... إذا تم ذلك في أمة فقد صح كيانها واستقام، شأن الجسم السليم، بسلسلته الفقرية المتماسكة، وإذا لم يتم ذلك فنحن أمام كائن سقيم، انفصلت حلقات وجوده، وانفصم عمود ظهره، ولم يعد يصلح للبقاء!... وإذا كان من واجب القادة أن يرسلوا البصر إلى خمس سنوات أو عشر إلى الأمام، يعدون خلالها برامج الإنتاج؛ فإن من واجبهم أيضاً أن يعدوا الرجال الذين يخلفونهم في مراكز القيادة!... بهذا لن تكف عجلة التقدم عن المسير!...

والإنتاج الفكري؛ ككل إنتاج ـ يجب ألا يشذّ عن هذا المبدأ؛ وعلى المفكرين أن يرسلوا، هم قبل غيرهم ذلك النظر البعيد إلى حياة الفكر في خلال ما يستقبل من

أعوام، وأن يعدوا الأمر؛ ليحتل غيرهم ما احتلوا من مقاعد، وأن يمدوا الطريق أمام المواهب الجديدة؛ لتظهر، وتزهر، وتؤتي ثمراتها!... فإن السؤال الذي يجول دائماً في الخواطر هو: ما الذي سيحدث في العشرة أو العشرين عاماً المقبلة؟... هل الأمل معقود على طائفة من الأدباء، يمكن أن تبرز بنوبتها في الصف الأول؛ لتمضي في رفع مشعل الأدب والفكر في هذا البلد؟ أو أنه كما يقال: ليس في الإمكان أبدع مما كان؟!...

رأيي أن إمكان الإبداع ممتد في كل أوان!... فالإبداع شيء حي متحرك في الزمان والمكان، لا يتعلق بالماضي وحده، ولكنه كالشجرة يمتد ويتطور في مختلف الفصول، يبدل ويغير في أوراقه وفي مظاهر إيناعه وإثماره، ماضيه متصل بحاضره، وحاضره مرتبط بحبل مستقبله!... إن المجهودات تبنى فوق المجهودات، والمواهب تنبع من المواهب، والإبداع يؤدي إلى إبداع... والثمرة تخرج منها الثمرة، وكل هذا في فلك يدور، ولا ينفك عن الدوران إلى آخر الأزمان!...

ونحن ـ إذا جلنا اليوم في حديقة الأدب العربي الحديث ـ وجدنا أشجاراً مملوءة بعصير الحياة، يانعة بأزهار الفن، لا

ينقصها إلا أن ننظر إليها بعين الرضا، وأن نتخيل ما ستكون عليه غداً من سموق وارتفاع؛ فلا شيء يفسد الحديقة ويقفرها ويفقرها؛ مثل أن نرى دائماً أشجارها شجيرات، لن تكون يوماً ضخمة الجذوع وارفة الظلال!... يجب أن نروِّض عيوننا على أن نرى الأشياء والأشخاص في غدها ــ لا في حاضرها وحده، وأن تعرف كيف تقرأ المستقبل. من خلال سطور الحاضر!... إذا استطعنا ذلك؛ فما من شك أننا واجدون في مختلف فروع الأدب أقلاماً، سيكون لها من الصدارة والقيادة في الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة، مثلما كان لأصحاب الصدارة والبروز في العشرة أو العشرين عاماً الماضية!..

فحديقة الشباب تزخر بأزهار طيبة الأريج، لا سبيل هنا إلى تعداد صنوفها وألوانها!... وكل ما أردناه هنا هو أن ندعم الأمل في غدنا الأدبي وأن نتساءل عن واجبنا إزاء هذه النخبة من أعلام الغد ــ أولئك الذين يمسكون بطرف الخيط من وجودنا؛ ليصبحوا غداً امتدادنا ــ وأن نحاسب أنفسنا، نحن الذين تقدمناهم في حلقة الزمن، عما صنعناه من أجلهم وعما يجب أن نصنع بالوارثين لنتائج جهودنا!.. قبل

كل شيء يجب أن نعلم: أهم حقاً في حاجة إلينا؟... وأي نوع من المعونة هم مفتقرون إليه؟ أهو مجرد اهتمام بأعمالهم؟... مامن شك في أن الاهتمام خير نافخ في همة الفنان؛ فإن الفنان لا يصبر طويلاً على الإنتاج لنفسه!... إنه يعمل كي يسمع لعمله صدى... إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس!... أخيراً كانت تحمل تلك النظرات أم شراً. إن الفنان لا يهدمه الذم ولا القدح بل يدعمان وجوده. إنما الذي يهدمه حقاً "الإهمال"!.. كفنه منسوج من العنكبوت، ومدفنه تحت غبار النسيان، ومن خيرة الفنانين من توهم أنه مهمل، فدفن فنه حيا، وانطلق يجد في عمل آخر من أعمال الدنيا، لا صلة له بأدب ولا بفن، فخسره الفن والأدب!...

***

لابد إذن من التنويه بأعمال الفنانين والأدباء، وإشعارهم من حين إلى حين، أن رسالاتهم إلى قلوبنا وعقولنا قد وصلت، وأننا لجهودهم شاكرون، ولمزاياهم عارفون!... ولكن ما هي الطريقة؟... ما من شك في أن علينا نحن أن نصنع شيئاً من أجل الذين جاؤوا بعدنا؟ لطالما اتهمنا بالأثرة

والانصـراف عـن مسـاعدة الآخـرين، وربمـا كـان في هـذا الاتهام بعض الصواب؛ فقد شغلنا عن ذلك زمنـاً... لا عـن أثـرة وحب ذات، بل لتوهم طبيعي أننا نسـتطيع أن نحمّل في الأدب كـل الأعبـاء!... ولعـل هـذا مـن دوافـع العمـل المشـروعة؛ أن نتصـور أنـه لـن يـتم شـيء إلا بأيـدينا نحـن!... فلقـد جاهـدنا كـثيراً، وأنفقنـا أغلـب العمـر في التكـوين والإعـداد، واستكمال الأداة الفنيـة؛ كمـا لـو كنـا نحـن وحدنا المنوط بهم فتح الحصون وبنا القصور!...

ولكن الحياة علمتنا أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر مـن شق طرق ووضع أسس، وعلى غيرنا أن يبني!... شـعورنا اليـوم شعور من يولد له الولد على كبر!.. إنه يفيق فجأة على نظـرة أخرى إلى الأشياء: أنه لن يـرى نفسـه مركـز دنيـاه، المسـؤول وحده عن الرسالة!... ولكنه يرى دنياه حلقات يكمل بعضها الـبعض، ويـرى أن صـغيره لم يولـد عبثـاً، بـل خلـق ليكمـل شيئاً لن يستطيع هو اتمامه، وأن عليـه منـذ اليـوم واجبـاً آخـر غـير مجـرد الإنتـاج ـ عليـه أن يعـين خلفـه علـى الوقـوف علـى قدميه؛ ليحمل "بدوره" رسالته على منكبيه!...

غير أن المشكلة التي تحيرنا دائماً هـي: وسيلة المعونـة!.. أهـي في تجنيب الجيل الجديد أخطاءنـا؟.. أم هـي في إشعاره بأخطائه؟... أهي في إعداده قبل الظهور؟... أم في إظهاره قبل الإعداد؟!.. ثم أولئك الذين قطعوا في فنهم شوطاً، وظهروا بعض الظهور، وبدت مواهبهم متألقة كقطع النور، أعلينا إزاءهـم واجب؟... ما هـو؟... وما السبيل إلى الوفاء بـه؟... إنا جميعاً لعلى استعداد أن نؤدي واجبنا، ولن نحجم عنه أبداً ـ إذا عرفنا الوسائل، وملكنا الأسباب!...

تبعات الأجيال

كل جيل مسؤول عن أفكاره التي قد تتسرب بعلمه، أو بغير علمه إلى نفوس الأجيال الجديدة.. لذلك يحسن تفسير تلك الأفكار من حين إلى حين، حتى لا يساء فهمها!...

من ذلك أني رأيت بعض الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب في طلب العلم، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية... فإذا هم أحياناً، يفكرون ويشعرون شعور "محسن" وتفكيره في كتاب "عصفور من الشرق" يوم ذهب بعد الحرب العالمية الأولى إلى الغرب... فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن "الروح"... وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة: هي روحانية الشرق، وعظمتها ومواضعها،

ومنابعها!... ثم يسيرون خلف "محسن" الآخر في كتاب "عودة الروح" ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي، في "رواسب" الآلاف من السنين الكامنة في ضمير مصر وريفها وأهلها الصادقين!... ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصري، ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته!.. الخ.

من الخير بالطبع، أن ندع هذا الشباب يعيش في مثل هذه المشاعر والأفكار!... لكن من الخير أيضاً أن نقول له: قدِّس ماضيك، من دون أن تذهب في ذلك التقديس إلى الحد الذي يجعلك توصد روحك، دون تلقي كل جديد ينفعك، ولو كان ذرة من أشعة!... اغترف بشجاعة من كل منبع، وخذ من كل ميراث؛ لتثري نفسك، ويتسع أفقك!...

هذا قول من واجبي أن أكرره دائماً!...

فالخطر على غدنا كل الخطر، من ذلك الفهم المحدود لكلمة "طابعنا" ومن تلك الفكرة التي تجعل الشاب يتخذ من روحانيته الشرقية، ورواسب حضارته المصرية سجوناً وحصونا، تعزله عن تفكير العالم، وتمنعه من المساهمة في النشاط الفكري الإنساني العام بقوة وشجاعة، من دون أن يرى بهلع في الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلاناً

تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبيه!... إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطغى عليه حضارة من الحضارات... فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى؟!...

كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح: "قصة مصرية"!... وعنيَ بأن يجري حوادثها في الأحياء الوطنية، ويصبغها صبغاً عنيفاً بالألوان المحلية!... كل ذلك ليقنع نفسه بأنه يصنع فناً قومياً ذا روح مصرية أصيلة...

كل هذا نوع من مركب النقص، أو من الخوف لا مبرر له... إن الروح المصري الأصيل يستطيع أن يطبع أي موضوع يمسه، ولو كان في محيط أجنبي؛ كما استطاع الروح الإسلامي أن يطبع فن العمارة، الذي استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين!... وكما استطاع "شكسبير" أن يطبع بشخصيته الأساطير، التي نقلها عن الإيطاليين، والدانمركيين، والشرقيين!...

بل إن جانباً كبيراً من الآداب الكبرى يتعمد أن يتخذ موضوعه بلاداً وأشخاصاً أجنبية عنه!... وهو ممتلئ الثقة بأن الموضوع الأجنبي، لا يؤثر مقدار شعرة في لون الطابع الشخصي لهذا الأدب!... هذا هو الأدب القوي الواثق بنفسه،

يطبع بخاتمه ما شاء من موضوعات، ويدع علمه يرفرف على ما شاء من بلاد!...

فكرة أخرى تحتاج إلى تفسير: نشرت منذ أعوام في صفحة 105 من كتاب "تحت المصباح الأخضر" هذه السطور:

"... إن سفور المرأة في مصر قد سبق سفور الأديب!... من أجل هذا نرى أن جانباً كبيراً من أدبنا الحديث، ما زال أدباً "حبيساً" تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة!... أدب صناعة، وأدب "علب محفوظة" من التعبيرات المستعارة، والأساليب، والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين!..

أما أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عما في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية. هذا الأدب الخارج من القلب؛ ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة، هذا الأدب العالمي الذي يؤثر في نفس كل أمة، وكل جنس، وكل آدمي؛ لأنه نَبَعَ صافياً خالصاً حاراً من قلب آدمي؛ ـ هذا الأدب حظنا منه قليل، لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل!..." الخ....

***

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيراً... كما رددت الألسن عبارات "الفن والحياة" و"الفن والشعور" و"الفن والصدق" إلخ مما يدل على أن معنى الأدب أخذ يتحول إلى الاتجاه المثمر، في مجتمعنا المعاصر... لكن هل معنى ذلك أن نكفَّ عن النظر في كتب الأقدمين؟

أرى من واجبي أيضاً أن أوضح... لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبي العلاء المعري، وأخرجت كتاب "سقط الزند" فعكفت على مطالعته من جديد!... وخرجت من ذلك أقول: "فن هذا العبقري "رهين المحبسين"... أهو فن هواء طلق وقلب وشعور وحياة؟!... أم هو فن رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة يمتعنا حقاً!... ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا، بقدر ما يثير تفكيرنا، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رؤوسنا، ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة، ولكننا نبلغها بذهننا بعد كدّ وجدّ وغوص؟!"

إذن يجب أن أوضح للشباب كلامي المطلق، الذي نشرته منذ أعوام، وأن أقول لهم: إن الشعور الحار وحده، بما يثيره من انفعال؛ ـ ليس هو كل الفن، ولا هو خير الفن في بعض الأحيان؛ لأن المتعة التي تأتي عن غير غوص، هي في

أكثر الأحوال رخيصة!... وآلام "فرتر" العاطفية أقل رتبة في نظر "جوته" نفسه، وتاريخ الأدب من "فاوست" الذهنية!...

غموض قولي السابق، أتى من أني لم أحدد معنى "القلب"!... القلب في الفن هو الصدق ـ لا الصدق بمعناه الضيق، المقصور على الشعور العاطفي أو الوجداني ـ بل أيضاً صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار!...

على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى "الحياة" في الفن!... ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة... وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة، إلا أن نتمثل فن الزخرفة الإسلامي، الذي لا يصور زهوراً، ولا طيوراً، ولا حيواناً!... ويقوم على تخطيط هندسي!.. فن عريق بديع لا شك فيه، ولكن نسبته إلى الحياة، التي تعرفها تحتاج إلى مشقة في التخريج!... هذا التجريد الذهني؛ في الزخرف الإسلامي، يماثله التجريد الذهني؛ في الفن المصري القديم، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم!... لقد كان همه أن يحي الفكرة في الحجر ـ لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق...

مهمـا يكـن مـن أمـر تفضـيلنا هـذا النـوع أو ذاك. فـإن اخـتلاف العقليـات والاتجاهـات والأنـواع في الأدب والفـن، يحملنـا علـى أن نوسـع معنـى "الحيـاة" حتـى تشـمل كـل هـذه الألوان من الآداب والفنون...

لابد أن تكون "الحياة" في الفن ليست بعض مـا يقـع في العـالم الخـارجي، ويضـطرب فيـه الإنسـان بحسـه ومشـاعره فقط ـ بل أيضاً كل ما يقع في العـالم الـداخلي، ويسـتخرجه الإنسـان بفكـره، وذهنـه، وتأملاتـه!... إن الحيـاة في الأدب والفن هي الحيـاة كلـها ـ الحيـاة الكاملـة، بمعناهـا الواسـع العميق ـ تلك "الحياة" التي تسكن في كـل جـزء مـن أجـزاء الإنسان الحي في قلبه، وفي غريزته، وفي حسه وفي رأسه!...

***

ذلك بعض من تلك الأفكار التي تركناهـا، تسـعى مـن جحور الكتب إلى وعي الشباب دون انتبـاه!... حبـذا لـو عـدنا مـن حـين إلى حـين؛ بأيـدينا أو بأيـدي غيرنـا مـن النقـاد والباحثين، نـراجع مـا نشـرنا، ونسـترجع مـا أصـدرنا، لنعيـد مفسـراً مجـدداً؛ كمـا تفعـل المصـارف المالية عنـدما تسـترجع مـن أيـدي النـاس أوراق العملـة القديمـة لتردهـا في حلـة جديدة!...

انفصال الأجيال

العلاقة بين الأجيال ظاهرة طبيعية، تسترعي دائماً النظر، وتستوجب الدراسة والبحث، ولكنها في "مصر" قد اتخذت من الصور ما يثير العجب، ويحير الفكر؛ فلقد شاهدت بنفسي صورتين متناقضتين كل التناقض ـ أما الصورة الأولى فهي التي عاش في إطارها جيلنا، والأجيال التي سبقته، ولا حاجة بي أن أصفها بالقول!... يكفي أن أورد واقعة واحدة، فيها كل الدلالة والمغزى:

سمعت المرحوم والدي، يتحدث عن أبيه باحترام عميق في كل مقام، وكان أبوه ممن تعلموا في الأزهر، ثم أقاموا بعدئذ في الريف، يزرعون ما يملكون من أطيان!... وكان والدي قد أوغل في الحلقة الرابعة ورقي إلى منصب القضاء... وطفق أبوه في ذلك الحين يتصرف في أطيانه بالرهن والبيع،

ثم يعود إلى الشراء والاقتناء ثم يقترض، ويتعهد، ويتعاقد!... فقال بعض أصدقائه:

هذه تصرفات قانونية، وابنك قاض من خيرة القضاة، ألم تستشره؟... فما كان من الأب إلا أن صاح: ابني؟! أستشير العيال؟...

ولم يكن والدي يجد غضاضة في ذلك القول... وكان يتلقاه بابتسامة التسامح، وشعور التوقير، ولو أنه في دخيلة نفسه ما أراه اعتقد أن أباه كان على صواب!... إني ما سمعت منه قط نقداً لأبيه فقد كان ينحني على يده يقبلها أينما التقى به!... وكان يلتمس له المعاذير. غير أني، على قدر ما تسعفني ذاكرتي، قد خيل إلي وقتئذ، أن والدي كانت له نظرة أخرى، في الصلة التي يجب أن تقوم بين الآباء والأبناء، ولكن حدث بعدئذ ما جعلني أضرب كفّاً بكفّ من الدهشة والعجب: فقد صرت ـ أنا بدوري ـ في الحلقة الرابعة وانخرطت في سلك القضاء، وشاهدت المرحوم والدي يتصرف بالرهن تلو الرهن، في بيت كنا نعتز به، ويقابل أمامي كل من هبّ ودبّ من السماسرة والمرابين، يسرُّ إليهم الحديث ويهمس لهم في الآذان، ولا يخطر بباله

قط أن يكشف لي عن جلية الأمر، وبواعث التصرف، أو يسألني، رأي المتواضع، فيما هو مقبل عليه، وأنا الذي أحقّق كل يوم في تصرفات الناس، وأفحص وأزن ما لهم وما عليهم من حجج وبينات، وأتحمل في أرواحهم، وحرياتهم، وأموالهم؛ ـ أخاطر التبعات!...

ومع ذلك، قامت في نفسي ثورة، وما ارتفع لي في حضرته صوت، وما كنت ألقاه وأنا في ذروة العمر إلا بتقبيل يده والإصغاء إلى نصائحه.

***

تلك صورة طواها الزمن ـ فيما أعتقد ـ ونشر صورة أخرى لجيل جديد، يرى الأمور على وضع آخر؛ فهو يصر على أن يكون له رأي في محيط البيت والمدرسة والمجتمع!... وقد جاء هذا الجيل في ظروف عالمية تبرر الانقلابات، وفي ظروف قومية تنادي بالحرية، واجداً من الجيل السابق الذي يحتضنه مؤازراً لنزعته ومشجعاً، لأن هذا الجيل السابق لم يكن إلا جيل الثورة المصرية!... على أبنائنا، وقد ظفروا بحق إبداء الرأي في كل شيء، لم يقفوا عند هذا الحد،

فما من شاب يقبل منك الآن نصحا أو يلقاك اليوم، فتأنس منه توقيراً لسنك؛ أو احتراماً لجيلك!.. إنه يخاطبك مخاطبة القرين للقرين، مهما يكن الفارق بينكما في المكانة والسن، وما من شاب يقنع اليوم بأن يكون له في شؤون أسرته رأي، وفي مذاهب السياسة رأي، وفي برامج دراسته رأي، وفي أساتذته رأي!... إن مجرد إبداء الرأي أصبح لا يكفيه!...

جموح الشباب، وبلبلة الأفكار، وزلزلة القيم، وهزات الأحداث العالمية، وسرعة التطورات الاجتماعية؛ ـ كل هذا جعل الجيل الحديث يشبّ على عدم احترام القديم الثابت المستقر، من النظم والأفكار والقيم والأشخاص!... وبانهيار هذا الجدار انطلق الشباب يهيم في كل واد؛ بلا ضابط ولا رابط!... وتولدت عنه بذلك عقيدة راسخة هي أنه ليس في البلاد رأي غير رأيه هو الذي تستقيم به الأمور...

وأن من حقه أن يفرض هذا الرأي فرضاً على آبائه وأساتذته وقادته، لو استطاع إلى ذلك سبيلاً!...

***

في الصورتين إذن انفصال بين الأجيال!... في الماضي كان آباؤنا يفرضون علينا إرادتهم، وفي الحاضر، نرى أبناءنا يريدون فرض إرادتهم علينا!... أترانا نحن الجيل الذي بلا إرادة... أعطيناها لآبائنا تبجيلاً، ولأبنائنا تشجيعاً!؟...

تصادم الأجيال

كلما حدث في مجتمع انفصال بين الأجيال، رأى كلُّ جيل أن هذا المجتمع غريب عليه، وأنه بريء منه، لا يدري كيف جاء، ولا كيف تكون، ولا يعرف من المسؤول عنه؟...

جاءتني رسالتان تصوران هذه النظرة إلى المجتمع! الأولى؛ تمثل رأي الجيل السابق هذا نصها:

"إن جيلنا كان له من الملاهي "كازينو دى باري" وفتيات "أوركسترا كافيه إجبسيان" للطبقة المتفرنجة. وقهوتان للرقص والغناء في "وجه البركة"... أما اليوم فقد أصبح من مستلزمات الطبقة المتوسطة وجود "البار" الأمريكاني في المساكن الخاصة... وأصبح من حق جاري أن يثير أعصابي بميكرفون... وأصبح المخنثون يمشون متشابكين خمسة خمسة على الأفاريز!... وأصبحت الأوضاع

مقلوبة!... القانون يهاب الإجرام، والأب يخشى ثورة الابن، الذي رضع من ثدي الحرية الفاجرة!... أما في غير مصر فإن القانون الرقيب على المجتمع، قد أجبر يوماً ممثلة مصرية كبيرة، كانت تضع ساقاً على ساق في الترام "جنوا" أن تنزل ساقها فثارت واعتبرت هذا الإجبار اعتداء على الحرية، ولكنها اضطرت آخر الأمر أن تلتزم حدود المجتمع الذي تعيش فيه، فأنزلت ساقها على مضض..."

أما الجيل الجديد فتمثله رسالة هذا نصها:

إنني - كأحد أبناء الجيل الجديد - أقول إنه جيل يريد أن يصل إلى إدراك معنى الحياة، وإلى بلوغ أقصى ما يمكن: من المعرفة، والتقدم، والرقي!... على الرغم مما يرى في تصرفاته من تهور واندفاع، لا يقفهما عقل، ولا يحدّ منهما إدراك، حتى صار الناس يوجسون خيفة من أعماله، ويرون فيها خطراً عليه وعلى المجتمع!... وما من شك أن للجيل الجديد أخطاء، ولكن على من تقع التبعة؟... أليس المسؤول هو الجيل الذي سبقنا؟... إنه لم يعرف كيف يقود الجيل الجديد إلى الشاطئ الأمين!... لقد أخافه وأرهبه هذا التطور في التفكير الإنساني، فترك له الحبل على الغارب!...

أهو قد حار بين أن يقدم معه، أو يحجم عن مجاراته!... ومن هنا ظهر تردده، وضعفه وتخاذله!... أو أنه قد تجاهل، أو تغافل عما تطورت إليه الحياة العامة؛ فأراد أن يعود به القهقرى ـ وكانت النتيجة في كل الأحوال أن عصى؛ لأن الحياة التي نعيشها في هذا العالم الحاضر لا تسمح لحيّ أن يمشي إلى وراء، وإلا داسته العجلات السائرة في موكب الحضارة!... إنما الخلاف هو في اختلاف طبيعة الجيلين: أحدهما يريد التقدم، والآخر يريد القفز!... وليس هذا بجديد!... هكذا كان الآباء والأبناء في كل زمان ومكان، ولكن الجديد في عصرنا الحاضر ــ عصر الثورات والانقلابات ـ هو أن الخلاف في الطبيعة والنظرة قد انقلب هو الآخر إلى ثورة؛ ثورة اتخذ لها شتى المظاهر: في البيت، والمدرسة، والعمل، والمجتمع!... ولم يعد من السهل أن نفرّق في دخانها بين حدود النظام والحرية، والحقّ والواجب!... وبهذا اختلطت الأقدار، وضاعت معالم القيم، وفسدت العلاقة بين الأجيال، وانفصلت حلقاتها!... وانعدم التعاون بينها، وانتهى الأمر إلى ما نرى، من وقوف كل جيل موقف المرتاب من الجيل الآخر!...

كل الأزمة إذن هي في هذا الانفصال بين الأجيال!... خرج البنون على آبائهم، وخرج التابعون على قادتهم!...

في النظرتين إذن إنكار لحالة المجتمع، واعتراف بأنه قائم على فساد!... وليس المهم إلقاء التبعات، وقذف الاتهامات، إنما المهم هو البحث في العلة وعلاج الداء!...

وما من شك في أن الأفكار تتطور اليوم بسرعة ظاهرة، والحياة تتجدد، والمجتمع يتابع كل ذلك على الرغم منه؛ كورقة فوق تيار جار!... وما أظن كثيرين من الجيل السابق يخطر لهم أن يوقفوا عجلة الزمان، أو يرجعوا عقارب الساعات إلى الوراء؛ فهم متهمون أحياناً بأنهم قد جرفوا في التيار جرفاً، بدون أن ينظموا له الجسور والسدود؛ فالتجديد الشامل في نواحي المجتمع، لم يتم شيء منه في واقع الأمر إلا: بإيحاء، أو رضى، أو تساهل من الجيل السابق!... ولكن الجيل الجديد يعيش في عصر التغيرات الخاطفة، والتطورات السريعة، والاختراعات المفاجئة، فأصبح لذلك أقل من الجيل الذي سبقه صبراً وجلداً، وأقوى منه رغبة في كل تغيير، وأعنف منه ثورة على كل ثابت مستقر!...

ليس الخلاف بين الجيلين، في الحقيقة، على مبدأ التطور والتجديد؛ فالكل مسلِّمٌ بضرورة الانحناء لدواعي التجديد والتطور، ولكن الخلاف الحقيقي في ذلك التصادم - في ضياع الاحترام والثقة - في السير، لا بروح التعاون، بل بروح التحدي!...

تجاهل الأجيال

إن انقطاع العلة بين الأجيال يحدث أيضاً من ذلك الجهل بطبيعة كل جيل، أو التجاهل لما تتطلبه تلك الطبيعة!... وها هي ذي رسالة، تصور هذا الجهل، أو التجاهل بين جيلين:

"... يمنعني والدي من قراءة المجلات والجرائد، على اختلاف أنواعها، ولا يقبل مناقشة في فائدة القراءة والاطلاع، وكلما أبصر في يدي مجلة مزقها!... وهو ينهاني عن مصادقة أي شاب، حتى إن كان مثقفاً، وهو يرتاب في حركاتي وسكناتي، ويخاف عليَّ!... وهو يريدني أن أعيش كعابد في صومعة؛ لا يراني الناس، ولا أراهم!... إني مشغوف بالقراءة، فماذا أصنع لأرضي هويتي، وأرضي في عين الوقت والدي، الذي أكن له كل احترام؟...

هذا والد يريد أن يربي ولده؛ كما يربي ذلك النوع من الزهر في بيوت الزجاج!... وأنا لست من علماء التربية؛ للبشر، أو للزهر، حتى أبتَّ في هذا الأمر. ولكني أعتقد أن كل كائن إنساني أو نباتي لا يتعرض للشمس، والهواء، والريح؛ والغبار؛ ـ ينشأ رقيق التكوين؛ ضعيف البنيان، يحتاج إلى دثار من العناية؛ ليحيا، وإلى جدران من الحيطة؛ ليعيش، ويكفي أن تحدث المصادفة في تلك الدروع ثغرة ذات يوم؛ لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى!... كلا أيها الولد الخائف!... ليس هذا هو السبيل، حطِّمْ بيت الزجاج، وأخرج زهرتك، واعرضْها برفق للشمس والهواء!... دع ولدك يقرأ، ودعه يصادق، ودعه يعش ربيعه!...

لا تخش لون القراءة الذي يشغف به ابنك، في هذه السن المبكرة. إن الطبيعة أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تغرس الميول في النفوس، وتلونها على حسب الأسنان والأعمار؛ كما تلون أوراق الأشجار!...

ففي الشباب يورق الخيال، والشعور والعاطفة!... وفي الكهولة يورق العقل، والحكمة، والتجاريب!.... ومن الخطأ أن يتحدى والد الطبيعة، وأن يتغلب بغرسه على

غرسها. وأن يطلب في ربيع العمر شجراً قاتم الجذع. صلب العود، تحت عصف الريح!... ولكنها فيما يظهر قصة كل والد: إنه يحكم على ولده بمزاجه، ويقيس درجة حرارته "بترمو متره" وكأنه لا يستطيع له فهماً ـ كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع؛ فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر، فوق الغصون اللينة المخضرة، ويهزأ من طيره الصادح، ومن ليله المقمر، ومن نسيمه المعطر، ومن كل تلك الرِّقة التي يملأ بها الدنيا ـ ذلك الفصل الرقيق!... إنها في نظر الشتاء الصارم ضعف؛ لأنه فصل العنف، تصطرع فيه العناصر، وتتعارك القوى، إنه الحياة في كفاحها الأكبر!...

أنا أيضاً وقفت هذا الموقف من والدي ـ رحمه الله ـ وأنا في الثانية عشرة من عمري!... كنت أرهب أيام الجمع؛ لأنها الأيام التي يفرغ فيها لي، يناقشني فيما أقرأ، وكان يتخير لي هو نوع الكتب، التي يجب في عرفه أن أقرأها!... وكان أخفَّها وطأة كتاب يحوي "المعلقات السبع" ضربت بسببه أوجع الضرب؛ فقد كان والدي لا يكتفي مني بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد مني أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلي في تلك السن!... وكنت إذا عجزت عجب لجهلي

وحمقــي، ثــم استشــاط غيظــاً مــني ــ مــدفوعاً، ولا ريــب، بالخشــية علــى مســتقبلي الضــائع ــ وإذا يــده تتنــاول وجهــي بالصفع الثقيل، فلا تتركني حتى يسيل الدم من أنفي، وهـو يصيح بي:

يا جاهل!... يا غبي!... أيوجد أسهل من هذا البيت لـزهير بن أبي سلمى!... هذا السهل الممتع يا أحمق!...

ومـن لم يصــانِعْ في أمـورٍ كـثيرةٍ

يُضَـرَّسْ بأنيـابٍ ويوطـأ بمنسـم

ثم يهز رأسه إعجاباً بالحكمة التي ينطوي عليها هـذا الشـعر! حقـاً هـذا شـعر خليق أن يقـدره والـدي الـذي حنكـه الدهر، وعرف من تجاربيه حقيقة كل كلمة في هـذا البيت ولكن الذي يدهشني الآن هو: كيف غاب عن والدي وقتئذ أن مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذهـن غـلام في الثانية عشرة؟!...

أتـرى كـان المقصـود أن أشـرح البيـت شـرحاً محفوظـاً؛ كمـا ألقيـه إلقـاء محفوظـاً؟!.. ومـا قيمـة ذلـك؟... إن هـذا لا يرفعني عن الببغاء إلا مرتبة بسيطة!... ولكن المقصود ـ فيما

أعتقد ـ أن يشرح الإنسان المعاني شرحاً محسوساً؛ بكل شعوره، وكل إدراكه، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر!... في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إليّ غلام، أو شاب، أن يفسِّر إلا ما تستطيع تجاريب سنِّهِ أن تلمَّ به من مدارك وإحساسات!...

من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب على نفسه وعلى غيره؛ بتلقينه تفسيرات "موضوعة" لأشياء لا تدركها سنّه!...

لهذا أيضاً يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبي أو الشاب من قراءة ما يناسب سنه من ألوان القراءات!...

ولا تقلق أيها الوالد، ولا تظن ابنك ـ وهو اليوم غارق في هذه المطالعات التافهة اليسيرة ـ سائراً منساقاً في تيارها إلى آخر العمر!... إن تيار الحياة هو الذي يغيّر لون المطالعات، وأنت نفسك، أيها الوالد، الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد، أو تعني بالتاريخ، أو بالأدب الرفيع، أو بعلم النفس، أو بعلم الرياضة؛ كنت في صباك مشغوفاً بقصص "روكامبول" أو "أبي زيد الهلالي"!... ولكنك لا تذكر ذلك العهد؛ كأغلب الآباء!... ويخيل إليك

أنـك لم تقـرأ قصـة قـط، لأن تيـار حياتـك اليـوم دفعـك في مجـرى بعيـد عـن حيـاة الخيـال، وبـدا لـك عقلـك؛ وكـأنـه لم يعد يطيق هضم القصص!...

أيها الوالد!... اتركْ ولدك لسنِّهِ!... وافهم طبيعة جيله!...

حرمان الأبناء

كم سعدنا في طفولتنا الجميلة بشهر "رمضان" وكم شقينا أيضاً!... من ذا الذي لا يذكر خفقة قلبه الصغير، في صباه، وهو أمام حانوت "السمكري"، يقلب أنظاره الشائعة، وأبصاره الرائعة، في مختلف "الفوانيس" بزجاجها ذي الألوان؟... ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر، الأخضر، الأحمر، المعلّق في القمة!... ولكن ثمنه ولاشك باهظ!... ترى هل يرضى الأهل ببذل هذه التضحية من أجله؟... إنه على كل حال لن يكلفهم شططاً ولكنه سيفعم قلبه بسرور، لن يقدِّرَ الكبار مداه أبداً!... ما أقسى الكبار أحياناً!... إنهم قد يضنّون ببضعة دراهم لن تغنيهم، هي الفرق بين لعبة ولعبة!... ولكنها ــ في الواقع ــ هي الفرق بين سعادة وسعادة!... ما أشد نسيان الكبار!... لقد كانوا كلهم

صغاراً في يوم من الأيام!... لماذا لا يذكرون ذلك العالم السحري العجيب، الذي تتفتح للأطفال أبوابه الذهبية فجأة، كلما أرادوا الحصول على شيء من تلك الأشياء التي يحلمون بها!... عالم من هناء سماوي، لن يتاح لأحدٍ غيرهم أن يعيش فيه بهذا الثمن الزهيد بعد أن يجاوز أعمارهم!... لو تذكر الكبار ذلك العالم الذي أغلقت دونهم أبوابه بخروجهم من طور الطفولة لما ضنّوا على أولادهم بشيء!... فهم الآن وفي أيديهم القدرة، وفي جيوبهم المال، لن يستطيعوا فتح كوة في ذلك العالم مهما يشتروها بثروة الدهر وذخر العمر!.. ما أعجب تلك المعجزة التي يسمونها الطفولة!...

فيها تستطيع أن تدخل الفردوس ـ الذي لن تدخله بعد ذلك أبداً ـ بقروش معدودات!... سل كل صاحب ملايين في أمة من الأمم: هل في مقدورك أن تشتري اليوم بملايينك لحظة سعادة؛ كتلك التي كنت تشتريها في صباك بدرهم أو درهمين؟!.

أرأيتم يا ملوك المال؟.. تلك ملايينكم قد تضاءلت أمام ثروة طفل!... وذلك ذهبكم قد تحول إلى تراب أمام كنوز الطفولة!...

هنالك مع ذلك مشكلة تحتاج إلى تفكر وتدبر:

إذا كانت لك القدرة على إشباع رغبات طفلك، وتحقيق أحلامه، فهل تفعل أو تتمهل؟... هل من مصلحة الطفل أن تروي كل رغبته، أو أن تبقي فيه بعض ظمأ لم ينطفئ؟..

أقول ذلك لأني لم أظفر في طفولتي بكل ما كنت أتوق إليه من لعب، وأصبو إليه من أشياء... فكنت أخلقها لنفسي بنفسي، بخيال مشبوب، وكان من أقراني وجيراني من يملك لعباً نفيسة عجيبة تملأ حجرته، وتملؤني دهشة، أقف بينها مشدوهاً، وأحملق فيها معجباً، وألمسها مكبراً!... وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطماً ومحقراً.. كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه: وأرى فيها أشياء باهرة، لا تراها عيناه؛ وكأنّ كلَّ لولب فيها، أو لغز، أو مفتاح؛ يحرك كلَّ مخيلتي، ويهّز كل واعيتي!... كل ذلك؛ لأني لا أملكها، ولا أستطيع أن أحصل عليها!...

ترى، يا علماء التربية، ما الواجب أن يُتَّبَعَ في تنشئة الطفل؟؟؟... تلبية ندائه أو صم الأذن أحياناً عن مطالبه؟... منحه لذة الامتلاك، أو تعريفه بمرارة الحرمان؟... إذا جاء

"رمضان"، وتطلع الطفل إلى الفانوس المزركش المبرقش في قمة الدكان؛ فهل تترك خياله معلقاً به، وأحلامه تهتز معه، وتبتاع له الفانوس الآخر، أو تأتي له بالأول؛ - تضيء زجاجه وشمعته، وتطفئ خيال الطفل ولوعته؟!...

صنع الأجيال

يؤكد عالم "بيولوجي" أمريكي أنه ـ في خلال خمسة أعوام ـ سيصبح في مقدور كل زوجين أن يختارا نوع المولود الذي يريدانه... فمن شاء مولوداً ذكراً جاء له ذكر، ومن شاء الأنثى جاءت له الأنثى!..

إن العلم يريد أن يضع في يد الإنسان مفتاحاً رهيباً، من مفاتيح الطبيعة الحكيمة!... العلم!... هذا النهم الذي يسكن رأس الإنسان، ويدفعه إلى نيل مالا ينبغي له أن ينال!... لكأني بالطبيعة ـ هذه الأم الرحيمة، وقد لمحت يد طفلها الإنسان، تمتد خلسة إلى وسائدها؛ لتجذب من تحتها المفتاح، تهبّ قائلة لنفسها مرتابة قلقة:

أيها الأحمق!... تريد أن تصرِّف كل أمورك بيدك؟.. أخشى ألا تكون على ذلك قديراً، ولا به جديراً!... إني أدبر

لـك شـأنك، متحللـة مـن كـل نزواتـك، مرتفعـة عـن كـل صغائرك... أرى مصيرك لا في نطاقه الفردي المحدود، بل في علاقتـه بمصـاير غيرك مـن الأحيـاء!... إنـك سـتندم علـى هـذا الترف يوماً!...

وكأني بالإنسان يقول للطبيعة بلسان العلم:

لم أعد طفلاً، ما دمت قد عثرت على مفتاحك، فإني أهل لأخذه واستخدامه!... فتهمس الطبيعة:

كـل الأطفـال يقولـون ذلـك!... ويمضـون بالمفـاتيح إلى الخـزائن الممنوعـة، بحثاً عـن الحلوى، أو المتعـة فيبعثـرون مـا فيهـا، ويلقـون الاضـطراب في نظامهـا!... افعـل مـا شـئت، وسنرى منك ما يكون!...

ولـن يكـون غـير أمـر واحـد: مـا إن يعلـم النـاس أن في الإمكـان اختيـار نـوع الولـد، بـدون أن يتكلفـوا أكثـر مـن جرعة دواء، بقليل من المال، حتى يندفعوا كلهم أفواجاً إلى الصيدليات، يطلبون الدواء الذي ينجب لهم المولود الذكر!... فما يمضي جيل حتى نرى الدنيا قد زخرت بالذكور!...

وتظهـر عنـد ذاك مشـكلة عالميـة: هـي البحـث عـن الأنثى!..

وقد تقع المعارك والحروب بين الرجال من أجل المرأة؛ كما وقعت حروب "طروادة" من أجل "هيلينا"...

عندئذ تنقلب الكفة فجأة، ويندفع الناس من جديد إلى مخازن الأدوية، يطلبون الدواء الآخر، الذي ينجب الإناث!... فلا يمضي جيل، حتى نرى الدنيا قد زخرت بالنساء!...

وتظهر مشكلة البحث عن الرجل؛ ـ فيعود الاندفاع إلى المخازن والصيدليات طلباً له. وهكذا دواليك ـ حتى يحدث نوع من التوازن بعد أجيال...

ذلك أن هذا الطفل الإنساني الكبير غير قدير على أن يقر التوازن في شؤونه إلا بثمن باهظ من الجهد، وبعد زمن طويل ينقضي في الاضطراب بين النقائض، والترنح بين الأضداد!...

***

هذا فرض قائم على حسن الظن بالإنسان، وعلى أنه يستطيع بنفسه ــ آخر الأمر ــ أن يسيطر على نزعاته ونزواته... وأنه في إمكانه أن يحل محل "الطبيعة" في تنظيم ملكاته... ولكن هنالك فرضاً آخر يقوم على عجزه

وإخفاقه!... هنا لا نرى مناصاً من تدخل "الطبيعة"!... هذه الأمر اليقظة الصابرة، لا يمكن أن يبلغ بها التغاضي، والتسامح حد الإهمال!... فهي ما تكاد تلمح العبث من طفلها، قد انتهى إلى الحد الذي يفسد النواميس، حتى تنهض مسرعة إليه، تمسك زمام الأمر بيديها، لتقر النظام في نصابه بطرائقها، وتعيد التوازن إلى حاله بأساليبها!...

فإذا كان عدد الذكور قد طغى طغياناً لا سبيل إلى كسر شوكته، أيقظت "الطبيعة" الفتن، وأقامت الحروب؛ فحصدت بنيرانها ما لابد أن يحصد من هذا المحصول الفائض!...

وإذا كان تعداد الإناث هو الغالب، أشاعت الإباحية، والأوبئة، والثورات الاجتماعية؛ فأخمدت بموجاتها ما لابد أن يخمد من هذا الفوران الزائد!...

وعند ذلك يتم لها النصر، وتقنع من الإنسان بهذا الدرس... فلا تزيد منه إلا أن يشعر بغروره، ويعترف بنزقه، ويسمع همسها وهي تحنو عليه باسمة، غافرة، مشفقة:

أشبعت لعباً؟!... ألا يحسن بك الآن يا بني أن تدعني أتولى أمرك؟!...

أجيال الطبيعة

يقول المفكر الصيني "يوتانج": إن من الناس من يرفض أن ينتج ذرية!... فهل تستطيع الأشجار أو الأزهار أن ترفض إنتاج البذور، التي تكفل استمرار البقاء لنوعها؟.. إن مشكلة العصر الحاضر هي أن كثيراً من الناس لا يتزوجون، وأن كثيراً ممن تزوجوا يرفضون إنتاج الذرية لأسباب شتى: كارتفاع مستوى المعيشة، وازدياد تكاليف الحياة، ومشقة الكدح في سبيل الرزق!... لكن ما من سبب من الأسباب، ينبغي - في نظره - أن يحول دون قيام البشرية بواجبها الطبيعي، الذي تقوم به الشجرة والزهرة!...

هذا قول حق!... لكن هنالك فارقاً في رأيي بين الشجرة أو الزهرة، وبين الإنسان!... إن الشجرة لا تفكر في معارضة القوانين الطبيعية... إنها لا تنسى أبداً أنّها جزء من الطبيعة

ذاتها، وأنها عندما تنتج البذور تترك للحياة مهمة فرز الصالح من الطالح، ولا تتعجل النتائج، وتدع للزمن حرية العمل، ينضج من الأنواع ما ينضج، ويميت منها ما يميت، ويضحي بمئات الآلاف، أو آلاف الملايين، ليخرج فصيلة ممتازة رائعة كاملة بعد حين!...

أما الإنسان فأمره مختلف... إنه حيوان يفكر أو نبات يعقل... وعمل العقل والتفكير هو استخراج مبادئ واستنباط قوانين... وهذه القوانين والمبادئ كثيراً ما تعارض قوانين الطبيعة... ذلك أن الإنسان العاقل يضع مبادئه في نطاق زمنه المحدود... ولكن الطبيعة تضع مبادئها في نطاق زمنها غير المحدود... من هنا ينبع سوء التفاهم بين الطبيعة والإنسان في أغلب الأحيان؛ فأكثر الذين لا يتزوجون قد اتخذوا هذا القرار، بناء على مبدأ من مبادئ العقل، الذي يزين لهم الحرية الفردية، ويجعلها في صورة مغرية من صور السعادة الإنسانية!... هذا الرجل الفرد المحلق كالعصفور - بغير عش في كل الأجواء ــ لا يخشى الغد، ويتحدى الأنواء!... ما أسعده في وحدته، وراحة باله، وعدم مسؤوليته، ويظل هذا الرجل في الحياة يصفق بجناحيه لا يظل بهما أحداً... إلى أن يموت برداً؛ بغير عش. أو يمضي راضياً؛ بغير ندم!...

وهكذا ينتصر العقل على الطبيعة!.. وإما أن يشعر العصفور أن التحليق في الهواء لا يمنحه الحرية بل يمنحه التيهان، وأن سعادته ليس في نشر الجناح على الهواء بل على بيت وقرين!.. عندئذ تنتصر الطبيعة على العقل، ويتزوج الرجل غير أن العقل لا يتركه وشأنه بل يعود إليه ليضع له المبادئ، ويسنَّ له القوانين، ويقول له: "إيرادك صغير؛ فلا تنجب، أو أنجب طفلاً!.. أو إيرادك متوسط؛ فأنجب طفلين!... ويصغي الرجل إلى قوانين عقله؛ ولا يصغي إلى قوانين الطبيعة!...

قانون عقله يريد وصل الإيراد بالذرية، وقانون الطبيعة لا يرى صلة بين الإيراد وبين الذرية... العقل الإنساني المحدود يريد أن يحبس نتائج النسل الآدمي في نطاق الزمن الآدمي القصير؛ وفي حدود التكاليف المالية والمعاشية!...

وعقل الطبيعة - غير المحدود - لا ينتظر نتائج هذا النسل إلا بعد أجيال، تتعاقب فيها الدول، وتتغير النظم!...

وهنا السر في أن الإنسان الفطري، ينتج من الذرية كثيراً!... والإنسان المتعلم ينتج منها قليلاً!... ذلك أن الإنسان الفطري أكثر مقاومة لعقله واندماجاً في الطبيعة وخضوعاً

لقوانينها، ولكن الإنسان المتعلم أكثر مقاومة للطبيعة وخضوعاً لعقله!...

الإنسان الفطري هو وحده الذي ينطبق عليه قول المفكر الصيني!... وهو وحده الذي مثله مثل الشجرة والزهرة، ينتج وينسل بلا تفكير، وعلى الطبيعة أن تفرز إنتاجه الصالح من الطالح، وتبقي القويَّ وتميت الضعيف، وهو يتقبل حكمها باستسلام وإذعان!...

أما الإنسان المتعلم فلا يقبل حكم الطبيعة في ذريته!... إنه هو الذي يريد أن يقرر بنفسه مصايرها، ويوجهها في الحياة تبعاً لبرنامج يضعه بعمله، ويرسمه بعقله!...

إنها الحرب إذن بين الإنسان المتعلم المفكر، وبين الطبيعة!...

وما دامت الحضارة تقلب كل إنسان إلى متعلم مفكر، فلابد من أن تتسع هوة الخلاف بين الطبيعة والإنسان إلى حد نرى فيه النسل يوماً يكثر أو يقل تبعاً لبرنامج رسمي تضعه الدولة، وتطبقه على الأفراد!...

على أن الحضارة الحقيقية في نظري ليست تلك التي تخالف الطبيعة، بل تلك التي تصاحبها وتهذبها. تلك التي

تتيح للدولة أن تقول لأفرادها: "تناسلوا كما تشاؤون، ولا تخشوا شيئاً؛ فلكم نتاجكم هو خير لي وللبشرية، وسأكفل له التعليم، والتمريض، والتنشئة، والإعداد، وتوجيه المواهب، وتوفير العمل!...

على أن الحضارة الحقيقية في نظري ليست تلك التي تخالف الطبيعة، بل تلك التي تصاحبها وتهذبها. تلك التي تتيح للدولة أن تقول لأفرادها: "تناسلوا كما تشاؤون، ولا تخشوا شيئاً؛ فكل نتاجكم هو خير لي وللبشرية، وسأكفل له التعليم، والتمريض، والتنشئة، والإعداد، وتوجيه المواهب، وتوفير العمل!"...

إذا تم هذا فإن الحضارة عندئذ، تسير في اتجاه الطبيعة، وتعمل معها، وتصبح منها؛ في موضع البستاني تجاه الشجرة أو الزهرة... ذلك البستاني الذي يقول للشجرة: "أنتجي وأثمري وأنا أتعهد!...".

تنوع الأجيال

في سورة "هود" من القرآن الكريم آية، قَلَّ من فطن إلى مراميها البعيدة تلك هي:

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين..." مهما يكن من أمر التفسيرات التي شرحت بها هذه الآية، فإنه يبدو لي أن في جوفها وميضاً ينم أحياناً عن أسلوب الله في خلق الكون... فذلك الاختلاف بين الأجرام في الأحجام هو سر تجاذبها وتماسكها وتعاونها، ولو أن الله جعل الأجرام حجماً واحداً، أما في مجال أرضنا ـ وسكانها من الآدميين ـ فإن قانون الاختلال له مثل هذه الضرورة واللزوم!... ولقد قرأت أخيراً للمفكر الإنجليزي "جون هادهام" فخيل إلي أنه يكتب ـ بوحي من تلك الآية القرآنية ـ هذه السطور: لو أن كل بلد كان له من الهيئة ومن المواد

الخام ما لسائر البلاد ـ لكان كل بلد يستطيع الحياة مستقلاً تمام الاستقلال عن جيرانه، ولكن الله نظم خريطة الدنيا على نحو يجعل كل بلد في حاجة كبيرة أو صغيرة إلى كل بلد!... وهذا القول يصدق أيضاً على الشعوب، فكل شعب قد جعلت فيه مزية يستطيع بها أن يضيف شيئاً إلى مجموع الشعوب، وكل شعب مدين للشعوب الأخرى بشيء يعوزه في إنتاجه أو ينقصه في تركيبه!...

وما يقال في شعب يقال في الأفراد الذين يتكون منهم؛ فما من مجتمع صحيح البنيان إلا كانت صحة بنيته ناتجة من أفراد لا يتشابهون في نوع العمل واتجاه التفكير.. لأن تلك الصحة إنما قوامها تلك المساهمة التي يؤديها إلى المجموع كل فرد بعمله الخاص، وتجاربه الشخصية، ومزاجه المختلف عن سواه، وطبيعته ونظرته!... وهل نستطيع أن نتصور قيام مجتمع، يتكون من أفراد كلهم متشائمون في النظرة أو كلهم متفائلون... وكلهم ذوو حرص أو كلهم مهملون؟... وكلهم شعراء، أو كلهم مهندسون، أو كلهم خطباء؟!.

***

وإذا أردنا أن نكمل الصورة، فلنهبط إلى الأعضاء في جسم الفرد!... فالصحة في جسم الفرد قوامها أيضاً ذلك الاختلاف في وظائف الأعضاء!... فالرأس يفكر، والقلب يشعر، واللسان ينطق والأذن تسمع، والقدم تسير!... وإن هذه الصحة لتنهار يوم نرى كل هذه الأعضاء تترك وظائفها المختلفة، وتتجه كلها إلى وظيفة واحدة متشابهة للجميع، وهي: التفكير!... نعم، ماذا يكون حال الجسم لو تمرد القلب، واللسان، والأذن، والقدم وقالت كلها: لن نشعر، ولن ننطق، ولن نسمع، ولن نسير!... نريد كلنا أن نكون مثل الرأس؛ فلا نصنع شيئاً سوى أن نفكر؟!... معنى ذلك ولا ريب هو شلل الجسم كله وسقوطه في مكانه، لا يتحرك، ولا ينطق، ولا يشعر، ولن يغنيه تفكيره شيئاً!...

أسلوب الله في خلقه، يبدو إذن من ذلك الاختلاف: في الصفات، والهبات، والسمات!... هنا سر التناسق في الخليقة، أي سر تضامنها: فأعضاء الجسم متضامنة في العمل؛ لأنها مختلفة في الوظيفة، ولو أنها تشابهت في الوظيفة، لما تضامنت فيما بينها، ولاستقل في الحال كل عضو عن كل عضو، وبهذا الاستقلال يتفكك الجسم ويتفتت الفرد!...

***

فإذا انتقلنا إلى مجال الرأي، وجدنا أن اختلاف الآراء في المجتمع البشري ضرورة من ضرورات الطبيعة؛ أي مظهر لإرادة الله!... وهنالك فرق بين الاختلاف في الرأي، والاختلاف في العقلية؛ فقد تتشابه العقلية في شخصين، ويختلف الرأي بينهما!...

والمجتمع السليم يجب أن يقوم على قدر من الوحدة والانسجام، في عقلية الأمة، وأجيالها، ومقومات شخصيتها العامة؛ ـ دون أن يؤثر ذلك في اختلاف الآراء فيها!... فلا ينبغي أن يشط بنا غرورنا الإنساني، فنعتقد أن ما يجول في رأسنا من رأي يجب أن يسود الناس أجمعين!... ما من رأي واحد يمكن أن يسود هذه الأرض!...

إن العالم اليوم منقسم إلى: معسكرين، ورأيين، كل منهما يريد أن يمحو الآخر من الوجود محواً: الرأسمالية في جانب، والشيوعية في جانب ـ وكل منهما يعد من الذرة قنبلة، يزيل بها خصمه من خريطة الدنيا!.. وقد تقع الحرب الفاصلة بينهما، في يوم قريب أو بعيد!..

ولكن الذي لن يقع، هو وحدة الرأي في هذا العالم، حتى وإن ظفر أحد الجانبين، بالانتصار الساحق الماحق!...

ذلك أنه ـ في تلك اللحظة عينها ـ لا يلبث أن ينقسم هذا الرأي الواحد المنتصر إلى آراء تختلف وتشتجر!.. وهكذا دواليك!... لأن هذا ناموس الخالق الأزلي:

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين"!...

مبدأ الأجيال القادمة

الدنيا مركبة زاهية الألوان، مذهبة الحواشي، مطهمة الخيول - سائقها الشيطان!...

هـذا السـائق اللبـق يعـرف دائمـاً كيـف يخاطـب الركب؟... إنه لا يجهل حب النـاس للخير، أو التظـاهر بحب الخير... فهـو يتحاشـى أن يخـاطبهم بلسـانه الحقيقـي!... لقـد ابتدع لهم لغة بارعة براقة، يقطر منها النبل والسمو!...

فهـو ينحني بجـوار بـاب مركبتـه، حتـى تكـاد جبهتـه تمس الأرض تواضعاً، ثم يفتح الباب، ويقول للناس:

هلموا اصعدوا، أوصلكم إلى أنبل الغايات!...

فيصـعدون: بعضـهم عـن إيمـان، وبعضـهم عـن غـرض، وبعضهم عن تورط!... أما صاحب الإيمان فيقول في نفسه:

الـدنيا بخـير!... وأحمـد الله أن أتـاح لنـا هـذا السـائق الطيب، يذهب بنا إلى ما نؤمن به من غاية شريفة!...

وأما صاحب الغرض فيقول:

ليس يعنيني الجهة التي يذهب بي إليها هذا السائق، ولكـن الـذي يهمـني هـو أن أصـعد إلى جـوار هـؤلاء النـاس المؤمنين الشرفاء!...

أما المتورط فيقول:

لم يكـن في نيتي الركـوب، ولكـن مـا دام النـاس مـن حولي يصعدون كلهم مع هذا السائق، فما الذي يبقيني أنا من دون الناس؟!...

ويغلق السائق على الجميع بـاب المركبـة وهـو يبتسـم!... ويقفـز إلى مكـان القيـادة ويمسـك بالأعنـة، ويلـهب بالسـوط ظهـور الجيـاد!... فـإذا المركبـة تنطلـق؛ كالمجنونـة تسـابق الرياح!...

***

ولا يمضـي قليـل، حتـى يشـعر الركـب برجـات عنيفـة، تكـاد تحطـم المركبـة، وتصـيبهم بالـدوار، وتلقـي بعضـهم

على بعض!... عند ذاك ينظرون من النافذة، فإذا هم يتبينون أن السائق قد ترك الطرق السوية، وانحرف عن السبل المستقيمة، ونزل بالمركبة يخب في السكك الوعرة، ويخوض في المسالك الموحلة!...

فيصيح به أصحاب الإيمان مرتاعين:

ويلك!... مهلاً!... ما هذا الطريق الذي تخوض بنا فيه؟!...

فيلتفت إليهم السائق، قائلاً بخبث مستتر:

هو أقصر الطرق!...

فيقول المؤمنون:

ولكنه ليس نظيفاً...

فيجيب السائق:

المهم الغاية!... الغاية التي تقصدون إليها!.. ما دامت الغاية نبيلة، فلا تنظروا إلى الطريق!....

ويعود إلى سوطه يلهب به خيوله، فتندفع المركبة في وجهتها، تاركة الركب المؤمن في داخلها، ينظر بعضهم إلى بعض متسائلين:

ـ أحقاً؟!.. يجدر بنا أن نسير في هذا الوحل والطين؛ من أجل الوصول إلى غايتنا الشريفة؟!...

ويشترك في الحديث غير المؤمنين، من هواة التظاهر والمتورطين، فيقول: ما دام هذا هو أقصر الطرق للوصول؛ فما الضرر؟..

فيصمت أصحاب الإيمان، وقد أسلموا أمرهم إلى الله، وهم ما أسلموه في حقيقة حالهم إلا إلى الشيطان!...

***

تلك هي مركبة الدنيا من قديم منذ سلم فيها الجميع بمبدأ "الغاية تبرر الطريقة!..." أخطر مبدأ عرفته أجيال البشرية المتعاقبة!... هذا المبدأ وحده هو المسؤول عن كل هذه الكوارث، التي حاقت بالعالم حتى عامنا هذا جيلاً بعد جيل!...

كل ساسة العالم وقادة الشعوب، في الأمس واليوم ـ وفي الغد أيضاً ولا ريب ـ يسيرون على هذا المبدأ. مخدوعين بالوهم أنه أقصر طريق؛ للوصول إلى غاياتهم، التي قد تكون في بعض الأحيان نبيلة، ولكن الذي يحدث دائماً هو

ما يحدث لركب المركبة، التي يقودها الشيطان!... إنهم لا يظفرون إلا بالطريق الموحل، أما الغاية فلا تظهر لهم أبداً في الآفاق!...

ذلك أن الطريق الملتوي القذر، لا يوصل أبداً إلى الخير ولا إلى الشرف!.. إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل!... إن الطريق إلى الشرف هو الشرف عنه، ولا شيء غير ذلك!...

والخير هو في ذاته الطريقة والغاية؛ لأنه شعاع من أشعة اللّه، واللّه تعالى غاية؛ لابد أن يكون طريقها نوراً وخيراً!...

فلو اتفق قادة العالم، المجتمعون حول موائد السلام، وقادة الشعوب والمجتمع والفكر، الباحثون في مستقبل الإنسانية؛ - على أن يحطموا أولاً مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" - لجاءت النتائج باهرة!... فإن مناورات الساسة ستختفي، وأساليب الكذب والمداراة والنفاق والخداع ستزول، ولن يبقى أمام الجميع غير طريق واضح نظيف!... إذا أوصلنا إلى الخير العام؛ فهو الهدف ، وإن لم يوصلنا إلى إصلاح سريع؛ فحسب العالم أنه سار في طريق خال من الشر والقذر!...

وإذا لم يكن هذا الطريق النظيف هو في ذاته إصلاحاً وخيراً؛ فلن يعرف العالم الإصلاح والخير عن طريق التدمير والشر!...

هل لنا أن نأمل في الأجيال الجديدة ظهور مبدأ جديد، يتخذه العالم كله ديناً وعقيدة، ويكون شعاره:

"الغاية النبيلة في الطريق النبيل!"...

شبح جيل

ذهبت على شارع "بلبور" ذلك الحي النائي من أحياء "باريس" ـ حيث كنت أقيم بعد الحرب العالمية الأولى ـ فماذا وجدت؟... وجدت الشارع الضيق كما كان، ووجدت حجرتي كما كانت، مفتوحة النافذة على الفضاء الواسع، وأعترف أني تأثرت، وشعرت برجفة؛ فقد خيل إلى أني أرى شخصاً في النافذة، شخصاً أعرفه، شاباً نحيل الجسم أسود الشعر، يرسل البصر إلى الأفق البعيد؛ كأنما يريد أن يهتك حجب الغيب؛ ليطالع ما خط في لوح قدره!... ولكن القدر ـ فيما يبدو ـ ما كان قد خط بعد حرفاً واحداً في اللوح!... إنما وقف ممسكاً به ينتظر ـ ينتظر الرسم الذي خطه الشاب لحياته!... نعم، لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه "خريطة" واضحة المعالم، دقيقة التفاصيل!...

كان قد طرح في مصر مهنة المحاماة والقانون؛ ليمضي في حمل القلم، ويقول للناس أشياء، يعتقد أنها قد تنفعهم!... وما كان يريد غير ذلك، ولا يطمع من حياته في غير ذلك ـ فلا الجاه العريض كان يغريه، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه، ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه، أو يرضيه!...

وعندما يضع "إنسان" لحياته خطة، فإن "القدر" أحياناً يأخذ وينفذ!... لذلك تقدم "القدر" فيما يظهر، إلى الشاب، وتسلم منه الرسم، ونقله إلى لوحه، وهو يهمس باسماً: مادمت أنت "المهندس" الدقيق لبناء حياتك، فلن أكون أنا غير "المقاول" المنفذ الأمين!...

ولقد بر "المقاول" فعلا بالوعد... وأتم العمل.. وأقام البناء، طبقاً للرسم... لا أكثر ولا أقل..

***

وددت لو أستطيع أن أسأل ذلك الشاب الذي تخيلته في النافذة:

أيعجبك هذا البناء؟!...

لم أتلق بالطبع جواب ذلك الشاب!... ولست أدري بماذا كان يجيب في مثل سنه؟... ولكني سمعت الجواب من أعماق نفسي أنا:

لا... لا يعجبني...

وهنا... خيل إلي أن أسمع "القدر" يقول بنبرة تهكم:

الذنب ليس ذنبي... لقد نفذت ما تسلمت... إن كان هناك عيب... فهو عيب الرسم!.

فقلت له في الحال:

اطمئن... ما من أحد يتهمك أنت... ما من شك أن المسؤول هو ذلك المهندس "الغشيم"!...

فقال مزهواً:

عندما يترك لي أنا القدر مهمة الرسم، فإني أفعل المعجزات!...

فقلت له:

بالتأكيد... ولكن ماذا تقول في أولئك الأغرار الذين يتصدون للهندسة ووضع الخرائط، فيحبسون حياتهم داخل رسم خيالي... لا يستطيعون منه خروجاً أبد الدهر؟!.

فقال:

مهما يكن خيال الإنسان فهو لن يطاول خيالي!...
أستطيع أن أدلك على عشرة تعرفهم، ولا شك بأنهم اليوم من أصحاب الملايين، أحدهم كان حوذياً في عربة نقل، والآخر بائعاً جائلاً من باعة "الخردوات" والثالث عاملاً في حانوت فواكه... وهلم جرا... ما من واحد منهم، وضع لحياته خطه أو تخيل لمصيره رسماً!... تركوا كلهم لي أنا مهمة الرسم، وعهدوا إلي بهندسة بناء حياتهم، فصنعت لهم ما لم يخطر لأحد منهم على بال!...

فقلت له:

ماذا صنعت لهم؟...

ـ أقمت بناء حياتهم، على أعمدة من الذهب!...

ـ أعطيتهم المال!..

ـ نعم... أغرقتهم في المال!...

ـ نعم!... أغرقتهم!...

قلتها هامساً، وأنا أهزّ رأسي، تلك الهزة الطويلة التي تطوي التهكم المستتر!...

فقال "القدر":

ماذا تقصد؟... ألم أعطهم أكثر مما كانوا ينتظرون؟

فقلت على الفور:

هذا صحيح؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون من الحياة أكثر من ذلك... فقال متخابثاً:

- وماذا في الحياة أكثر من ذلك؟!...

فقلت باسماً:

- ألا تعرف أنت؟!...

فقال:

أتعرف أنت ضوءاً أشد من وهج الذهب؟!...

فقلت في الحال:

القلوب الصغيرة هي التي تضاء بالذهب، أما القلوب الكبيرة فلا تستطيع جبال الذهب أن تضيء أرجاءها وأعماقها!..

فقال: أنا الآن إذن في نظرك مهندس ومقاول من نوع رخيص!...

فقلت:

أنـت مهنـدس ومقـاول، اعتـاد أن يرسـم ويقـيم البيـوت الصـغيرة!... لقـد تـبين لـي الآن أن البيـوت الكـبيرة لا يرسمهـا غير أصحابها!...

فقال بخبث:

ولماذا شكوت الساعة إذن من بناء حياتك!؟..

فقلت مطرقاً:

لأن الشـاب الـذي وضـع الرسـم، كـان حسـن الظـن، واسـع الخيـال، لقـد خـط علـى صـفحة ذهنـه بيتـاً كـبيراً!... كبيراً جداً، لم أستطع أنا أن أملأه أو أتخذ مكـاني فيـه!... إني حبيس قصـر رحـب، لم يسـتطع إيمـاني، ولا جهدي، ولا قدرتي؛ ـ أن تشغل كل قاعاته وأبهائه!...

***

قلـت ذلـك وانصـرفت خارجـاً مـن شـارع "بلبـور" بعـد أن ألقيـت نظـرة أخـيرة علـى شـبح الشـاب الواقـف في النافـذة، وهمست:

وداعاً!... عفوا!.. لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك!.. لعلك أنت الذي بالغت في التفاؤل!...

ومشيت في الطريق الذي كانت تقام فيه السوق، كل أسبوع، ويذهب إليها الشاب؛ ليحمل مؤونته من الأرز والبيض، وينفق "الفرنكات" القليلة، التي لا يملك غيرها على مدى الشهر الطويل، ولكنه كان سعيداً؛ لأنه ما بالطعام وحده يعيش الإنسان!... نعم كان سعيداً؛ بالأمل الذي يلمع في الأفق؛ كأنه نجم!...

ما تغير شيء في ذلك الحي القصيّ، إلا ذلك النجم الذي اختفى، والأفق الذي غشاه الضباب!...

الباب الثاني عشر

الأدب والتزاماتـــــــــه

الأديب يلتزم...

ولكن الأدب لا يلتزم...

الأديب يلتزم

كثر الكلام بين أدباء "أوروبا" ـ في العصر الحديث ـ حول الأدب الحر، والأدب الملتزم، حتى كاد المتتبع للجدل، يحسب أن الموضوع جديد، تمخضت عنه النظريات الجديدة في الدولة والمجتمع!...

والحقيقة المسطورة في التاريخ، هي أن الالتزام في الأدب والفن قديم، بل ربما كان الأصل ـ في الأدب والفن ـ أنهما ولدا مقيدين، وأنهما لم يعرفا الحرية إلا فيما بعد!... فالشاعر في المجتمع البدائي، ولد ملتزماً بالدفاع عن القبيلة، مشيداً بفضائلها، مزرياً بخصومها!... ولم ينسلخ تفكيره عن تفكير قبيلته، ويأخذ في التعبير عن أفكاره الفردية، ومشاعره الشخصية، إلا عندما بدأ المجتمع يتطور نحو التعقد!... على أن المجتمع المتطور، البالغ درجة من

الرقي، قد يظهر فيه الالتزام: في الفكر، والأدب، والفن؛ ـ إذا ظهرت فيه فكرة من الأفكار، أو عقيدة من العقائد، ذات أثر في نفوس الناس!...

وهذا ما حدث عند ظهور الإسلام؛ فقد نهض ـ من بين الشعراء ـ "حسان بن ثابت" يؤيد هذا الدين الجديد بشعره، ويحارب أعداءه، ويجاهد بقصيدة في سبيله!...

كما أن طريقة الحكم في مجتمع، وعمق الإيمان عند شعب: لهما أقوى الأثر في ظهور الالتزام!.... وهذا ما حدث في "مصر" القديمة!... ولنرجع إلى ما قال العلامة "موريه" في كتابه "النيل والحضارة المصرية"؛ فقد ذكر أن الفن والأدب والعلم، أشياء كانت دائماً في خدمة الدين والدولة، وأن "مصر" القديمة؛ ما عرفت ـ إلا في النار ـ ما يسمى بالثقافة الخالصة والفن للفن، والبحث العلمي المقصود لذاته والتفكير النظري والأدب الشخصي... وأن آثارها الكبرى بروحها الجماعي لا تحمل حتى اسم صانع بعينه، وأنها كلها خاضعة لمذهب فني واحد، يتجه بكل دقة إلى أهداف اجتماعية دينية... هذا المذهب الفني المصري؛ كما يقول "موريه"، قد ضيق أحياناً كثيرة مجال الابتكار، عند

أولئك الفنانين العظام، ولكنه عبر على كل حال عما يكن الشعب، من تقديس للسلطة والعقيدة... ذلك الالتزام المصري القديم تقابله حرية شبه مطلقة عند اليونان القديمة!... فطريقة الحكم والإدارة فيها، والاتجاه إلى الديمقراطية، وضعف الإيمان الديني وغلبة النزعة العقلية ـ كل ذلك سلخ الفكر والفن عن سلطان الدولة والدين، فظهرت مذاهب الشك، والبحث العلمي، والفلسفي المتحرر من كل هدف نفعي، والفن المتجدد من خدمة سلطان ديني أو دنيوي!...

هل لنا أن نستنتج من ذلك أن أساس الحرية والالتزام واحد لم يتغير في الماضي والحاضر؟... وأن دوافع الالتزام والحرية هي بعينها في العصور القديمة والحديثة؟...

لو تتبعنا مواطن الفكر الملتزم في عصرنا الحاضر، لوجدناه في عنفوانه وتألقه في البلاد التي تقدس هي أيضاً الدولة والعقيدة، ولما كانت العقيدة الدينية آخذة في الضعف في بلاد الغرب؛ فقد حل محلها في القوة والتمكن العقيدة الاجتماعية، أو المذهب السياسي!... فحيثما وجدنا اليوم شعوباً تدين كلها بدين اجتماعي جديد في كنف

سلطان الدولة القاهرة، نجد الفكر فيها ملتزماً بخدمة الدولة والدين، ونرى من النادر أن يتجه فيها مفكر، أو أديب، أو فنان ـ إلى خدمة فكرة خاصة تعارض المذهب العام الذي اعتنقه الشعب والدولة!...

فإذا نظرنا إلى بلاد الديمقراطية، حيث سلطان الدولة ضعيف بالقياس إلى حرية الفرد، وجدنا الفكر فيها يكاد يشبه ما كان عليه في بلاد اليونان القديمة، من حيث عدم الالتزام بخدمة سلطان ديني أو دنيوي!... فالمفكر أو الأديب أو الفنان في تلك البلاد لا يستطيع أن يلتزم على الصورة السابق ذكرها؛ لأن سلطة الدولة عنده تتناوبها حكومات متغيرة، وعقيدة الشعب منتشرة في مذاهب متناقضة متعددة، وهو ـ بين الشك واليقين ـ يؤثر في أغلب الأحيان الاحتفاظ بفنه لنفسه... وهو لو أراد أن يلتزم لما وجد أحداً هناك يلزمه غير نفسه!... وهذا هو المظهر الوحيد للالتزام، عندما يظهر من حيث إلى حين في البلاد الديمقراطية!...

فالأدب الملتزم في البلاد الديمقراطية لا يعدو اليوم أن يكون في صورة مذاهب شخصية؛ لأمثال "سارتر" و"كاموس"؛ في فرنسا، وأضرابهما في البلاد الأخرى...

مذاهب أدبية ينشئها، أو يروج لها أفراد من الأدباء، يلزمون أنفسهم بمبادئها فيما يكتبون وينتجون!... فالالتزام عند "سارتر" ليس دافعه "الدولة"، بل شخصه وحياته... ولقد سل عن مبدأ اعتناقه مذهب الأدب الملتزم، وهل هو ناشئ عن تجربة الحرب الأخيرة؟... فقال: "نعم، إن الأحداث الاجتماعية هي التي تأتي باحثة عنا، ولكن التجربة الحاسمة كانت في أيام الأسر ـ بين الأسلاك الشائكة تيقظ الضمير متسائلاً عن حقيقة الحرية..." أما "كاموس" فقد نبع التزامه من أعماق تفكيره؛ فقد قال: "إن فكرتي عن الفن سامقة الارتفاع... وهذه الفكرة المرتفعة هي التي تجعلني أريد للفن أن يخدم شيئاً.. إن غاية الفنان الخالق هي أن يصور مشاعر عصره... ولقد كانت مشاعر العصر في القرن السابع عشر تدور في الغالب حول الحب... أما اليوم فإن مشاعر العصر هي مشاعر جماعية، لأن المجتمع اليوم يسبح في الفوضى..." على أن "كاموس" نفسه لا يحلو له كثيراً أن يوصف بأنه أديب ملتزم... فقد علق على كتيب نشر عنه بقوله: "إني شاكر لمؤلفه، إذ لم يصفني بأني كاتب مذهبي خاضع لمذهب بعينه"...

إذا استثنينا هذين الأديبين، كان من الصعب أن نجد في بلاد الديمقراطية قادة للأدب الملتزم من هذا الطراز... على أنهما وأتباعهما لا يكادون يورثون في الصفة الغالبة على الأدب الفرنسي المعاصر!... فهذا الأدب في مجموعه بعيد عن كل الالتزام، لا في أدب الكتاب وحده!... وهو بطبيعته أقرب إلى الفردية، بل في أدب المسرح ذي الطبيعة الجماعية... ولنصغ إلى الكاتب الناقد المسرحي المشهور "جبريل مارسيل" في محاضرة أخيرة له إذ قال: "إنه لمن الغريب أن نلاحظ إلى أي مدى يغيب عن المسرح الفرنسي المعاصر كل مظهر اجتماعي للواقع الحاضر؛ بمشكلاته الحقيقية التي تعرض لكل واحد منا!...

وهذا صحيح إلى حد يدعو إلى الدهشة لمن يتتبع روايات المسرح الفرنسي الآن رواية رواية... أغلبها حقاً بعيد كل البعد عن معالجة المشكلات المباشرة للمجتمع!... ومع ذلك فإن ذلك المجتمع يقبل عليها إقبالاً يثير العجب!... فلقد لبثت رواية "الكوخ الصغير" "أندريه روسان" تمثل بلا انقطاع ثلاث سنوات متتالية!... وهي ملهاة تدور حول زوج وزوجته وعشيق، كانوا على ظهر سفينة غرقت بهم، فنجوا هم الثلاثة

وعاشوا وحدهم في جزيرة نائية!... ولقد سئل مؤلفها هذا السؤال: "أليس من التناقض العجيب أن ينجح مثل هذا المسرح هذا النجاح كله في لحظة مؤلمة من تاريخنا؟..." فأجاب المؤلف: "هذا بالضبط هو السبب!.. إننا نعيش في مأساة، فما من نوع يلائم عصرنا غير الملهاة"!...

فإذا تركنا "فرنسا" وذهبنا إلى "إنجلترا" وجدنا الأمر مثل ذلك وأكثر؛ فالعقلية الإنجليزية لا تطيق قيوداً على الفكر والمتعة، مهما تكن فائدتها!... لهذا قلما نجد ظاهرة الالتزام ـ بالمعنى المذهبي المذكور ـ في الأدب الإنجليزي المعاصر!...

أما المسرح فهو أيضاً بعيد كل البعد عن تصوير مشكلات حقيقية مباشرة للمجتمع وأكثر المسرحيات نجاحاً عند الجمهور الإنجليزي روايات "نويل كوارد" وهي من طراز روايات "أندريه روسان" الفرنسي!...

فإذا اتجهنا إلى "أمريكا" ألفينا نفس الأمر، ولنستمع إلى الناقد الأمريكي الشهير "بروكس أتفكنسون" يصف في جريدة "النيويورك تيمس" حالة المرح في الولايات المتحدة بقوله: "إن الحياة الفكرية والفنية في هذه البلاد تكاد

تكون عائمة على السطح... فالناس هنا لا يودون التعرض لأي مخاطرة فكرية، ويترددون في التصريح بما يعتقدون... والخوف من الشيوعية جعل أصحاب الذوق المبتذل هم الذين يتحكمون في الإنتاج الفكري والفني؛ كما هي الحال في "روسيا" الآن فأصبح المسرح تافهاً هنا كما هو هناك!... ولن نأمل في أن يكون لنا فن مسرحي حي ما دمنا نقلد الدور الدكتاتورية في فرضها الرقابة على الحياة الثقافية، ووضعها في زمام هذه الرقابة، في أيدي أجلاف، مغلقي النفوس عن كل فهم، وفن، وذوق!...

من هنا يبدو ـ كما يعقب أحد الباحثين في حالة الفن الأمريكي المعاصر ـ أن المنتجين يتجنبون الموضوعات التي تجنح إلى نقد المجتمع، ويتوخون السلامة والعافية في إنتاج كوميديات موسيقية خفيفة من نوع "الموزيكهول"!... ذلك النوع الذي تمثل فيه "جودي جارلاند" وضريباتها بنجاح يجتاح "برودواي" اجتياحاً!... ذلك النوع من الإنتاج يدرُّ على منتجيه ربحاً لا ينضب معينه، ويجنبهم في عين الوقت المثول يوماً ما أمام لجنة من لجان تحقيق الكونجرس!...

تلك خلاصة القول بعض النقاد الغربيين، في شأن الحرية والالتزام في العصر الحاضر. فإذا كان لابد لي من إبداء رأيي فيما ينبغي للأديب ـ ولابد لي من إبداء آرائي هنا صريحة؛ لأن طبيعة هذا الكتاب ـ كما لاحظ القارئ ـ هي عرض لشؤون الأدب والفن من خلال أفكاري، ومطالعاتي، وكتاباتي، وتجاربي في الثلاثين سنة الماضية، من حياتي الأدبية والفنية!... فإني أقول ـ وقد قلتها من قبل كثيراً ـ إن الأديب يجب أن يكون حراً؛ لأن الأديب إذا باع رأيه، أو قيد وجدانه ذهبت عنه في الحال صفة الأديب... فالحرية هي نبع الفن، وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن!...

تلك هي النصيحة التي ينبغي أن تزجى إلى الأديب أو الفنان، ولا تتصور نصيحة أخرى خالصة يمكن أن تقدم إليه؛ لأن الذي يقول لفنان، أو أديب: التزم بكذا، أو بكيت؛ ـ فقد قتله... إنما التزام الأديب أو الفنان شيء ينبع حراً من أعماق نفسه؛ فإن لم ينبع الالتزام حراً من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه أنت، ولا تلزمه قوة في الوجود!... يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان، ويجب أن يلتزم وهو لا يشعر بأنه ملتزم؛ مثله مثل حمام

زاجل، ينقل رسالة وهو حر طائر، لا يشعر بقيد في ساقه، ولا بغل في جناحه. فإذا شعر الفنان لحظة واحدة أنه يؤدي بفنه ضريبة عليه أن يؤديها وجوباً، فإن الذي سينتجه لن يكون فناً... فإذا لم يشعر بأن الالتزام واجب وإنما هو شيء طبيعي ـ شيء لو أرغمته على ألا يؤديه لعصاك وأداه؛ لأنه جزء من طبيعته وتفكيره وعقيدته، فإن الذي سينتجه مع الالتزام سيكون هو الفن!...

هكذا كان الالتزام. عند الفنان المصري القديم، فيما اعتقد!... كان فنه ملتزماً بخدمة عقيدة دون أن يشعر بإرغام على ذلك؛ لأن العقيدة فعلاً عقيدته التي نشأ عليها، وركبت في طبيعته!... فالالتزام المثمر للفنان في رأيي هو الالتزام الذي ينبع من طبيعته، وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية ـ بل هنا ينبع الالتزام نفسه من الحرية!... لذلك لم أقل يوماً لأديب أو لفنان التزم!... بل قلت وأقول: كن حراً!...

هذا موقفي تجاه الأدب والأدباء على وجه العموم!... ولكن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بإنتاجي أنا على وجه خاص، فعلى الرغم من مناداتي بالحرية، فإن عملي في أكثر كتبي هو من صميم الأدب الملتزم؛ ولست

أدري أهذا راجع إلى رواسب ماضينا وتاريخنا القديم، أم إلى طبيعتي الخاصة؟... إنما الذي أعرفه هو أني منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشئ لنفسي أسلوباً جميلاً، يتميز بجزالة اللفظ، وحسن الديباجة، مما يستهوي القارئ بحلاوة الجرس والرنين!...

هذا الفن للفن في الأسلوب، ما خطر لي أن أمارسه... ولكني أردت أن أتخذ من الأسلوب خادماً لأهداف أخرى، غير مجرد الإمتاع!... هذه الأهداف، كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية، وشعبية، وإصلاحية، في "عودة الروح" وفي "عصفور من الشرق"، وفي "يوميات نائب في الأرياف"، وفي "مسرح المجتمع"... وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان؛ كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصاً في "مصر": في "أهل الكهف" وفي "شهر زاد" وفي "سليمان الحكيم" وفي "بجماليون"، وفي "الملك أوديب"... إلخ.. أقول: لم تظهر لكل الناس، لأن كثيرين منهم هنا لم يروا فيها أكثر من أساطير أخرجت في إطار فني... والقليل أدرك أن الأسطورة لذاتها لم تكن هي المقصودة، فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة، كما كتبت "مجنون ليلى"

لشوقي، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه... إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر، لا غاية في ذاتها... فلم يكن الغرض منها مجرد رواية "حادثة الكهف" أو حكاية "ليالي شهرزاد"... الخ.. بل وضعت كلها لخدمة قضية خاصة بالإنسان ومصيره!... قضية يعتنقها المؤلف، ويبدو اتجاهها في هذه الأعمال كلها!... فقد جاء في صحيفة "النوفيل لترير" الباريسية، هذه الملاحظة التي تلخص الرأي كله في عبارة: "هذه المسرحيات العشر على تباينها في نواحي الإلهام، تكشف عن روح واحد يسيطر على المؤلف: هو ذلك الاتجاه الملحوظ عنده دائماً إلى موضوع خالد، عجز الإنسان أمام مصيره..."

وسيأتي تفسير ذلك فيما يلي من فصول!....

الأديب وليد عصره

لابد للفنان المثمر أو الأديب الحق من أن يكون وليد عصره وابن بيئته!...

بغير ذلك يصبح الأدب، أو الفن شيئاً ضعيف الأثر ضئيل القدر، بعيداً عن قضايا العصر، منعزلاً عن مصاير البشر!... ولقد سبق لي أن قلت ذلك في كتابي "تحت شمس الفكر" في فصل بعنوان "الفكر والشعب" جاءت فيه هذه الكلمات: "إن الأدب في مصر لم يكن إلى عهود قريبة ـ حتى مطلع هذا القرن غير حلية عاطلة في معاصم الأدباء!... لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب، ليس فقط على هامش المجتمع. بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء. لم يكن الأدب في مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشؤون المجتمع، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقاً توقظ

النـائمين، ولكنهـا كانـت معـازف، يـنعس علـى أنغامهـا المترفون!... الخ.

علـى أن تنـاول الأدب والفـن لشـؤون البيئـة والـزمن، والمجتمع؛ لابد ـ أيضاً من أن يكون على نحو، لا يشبه ـ من قريـب أو بعيـد ـ مـا تعرضـه الصـحف، أو الـدعايات، أو المناسـبات!... فـأداة الفـن والأدب لا تعنيهـا المـادة الإخباريـة الطارئة المتغيرة، بل هي تعنى بـالجوهر الثابت، والمبدأ العـام المستخلص مما يجري في الزمان والمكان!...

وهنـا يختلـف الحـال أيضـاً بـين أديـب وأديـب، وفنـان وفنـان!... فحـوادث البيئـة وقضـايا العصـر عملـة ذات مراتـب وطبقات؛ فيها قـروش النيكل وفيها عشـرات الفضـة، وفيـه جنيهـات الـذهب!.. فهنـاك الأديب أو الفنـان الـذي لا يـرى مـن حوادث البيئـة غير الحـي، أو القرية، أو المدينـة، التي يعيش فيهـا، ويعـرف أهلـها، وأحوالهـا؛ فيصـفها ويصـورها أدق وصـف، وأبـرع تصـوير!... وهنـاك الأديـب أو الفنـان الـذي يضيف إلى هذا التصوير الدقيق للحي، أو القرية، أو المدينة؛ نفوذه إلى روح مشكلاتها العامة ـ لا الخاصة بكل شخصية من الشخصيات ـ ليخرجك بعد مطالعة تصويره الممتع للبيئة

والناس، بشيء أكثر من مجرد تصوير أمكنة وحوادث، وأشخاص، شيء يمس قضية عامة تتصل بوضع هذه الجماعة البشرية، في الظروف المحيطة بها، شيء يشعرك بأن الأديب أو الفنان ليس مجرد مصور لبيئة، وسارد لقصة، وخالق لأشخاص، ولكنه - أكثر من ذلك - محرك لقضية، ومفسر لوضع!.. ثم هنالك أخيراً الأديب أو الفنان الذي لا يكتفي بسرد القصة، وخلق الأشخاص؛ ليحرك قضية بيئة معينة ويفسر وضع مجتمع خاص، ولكنه يرمي من وراء عمله الفني إلى تحريك قضية العصر كله، وتفسير وضع المجتمع البشري، في الجيل الذي يعاصره والزمن الذي يعيش فيه أو الأزمان المختلفة التي يتطور خلالها!... هذه المهمة الأخيرة للأديب أو الفنان هي كالعملة الذهبية التي تصلح للتعامل الدولي في العالم أجمع!...

والقول بأن الأدب أو الفن وليد بيئته ليس معناه في كل الأحوال أن يكون هذا الأدب أو هذا الفن هابطاً في مستواه الفكري إلى مدارك الطبقات الدنيا!.. مهما تكن البيئة بدائية، فالفنان الرفيع قد ينتج فناً رفيعاً من بيئة متواضعة، والفنان السوقي قد ينتج فناً سوقياً من بيئة مرتفعة؛ ففي

الموسيقى مثلاً نجد "الجازبند" ينبع ويعش في بيئة مرفهة، في حين أن بيئة الشعب المكافح أخرجت اليوم فناناً شاباً مثل "شوستا كوفتش" الذي تبجل موسيقاه الرفيعة عواصم العالم المتحضر، فقد وصف الناقد "دافيد رابينوفتش" "سانفونياته" الشهيرة، التي أوحت بها الحرب الأخيرة بأنها تعبير عن مأساة الإنسان في المصير الذي كتبه عليه هذا البرزخ المسدود بين الفرد والعالم المحيط به، فقد عبرت هذه الموسيقى الرفيعة ـ بما فيها من تفكير عميق عن حقيقة الإنسان باعتباره جزءاً من العالم، منتهية إلى أن خلاصه من مصيره القلق هو في أن يغمر نفسه في الواقع... واقع الجماعة التي يعيش بينها كجزء منها.. ولقد قارن الناقد ختام "السانفونية" الخامسة "لشوستاكوفتش" بختام سانفونية "البطولة" لـ "بيتهوفن"!...

كما أن الأدب أو الفن الذي يحرك قضية، ويفسر وضعاً لبيئة اجتماعية، قد يكون مستساغاً لجمهور واسع من الشعب، كما أنه قد يكون أيضاً مغلفاً بالشعر والرز؛ كما هي الحال في مسرحيات "هنريك إبسن" المستساغة، لخاصة الناس دون عامتهم، مع أنها ثورة على صميم

الأوضـاع الاجتماعيـة في "النـرويج"!... فأولئـك الـذين يفهمـون؛ ويتذوقون مسرحيات مثل براند" أو "بيرجنـت" لا شـك هـم مـن الصـفوة المثقفـة، دون الكثـرة الغالبـة ذلـك أن الأديـب أو الفنان، لا يؤثر في كل الأحيان مباشـرة في كتل الجماهير؛ كما ينبغي للصحفي والسياسـي، ولكنـه يـؤثر أولاً في قـادة الجماهير، وهم الذين يتلقـون عنـه التوجيـه الفكـري للعصـر والمجتمـع، ويضـعونه موضـع التنفيـذ والعمـل... فـإذا تركنـا المجال القومي والتفتنا إلى المجال العالمي، ونظرنا إلى الأديب أو الفنان باعتباره وليد العصر الـذي يكتنـف العـالم بأسـره، وجدناه مطالباً ـ خصوصاً في العهود الحديثـة ـ يبحـث قضـية العصر كله، وتفسير وضع المجتمع البشري برمته!...

ولنتخذ مثلاً لذلك في الأدب بـ "جان بول سارتر" بمذهبه المعـروف عـن "الوجوديـة" فقضـية العصـر عنـده هـي قضـية الحريـة!... "حريـة الإنسـان" ذلـك أنـه يـرى وضـع الإنسـان في المجتمـع البشـري المعاصـر مهـدداً، في حريتـه مـن نـاحيتين: ناحية السلطة الدينية، وناحية الدكتاتورية السياسية!.. لهذا قام ينادي بتحرير الإنسان المعاصر من كل سلطة!... ويعلن أن الإنسـان حـر!... حـر بطبعـه وسـليقته، وأنـه لا يسـتطيع

الخلاص من حريته، دون أن يتخلص من وجوده!... وهو حر في إرادته ومسؤوليته أمام الذات الإلهية، التي لا تملك معه حلاً ولا عقداً؛ لأنه هو نفسه إله هذا الوجود ـ إلى آخر تلك الأفكار، التي ضمنها كتاباته، وعرض لبابها في مسرحيته "الذباب" التي أجمع النقاد على أنها، تمثل آراءه في قضية الحرية أعمق تمثيل!... وهذه المسرحية الفلسفية مفرغة في إطار الأسطورة الإغريقية، التي سبق أن تناولها "إيشيل"، و"سوفوكلس" و"إيروبيد" من قبل!... ولكن "سارتر" استخدم أشخاص الأسطورة؛ للرمز عن اتجاهاته، والتعبير عن نظراته؛ في موقف الإنسان من العصر الحديث!...

ولقد أخرجت هذه التمثيلية ـ على المسرح الفرنسي ـ في نطاق جمهور ضيق، من خاصة المثقفين!... فهي أيضاً، كمسرحيات "إبسن" في عصرها، ليست مما يهبط إلى مستوى سواد الناس!... ولكن ذلك لم يَحُلْ دون ذيوع أفكار المسرحية! عن طريق النقاد، والمفسرين ذيوعاً كاد يبلغ آذان الجماهير في جميع أركان الدنيا...

هذا الموقف من قضية العصر قد وقفته وتأملته، وعرضت فيه نظرتي باعتباري شرقياً مسلماً.. فالإنسان

عندي ليس إله هذا العالم. وهو ليس وحده في الوجود وليس حراً... ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية... هذه الإرادة التي تتجلى للإنسان أحياناً في صور غير منظورة من عوائق وقيود، على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها... فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات... فطريق النبي ليس معبداً، ولكنه يجاهد في تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس... إن قضية العصر اليوم، وهي التي تقوم على حرية الإنسان سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة، إنما تتحد وتتلاقى في أمر واحد. هو إنكار الله... وإنكار القوى غير المنظورة التي تؤثر في مصير الإنسان... وهذا ما لم أسلم به عقلاً وإيماناً... فقول بعض النقاد الأوروبيين إن مسرحياتي تسيطر عليها فكرة عجز الإنسان أمام مصيره صحيح إلى حد ما.. وأصح من ذلك ما لاحظه البعض من أن مصير الإنسان عندي مرتبط دائماً بجهاده أمام القوى غير المنظورة، فهو بشعوره الداخلي - أنه ليس وحده في الكون، وأنه ليس حراً - أدرك أنه سجين تلك القوة الخفية التي تسمى "الزمن"، وأن مصيره مرتبط بالزمن ارتباطاً وثيقاً، وأنه ليس حراً في التخلص من زمنه، وليس

في مقدوره أن يعيش طليقاً في كل جو، وكل زمن!... هذا محور مسرحية "أهل الكهف" التي كتبت، ونشرت قبل أن يظهر "سارتر" في عالم الكتابة والأدب بأعوام!... كما أن مصير إنسان مرتبط بأرضه تمام الارتباط؛ فالقوة الخفية الأخرى التي تسمى "المكان" ـ المكان المادي أو المعنوي ـ لها قبضتها القوية على كيان الإنسان!... وهذا محور مسرحية "شهرزاد"... لقد أراد الإنسان في هذه القصة أن يتخلص من الأرض ليبلغ السماء، فظل معلقاً بين الأرض والسماء، ولكن مصير الإنسان مهدد أشد تهديد بقوة أشد خطراً من تلك القوى ـ هذه القوة الخطرة، هي التي تتفجر من صميم قدرته، كما تتفجر النواة في الذرة!... إن حكمة الإنسان ـ خصوصاً في عصورنا الحديثة ــ ليست هي التي توجه مصيره، بل الذي يوجه مصيره هو قدرته ـ ذلك العفريت المنطلق من قمقم الحكمة، هو العلة المباشرة لأزمة الإنسانية في العصر الحاضر!... هذا محور مسرحية "سليمان الحكيم"!..

على أن شعوري بعجز الإنسان، أمام القوى المؤثرة في مصيره؛ ليس مؤداه التشاؤم، كما أني لست أرى في

النظريات الأوروبية ـ القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره ـ ما يدعو إلى التفاؤل!... العكس هو الأصح؛ فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض، كانت في رأيي من الأسباب التي أدت إلى كوارث العالم اليوم؛ فالإنسان ـ الإله الحر، الذي لا شريك له، ولا سلطان لقدر عليه، مع ما ركب فيه من غرائز الحرب والكفاح ـ عندما جحد وجود غيره على الأرض، وأنكر كل قوة غير قوته في الدنيا؛ لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه، ونشاط كفاحه غير نفسه، فالقلب محارباً نفسه، هادماً ذاته!... وهذا ما يفسر لنا انقسام العالم الأوروبي اليوم على نفسه، وهدم المدنية الأوروبية لذاتها!... في حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التي تواجه الإنسان وتؤثر في إرادته وحريته، تدفع به في نهاية الأمر أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه، لا ضدَّ نفسه، بل ضدُّ هذه العوائق المستترة، وهذه القوى الخفية!... فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره، هو عندي حافز إلى الكفاح، لا إلى التخاذل!.. في "أهل الكهف" كافحوا ضد الزمن، ولبث أحدهم متعلقاً بالحياة، يقارع الزمن بسيف بتار هو "القلب" إلى آخر لحظة!.. و"شهرزاد" جاهدت محاولة

أن تـردَّ ــ إلى الصـواب ــ زوجهـا، الـذي أراد أن ينبـذ أرضـه وآدميتـه وأن تعيـد إليـه إيمانـه ببشـريته!... و"سـليمان" جاهـد ضد إغراء القدرة التي كادت تخرس صوت الحكمة!..

وهكـذا كـان الإنسـان يجاهـد دائمـاً ضـد العوائـق الخفية، التي شعر بتأثيرها في حريته، وإرادته، ومصيره!... وهـو جهـاد ــ لا مـن نـوع هـدام؛ كجهـاد الإنسـان المتألـه ضد نفسـه ــ بـل جهـاد بنـاء، كجهـاد المصـريين القـدماء، ضـد الـزمن وعوامـل فنائـه، بإقامـة الهياكـل الكـبرى، واخـتراع التحنـيط والأصـباغ، وكجهـاد أهـل الـدين السـماوي في الشرق، ضـد قلـق النفس، وغرائـز الإنسـان؛ بتثبيـت العقائـد ووضع الشرائع!...

ومهما يكـن من عجـز الإنسـان، وإخفاقـه أمـام مصـيره؛ فـإن العـبرة هـي بجهـاده ــ جهـاده المنـتج الشـريف!... ذلـك مـا أرادتـه القـدرة الإلهيـة للإنسـان؛ فهـي قـد ألقـت في سـبيله الأحجـار؛ ليجاهـد في تحطيمهـا، والعوائـق، ليكـافح في إزالتها!... وليس المهم للإنسان أن ينجح، بل المهم أن يكـدح، وليس الشرف للإنسـان في أن يقـول إنـي حـر، بـل في أن يقـول إنـي سـجين ولكـني أجاهـد للخـلاص!... لـولا شـرف الجهـاد

لهدى الله الناس ـ بغير أنبياء مجاهدين ـ ولجعلهم ينجحون في هداية الناس من أول كلمة؛ بدون كفاح!... لا، إن الإنسان ليس إلهاً، وإن الإنسان ليس حراً؛ ولكنه مجاهد ـ بإرادة الله ـ ضد قيود، مكافح ضد سجون!...

لو اتجه تفكير الأدب الأوروبي المعاصر إلى هذه الوجهة، ودعا إلى حشد قوى الإنسان؛ ضد القيود الخفية، التي تكبل حريته الحقيقية؛ ـ لكان في هذا النوع من التفكير، بعض الحل لأزمة الإنسانية، في العصر الأخير!. فأزمة الإنسان اليوم هي حربه ضد نفسه؛ فهو ليس له قريع آخر غير نفسه؛ لأنه لم يعد في غروره، يرى سوى حريته المطلقة!... لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة، التي تحرك وجوده، وتلعب بمصيره، وتستوجب نضاله، وتتطلب تفكيره!...

الأدب لا يلتزم

إذا كان الأديب يلتزم فالأدب لا يلتزم. وبمعنى أصح: إن الأديب لا يستطيع أن يلزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها، إلا إذا توسل إلى ذلك بالقيم الأدبية الرفيعة... فالأدب لا يمكن أن يضع في مراتبه العليا أديباً، استخدم أدباً رخيصاً أو فناً رديئاً، مهما يكن شرف الغرض الذي يهدف إليه!... فالأدب لم يضع "حسان بن ثابت" في طبقة "المتنبي" مع أن "حساناً" دافع بشعره عن الإسلام، ولم ينظم المتنبي، إلا بدافع اكتساب المال، والطمع في جوائز الخلفاء!... فالأدب أو تاريخ الأدب ينظر إلى الوسيلة قبل الغاية؛ لأن الغاية في الأدب والفن لا تبرر الوسيلة!... والغرض الشريف وحده لا يستطيع أن يكون جواز مرور يدخل به أصحاب الأدب الرخيص هيكل الفن العظيم، بل لابد أن يكون صاحب

الهدف النبيل أديباً رفيعاً أولاً حتى يسمح له بالدخول... وإلا قيل له: "ابتعد عن سبيل الأدب، واسلك سبيلاً آخر تبلغ به رسالتك!... أمامك طريق الصحافة، أو طريق الدعاية، أما من يريد أن يستخدم الأدب أو الفن وسيلة لتبليغ رسالته، فإنه يجب عليه ـ قبل كل شيء ـ أن يكون صاحب فن عال، وأدب رفيع!... ولو أن الموسيقى "شوستا كوفتش" وضع معانيه القومية، الإنسانية النبيلة، في إطار موسيقى: "الجاز" أو غيرها، من ألوان الموسيقى الخفيفة؛ ـ لما أخذت هذه المعاني على سبيل الجد، ولما كان لها صفة البقاء التي التصقت بها في هذا الوضع الفني الجدي!... ولو كان "إبسن" وضع أهدافه الإصلاحية وثوراته الاجتماعية، في مسرحيات خفيفة المظهر، سوقية الذوق، عامية التفكير؛ ـ لما استطاعت ـ حتى مع نجاحها؛ في بيئتها، وجيلها ـ أن تعيش بعد ذلك في كل جيل موفورة الاعتبار!...

على أن الالتزام في الأدب ـ على شرف غايته، ونبل مقصده، ودلالته على شعور الأديب بواجبه، نحو جماعته وعصره ـ لا يكافئ الأديب في كل الأحيان!... بل العجيب أن "الأدب" أو "الفن" بمقياسه العام، الخارج عن نطاق البيئة

والجيل، قلما يلتفت إلى الدافع الكريم؛ التفاته إلى القيمة الأدبية، والفنية الخالصة!... فسنفونيات "شوستاكوفتش" التي تسمع الآن في باريس، ولندن، ونيويورك ـ لا تظفر بتقدير الناس؛ من أجل ما فيها من اتجاهات اجتماعية، أو مذهبية، بل لما فيها من فن رائع رفيع!... كذلك الحال في مسرحيات "إبسن"؛ فقد تغيرت الظروف كما تغير المجتمع الذي ثار عليه هذا الفنان، وحقق الزمن أكثر الإصلاحات التي طالب بها، وأصبحت آراؤه الاجتماعية ـ كما يقول أهل السياسة اليوم ـ "غير ذات موضوع"!... ولكن القيمة الأدبية الرفيعة لهذه المسرحيات ـ بما فيها من شعر، وفكر ـ لم تزل باقية، يتذوقها المثقفون من أهل هذا الجيل، كما يتذوقها المثقفون في كل الأجيال... لأنها لم تكتب بأسلوب الدعاية الوقتية؛ لتمضي بمضي وقتها، بل كتبت بأسلوب الأدب العميق، الذي يبقى للفكر والأدب في كل زمان!...

أكثر من ذلك: إن الالتزام بالأغراض القومية والإصلاحية، قد يكون من منفرات الأثر الأدبي إذا نقل إلى بيئة أخرى تشعر شعوراً آخر!... ولأضرب مثلاً بتجاربي الخاصة!...

قال أحد النقاد الأوروبيين في عام 1937م عن كتاب "عودة الروح": "إن نزعته الوطنية مما يضايق قليلاً!... غير أن ظروف الحياة المصرية الحاضرة، تجعل من الصعب محو هذه النزعة، بدون المساس بصدق الكتاب كله!... وإنه لمن الظاهر فيه ـ فضلاً عن ذلك ـ وجود بعض عناصر أدب الطبقات الفقيرة!... الخ.

كما قال ناقد أمريكي عن كتاب "يوميات نائب في الأرياف": إنه على الرغم من تصوير الريف المصري؛ في أدق تفصيلاته الإنسانية، التي تجعل القارئ يحس كأنه موجود هناك؛ فإن نزعة الإصلاح الاجتماعي فيه هي "الهانديكاب" أي هي الحمل الذي يثقل على القارئ الأمريكي!... وقال ناقد صحيفة "ماريان" إن القارئ الأجنبي ينسى في أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التي حركت المؤلف، ووضع كتابه، بل إن القارئ يتمنى ألا يتغير شيء في عالم هذه المخلوقات الإنسانية!...

وأشارت صحف إنجليزية؛ مثل "اللسنر" و"السبكتاتور" وغيرها إلى الفقر، والظلم في بيئة الفلاحين، وفساد الأداة الإدارية إشارات عابرة، ولم تقف طويلاً إلا عند الصور

الفنية، والأشخاص، وأسلوب الفكاهة، والسخرية!... كل ما جاء في هذه الصحف ـ متصلاً بالوضع الاجتماعي؛ اتصالاً يوحي بالمشاركة في الشعور القومي ـ هو قول إحداها: إن في هذا الكتاب؛ عن مهزلة الفساد الاجتماعي الخالدة أكثر من مجرد استنكار، وكما حدث مع كتاب الروس في القرن التاسع عشر، وكما حدث مع كاتبنا "ديكنز" ـ يشعر الكاتب المصري أن مجرد العطف لا يكفي، وأن الغضب عبث، وأن السخرية وحدها هي أمضى سلاح للهجوم!..." الخ.

من هذا الاختيار الشخصي خرجت بهذه الحقيقة، وهي أن الشعور القومي خاص بأهله وبيئته، وأن الإصلاح خاص بمجتمعه وزمنه!...

***

على أن الأديب ـ الذي يشعر بإحساس بيئته، ووطنه، وجيله ـ يحزنه على كل حال أن يرى الناس في بيئة أخرى، تتصرف عن شعوره الإصلاحي إلى الأدب الخالص!... من الواجب إذن على الأديب، أن يتوقع ذلك، دون أن ينصرف

عـن جهـاده، فـالأدب الملتـزم لا يلـزم غـير بيئـة واحـدة في زمـن واحد... فإذا اختلفت البيئة، أو تغير الزمن، فإن الأدب يتحلل عندئذ من كل التزام، ولا يعيش بعدئذ إلا بقيمته الذاتية!...

الأدب لكل عصر

مشكلة الأديب هي أنه إنسان قبل أن يكون أديباً!... إنسان ابن بيئته، وجيله، ومجتمعه، وعصره!... لابد له أن يحس إحساس مجتمعه، وأن يتأثر بما يحدث في بيئته وزمنه!... ومع ذلك، لابد له من أن ينتج أدباً أي شيئاً، يستطيع الحياة في كل بيئة وعصر، والشيء الذي يستطيع الحياة في كل بيئة وعصر هو ذلك الذي يهم الإنسان في كل بيئة وعصر، هو ذلك الذي يتصل بالإنسان، باعتباره نوعاً بشرياً، ممتد الوجود في الزمان والمكان!... الخالد، هو ذلك الذي يصل عصره بكل العصور، ومجتمعه بكل مجتمع، ونفسه بكل النفوس!... هو ذلك الذي يستخرج من جيله المحدود مادة، تحيا في أجيال غير محدودة!... هو ذلك الذي يتأثر، ويؤثر في بيئته، وزمنه، ثم يستمر بعد ذلك،

يؤثر في كل مكان، على مدى الأزمان!... معنى هذا أن الأثر الأدبي الخالد، لابد إذن من أن ينطوي على شقين: شق يعني أهل زمنه خاصة، وشق يمكن أن يعني الناس كافة؛ في كل زمن ومواطن!...

على أن هذا القول ـ على إطلاقه ـ قلما يحدث بهذه الصورة ـ في أغلب الآثار التي اعتبرت خالدة؛ فأذواق الأمم متغيرة، ومدارك الأجيال متطورة؛ فمن الآثار الباقية ما أغفل في عصر، ولمع في عصر، وما غمض في بيئة، وفهم في بيئة!... فأعمال "شكسبير" لا يمكن أن تكون قد فهمت في بيئتها وعصرها؛ كما تفهم في العالم الآن، بعد أن شرح غوامضها، وألقى الضوء على أغوارها نقاد الألمان!... بل بعد أن استطاع علم النفس في العصور الحديثة أن يجوس بمصباحه خلال أشخاصها وما تكن من نفوس... أكثر من ذلك قد ند بيئتين ـ في عصر واحد ـ متساويتين في المدارك، ولا تتفقان على فهم أديب في الوقت عينه، وهذا ما حدث لبرناردشو، وهذا سبب من أسباب سخطه على أبناء لغته الإنجليز؛ فقد لبثت مسرحياته وقتاً لا تظفر بإقبال هؤلاء المواطنين، إلى أن التفت إليها الألمان، وأقبلوا على نقلها،

وتمثيلها، وشرحها؛ فمهدوا بذلك طريق استساغتها للعقل الإنجليزي!...

ومن الآثار ما دفنت في عصرها، لظروف شخصية أو سياسية، وبعثت في عصر آخر، عاشت فيه موضع عناية الأدباء والباحثين، وأقرب مثال لذلك، في الأدب العربي، آثار "أبي حيان التوحيدي!...

وهكذا لو تأملنا أغلب آثار الأدب والفن؛ تأمل الباحث عن سر حياتها؛ لوجدنا أنها لا تعيش حياة واحدة في كل العصور؛ لأنه ما من عصر ينطبق حاله على عصر آخر تمام الانطباق!... فالآثار قد تعيش في كل عصر، بشخصية مختلفة بعض الاختلاف، ويرى فيها أهل كل عصر الناحية، التي تتفق مع مزاجهم، وذوقهم، وتفكيرهم ومداركهم!... فهي أحياناً تعيش في زمان؛ بوجهها البراق المشرق، وتعيش في زمان آخر؛ بروحها الخفيف الجذاب، ثم تعيش في زمان أخير؛ بتفكيرها الدقيق العميق... والقليل جداً من بين هذه الآثار تلك التي تستطيع أن تعيش بوجه واحد في كل العصور!... وحتى تلك التي استطاعت أن تعيش لناحية واحدة فيها، فإن نقاد كل عصر يختلفون في أسباب

تذوقها، وأساليب بحثها، وطرائق تفسيرها؛ فالبراعة اللغوية ـ التي التزم بها "أبو العلاء" ـ لا تهمنا اليوم بمقدار ما يهمنا تفكيره، الذي صبه في تلك الصور الشعرية الرفيعة!...

بل إن اختلاف البيئات، في مجتمع واحد، وعصر واحد، قد يجعل للأثر الواحد حياتين مختلفتين، ولأضرب هنا أيضاً مثلاً بتجربتي الخاصة، فأقول ملاحظاً إن مسرحيات؛ مثل "أهل الكهف" و"شهرزاد" وسليمان الحكيم" الخ؛ استطاعت أن تحيا بعض الحياة في الكتب، ولكنها لم تستطع الحياة، حتى الآن، فوق مسرحنا العربي ــ مما جعلني يوماً أعتقد أنها لم تكتب إلا لتنشر في كتب!... إلى أن نقلت إلى لغات أجنبية، واطلعت أخيراً على بعض تقارير متحمسة، لبعض رجال المسرح الأدبي عن صلاحيتها هناك لحياة التمثيل، فسألت نفسي. أتراه اختلاف البيئة الثقافية لدينا، بين قراء الكتب الأدبية، ورواد المسارح العامة، ذلك الاختلاف ـ المتسع الشقة، حتى الآن ــ هو الذي يجعل لمثل هذه الأعمال هاتين الحياتين المختلفتين!...

على أننا نبالغ أيضاً إذا قلنا: إن الآثار الأدبية والفنية تعيش في كل العصور؛ كما خلقها مؤلفوها، ذلك أن الذي يحدث عادة هو أن أغلب هذه الآثار، تعرض في كل عصر عرضاً، قد يختلف عن الأصل قليلاً أو كثيراً!... فآثار "أرستوفان" و"سوفوكلس" و"شكسبير"؛ قلما تعرض في غير اقتباسات، أو إعدادات، فيها من الحذف، والتعديل والتبديل؛ ما يلائم النظارة وفن المسرح، وظروف الحياة الاجتماعية في كل زمن!...

كما أن الملاحظ في الآثار الأدبية، التي تنتقل من عصر إلى عصر، أنها تكاد تكون محصورة في نطاق أدب الخاصة!... فالأدب الشعبي قلما ينتقل من جيل إلى جيل، ومن موطن إلى موطن بالكمية والسرعة التي ينتقل بها الأدب الرفيع!... لقد كان "راسين" يقول إنه يكتب لمائتين فقط من الصفوة!... وها هوذا "راسين" يعيش إلى اليوم، حياة موفورة في ثقافة كل أمة متحضرة، على حين أنه يصل عصرنا كثيرون من شعراء الشعب أو مؤلفيه الذين صُفِّقَ لهم في المحافل والمسارح وطرب لهم في المغاني والمشارب... أترى الخلود الأدبي لا يصنعه غير نفر قليل من الصفوة في

كل بلد وعصر؟... إذا كان هذا صحيحاً فما هو السبب؟... أهو في عجز الأدب الشعبي عن الحياة في بيئة أخرى، غير بيئته، وزمن آخر غير زمنه؟... إلا في القليل النادر، عندما يسمو على نفسه بقوة في الخلق، ترفعه فوق اللغات، واللهجات، والحدود، والأزمان، والأجناس؛ كما هي الحال في قصص "ألف ليلة وليلة"؟... ومع، ذلك من الذي نقل هذه القصص إلى مرتبة الفن العالي والآداب العالمية؟... أليسوا هم خاصة من الصفوة، التفتوا إلى قيمتها الذاتية، وفطنوا إلى استحقاقها للبقاء والتقدير؟...

إذا كان هذا أيضاً صحيحاً فما هو السر؟... لماذا تختص الصفوة المثقفة بمهمة التخليد؟... لماذا خلدت لنا كل من تناولته بالعناية من الشعراء، والأدباء، والفنانين، حتى إن كانوا قد عاشوا حياتهم في نطاق ضيق من اهتمام الناس؟...

ربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هي التي تكتب، وتفسر، وتسجل، في حين أن سواد الناس يكتفون بالتلقي العابر!... وربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هي التي تصدر الأحكام الثابتة على أساس من فهم ثابت، في حين أن أفهام الناس، وأذواقهم ـ في مجموعهم وسوادهم ـ

متقلبة متموجة، تتحرك وتتطور كلما ازدادت حظاً من المعرفة والإدراك!...

أما بعد، فإني أستخلص من كل ذلك، الرأي الذي سبق أن أشرت إليه وهو: أن الأدب الكبير، هو ذلك الذي يصلح لعصره، ولكل عصر، وينفع الناس، ويعرض لشؤونهم، ويوجِّه حياتهم في جيلهم، ثم يمضي بعد ذلك، ينفع الناس في كل الأجيال!... هو ذلك الذي ينظر ـ بإحدى عينيه ـ إلى الوطن الصغير؛ ممثلاً في بيئته وزمنه، وبعينه الأخرى إلى الوطن الأكبر؛ ممثلاً في الإنسانية إلى نهاية الدهر!...

المحتوى

الأدب ومصير العالم/ تقديم مالك صقور................................5

الباب السابع: الأدب والمسرح...15
فن المسرحية...17
الحوار...27
البناء..36
الطبائع عند شكسبير...45
عوائق المسرحية عندنا...50
المسرح إتقان وتجويد...55
الإصلاح الخلقي والتمثيل...59
من صفات الكاتب المسرحي...67

الباب الثامن: الأدب والصحافة 71
غذاء الشعب العقلي..73
الأدب خادم للجماعة حافظ للقيم.......................................77
الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي 82
تربية الرأي العام 85
الذوق العام...88

الباب التاسع: الأدب والسينما والإذاعة 93
الأدب والسينما 95

الأدب والإذاعة...106
نجوم العين والأذن..112

الباب العاشر: الأدب ومشكلاته 123
نهر الحياة الكبرى 125
الشعر وأشعته 132
مستقبل الشعر 137
أدب القصة..146
حياة الشخصية القصصية 154
القدر في الخلق القصصي...166
الفنان والجمهور 174
الشهرة الأدبية 178
شخص الفنان..183
منطق الفنان 191
الفنان لا يشيخ 196
أدركته حرفة الأدب 200
الأدب والسعادة...207
الأدب ومصير العالم 213

الباب الحادي عشر: الأدب وأجياله 219
حلقات الأجيال 221
تبعات الأجيال...227
انفصال الأجيال...234
تصادم الأجيال 239

تجاهل الأجيال 244
حرمان الأبناء 250
صنع الأجيال 254
أجيال الطبيعة 258
تنوع الأجيال 263
مبدأ الأجيال القادمة 268
شبح جيل 274
الباب الثاني عشر 281
الأدب والتزاماته 281
الأديب يلتزم 283
الأديب وليد عصره 295
الأدب لا يلتزم 306
الأدب لكل عصر 312

إصدارات سلسلة

كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالـد محـي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبــد القــادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبــد القــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبــد القــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشـعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبــد القــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصـيدة الدمشـقية وقصـائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة قمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	وقصص أخرى			
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكايـــة الولـــد الفلســطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي القـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصـة السـورية (حضور المكان)- علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيــر ســلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطـوان تشـيخوف دراسـات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابـــراهيم الجرادي -عبـد	د. ابـــراهيم الجرادي -عبـد	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
		العزيز المقالح	العزيز المقالح	
45	عبد الله البردوني قصائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسـعينيات والأنمـاط الشـعرية السائدة)	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	ماياكوفسكي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مـأخوذاً بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جـان جـاك روسـو المصـلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمـد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبد اللطيف عقل دراسات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديــب والمفكــر أبــو حيــان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلــى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015